كيف يكتب التاريخ

من كلمة
للاستاذ صدام حسين

في موضوع العلاقة بين المجتمع والفرد والتاريخ ، لنا ان نتساءل : (لمن) يكتب التاريخ وكيف يكتب ؟ هل يكتب التاريخ للاحياء أم للاموات والشهداء ؟ ولماذا نلح على ان يكتب التاريخ ، بما ينصف الفرد المستحق ، دون ان يكون انصافه على حساب المجتمع ؟ عندما يكتب التاريخ بالاطار الذي اشرنا ، فان مثل هذا النهج يقدم خدمة كبيرة للاحياء من الناس في المجتمع ، لانه يشجعهم على البطولة ، بعد ان يبين لهم ان الناس المضحين يكونوا ، باستمرار ، محل تقدير المجتمع والتاريخ لهم ، وبما يغرس ويعمق روح التضحية والاقدام في نفوسهم ، لان الانسان الذي يستشهد انما يكون قد قدم كل ما لديه للمجتمع وللوطن ، وله الحق في ان يترك استشهاده اثرا حسنا وبارزا ، يذكر من بعده من قبل الشعب والتاريخ ، فيكون ذلك من دواعي اعتزاز ذويه ومعارفه واصدقائه • وهذا يفرض علينا ، ونحن نكتب التاريخ ، ان ننصف الشهداء ، ليس من اجل الاحياء استشادهم فحسب ، وانما من أجل الاحياء الذين نطلب منهم الاستبسال في الدفاع عن القيم ، التي تستوجب الاستشهاد ايضا •

ويقودنا الحديث في هذا الموضوع الى تساؤل آخر هو : هل تصورنا يوما ما ان تتقدم الحياة والمجتمع ، او اي فرع فيهما على طريق الاهداف المرسومة ، بدون قائد او قيادات ؟ الجواب ، لا يمكن تصور ذلك ، ولم يكن في التاريخ استشهادات يقتدى بها في هذا الاتجاه ، ان القائد هو ابن المجتمع وابوه ، في آن معا ، اذ هو ابن المجتمع في عملية الخلق الاول والتكون الاولى ، وهو ابو المجتمع واخوه في المرحلة التي يلعب فيها ادوارا قيادية •• وعندما

يكون القائد ابا المجتمع لا يعني ذلك ان يكون ابا عشائريا متخلفا ، بمعنى ان يكون وصيا عليه ، وأنما تكون ابوته ضمن سياق العلاقة الديمقراطية الثورية، وما تتطلبه من تفاعل ، بالاضافة الى الاسس والشروط الديمقراطية الاخرى ، كما نفهمها .

وفي تاريخنا العربي الكثير من الشواهد على الأبوة بهذه الصيغة ، صيغة المجتمع الذي يخلق القائد ، ثم يكون القائد أبا واخا كبيرا له ، بصيغة التفاعل ، لا بصيغة الابوة العشائرية . لدينا امثلة كثيرة وقادة كثيرون ، نقدمهم نموذجا صالحا لتدعيم هذا الاتجاه ، وان علاقة القائد بالمجتمع ، وفق هذه الصيغ والاتجاهات ، القائمة على اساس التفاعل الديمقراطي ، لا تضعف من مواقع القيادة، وانما تعززها وتعمقها وتزيدها احتراما ومحبة، بخلاف التطورات المضادة . وعندما نتحدث عن التاريخ ، علينا ان لا نأخذ الاحداث السابقة ، ونحاكمها بمقاييس الحاضر .. لان محاكمة الاحداث يجب ان تجري بظروفها وبأطار حركة المجتمع آنذاك ، ذلك لان الحدث والانسان هما ابنا المجتمع ، والركائز الاساسية لقيمه ، التي كانت سائدة آنذاك الى حد كبير ، والقيم التي كانت سائدة في الماضي هي غيرها الان ، وانسان الماضي هو غير انسان الحاضر فالانسان يتصل اتصالا حيا بحركة المجتمع ، يتقدمه من ناحية ويكون جزءا منه من ناحية اخرى . فالانسان المناضل ، الانسان الثائر ، يثور على مفاهيم وقيم المجتمع المتخلف برأسين : رأس يرتبط بالمجتمع ويدرس الامور بنظرة واقعية من اجل تغييرها . ورأس آخر ينزع الى أمام ، من اجل تقدم المجتمع وتحريكه الى امام وفق التصورات المركزية التي يؤمن بها .

على هذا الاساس ، لابد لنا ، عندما نتحدث عن حركة مايس عام ١٩٤١ ، ان نبرز ابطالها ، لا من اجل انصاف التاريخ في اشخاصهم حسب ، وانما من أجل اشخاص الحاضر ايضا ... من اجل ابطال الحاضر غير المرئيين ، الذين نريدهم ان يستبسلوا ، في الجولان وفي سينا ، وفي الضفة الغربية ، وفي الدفاع

عن كل شبر من ارض القطر والوطن العربي ••• من اجل هؤلاء جميعا يجب ان لا ننسى الابطال والشـهداء الذين كان لهم شرف الاستشهاد ، دفاعا عن الوطن •

حركة مايس لم تلق الاهتمام الكافي في السابق ، وينظر اليها احيانا نظرة فيها كثير من التجني •• عندما يسقط بعض الناس ، من تحليلهم لتلك الحركة، تعقيدات الظروف وطبيعة المرحلة آنذاك ، ولو ان اولئك الناس قد تفحصوا ظروف الثوار بشكل دقيق ، وعرفـوا ان بعض السياسيين في بلدان العالم الثالث ، ومنهم سياسيون في الوطن العربي ، لا زالوا يرتجفون او ينحنـون « باحترام » خاص ، حتى الآن ، عند ذكر الانجليز والاستعمار الانجليزي ، لادركوا بطولة اولئك الناس الذين ثاروا على الانكليز سنة ١٩٤١ • ان من يتصور الظروف التي حدثت فيها الثورة ، تصورا دقيقا ، يدرك ويتصـور عندها ، عظمة وقوة الارادة التي ثارت على الانكليز وحلفائهم واعوانهـم آنذاك •

عندما نتحدث عن الفرد ، ولا ننسى انه ابن المجتمع فعلينا ان لا ننسى ان البطولة ايضا هي أبنة المجتمـع ، في جانب اساسي منها ، اذ لو لم يكـن المجتمع آنذاك بطلا في أستعداده للتضحية ، وفي وعيه وفي عطائه ، وفي ارادته لما أنجب بطلا • وعلينا ، على هذا الاساس ، ان نربط ربطا صحيحا بين ذلك ، وبين دور الفرد ومبادراته وتضحياته ، بهذا الاطار ، أي ان لا نتحدث عـن دور الشعب في المجتمع ، ونسقط دور الفرد ونسحقه ، او نتحدث عن الفرد ، ونسحق دور الشعب في المجتمع •• لأن الاتجاهين خاطئان ، والمطلوب هو ان نتحدث عن المجتمع ، وعن الفرد ، في عملية تفاعل تام •

تقـــديم

بدافع من الوفاء والامتنان والتقدير تقدمت رئاسة قسم الاثـــار الى مجلس كلية الآداب الموقر بتاريخ ١٥/١/١٩٧٨ بمقترح يتضمن اصدار عدد خاص من مجلة كلية الاداب هديـة الى الاستاذ طـــه باقر ناصر ، اســـتاذ الحضارات القديمة بقسم الاثار ، جامعة بغداد ، وقد لبى مجلس الكليـــة الدعوة واقترن ذلك بموافقة رئاسة جامعة بغداد على الفكرة وعلى تحمـل نفقات الطبع •

وعندئذ عكف زملاء الاستاذ طه باقر ، ممن تتلمذوا على يـده ونهلوا من علمه الغزير على اعداد ابحاثهم كلا في حقل اختصاصه • وهـكذا خرج الى النور هذا الاصدار الخاص الذي يحمل بين دفتيه ، اضافة الى قيمته العلمية ، معاني وعواطف عزيزة لا تحتاج الى شرح او تفصيل •

ولقد القى علينا زملاؤنا الافاضل بقسم الاثار مهمة صعبة عندما كلفونا بمهمة كتابة المقدمة لهذا العدد الخاص • فالاستاذ طه باقر عالم كبير بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، وهو مربي فاضل تتلمـذت عـلى يديـه اعـداد كبيرة من الطلبة ، وباحث اغنى المكتبة العربية والمكتبـة الاجنبية بكتبـه وابحاثه الاصيلة ، واداري مرموق تقلد مناصب عديدة ومهمة • كما انـه اسهم وبشكل فعال في العديد من المؤتمرات العلمية داخل القطر وخارجـه وشارك في لجان كثيرة متخصصـــة بالدراسات الاثريـــة فاغناها بآرائـــه ومقترحاته البناءة ، وكان وما يزال عضوا بارزا في المجمع العلمي العراقي •

واهم من كل ذلك ان الاستاذ طه باقر ما يزال على امتداد المسيرة التي نأمل في ان تطول وتطول ، استاذا نشيطا • بين زملائه وطلبته في اروقـــة جامعة بغداد ، يغنيهم بعلمه واطلاعه الواسع وخبرته العميقة •

وقسم الاثار بكلية الاداب مدين الى الاستاذ طه باقر بفضل كبير عندما ساهم هو والمرحوم الاستاذ زكي حسن والمرحوم الاستاذ فؤاد سفر بوضع اللبنة الاولى التي قام عليها القسم عام ١٩٥١ . ومنذ ذلك الحين والاستاذ طه باقر يسهم في تطوير القسم ونشاطه ومشاريعه العلمية .

لقد كتب الاستاذ طه باقر وتحدث وترجم فاجاد وابدع في موضوعات وجوانب عديدة من تاريخ الحضارات القديمة والتراث العربي الاسلامي في وادي الرافدين والوطن العربي . وهو عالم معروف داخل القطر وخارجه .

لكن هناك موضوعا واحدا بالذات نعتقد ، من خلال تلمذتنا على يديه ومن خلال زمالاتنا الطويلة له بقسم الاثار ، انه احبه اكثر من غيره ، الا وهو سيرة البطل الشهير كلكامش ، ومعروف ان الاستاذ طه باقر الف كتابا عن البطل كلكامش نشرته وزارة الاعلام في طبعتين .

واذا كانت ملحمة كلكامش تبدأ بالبيت الاول الشهير الذي يقول « هو الذي رأى كل شي » فانا اقول ، بالنيابة عن زملائي بقسم الاثار ، واصالة عن نفسي « الى الذي عرف كل شي » الى الاستاذ طه باقر نهدي هذا المجلد .

بغداد العاشر من ايار
عام ١٩٧٨

الدكتور فاضل عبدالواحد علي
استاذ السومريات / رئيس قسم
الاثار بجامعة بغداد

بين الواح سومر وسفر التكوين

الدكتور فاضـــل عبدالواحد علي
استاذ السومريات / جامعة بغداد

كنا قد تناولنا في بحثين سابقين الحديث عن الآثار الفكرية والحضارية التي تركها التراث السومري والبابلي في سفر التكوين في التوراة .

اذ اشرنا في كتابنا « الطوفان »(١) عن التشابه بين القصة السومرية ـ البابلية والقصة التوراتية .

كما واشرنا في بحثنا الموسوم « جنة عدن والفردوس المفقود »(٢) الى اوجه التشابه بين المعتقدات السومرية ـ البابلية عن جنة عدن وبين ما حفظه سفر التكوين بهذا الخصوص . وقد تناولنا بشيء من التفصيل في هذه المقالة الاخيرة ، بين اشياء اخرى ، خطيئة آدم وخروجه من الجنة وقارنا ذلك بفشل ادبا في الحصول على الخلود كما ترويها القصة البابلية .

بقي لدينا موضوعان رئيسيان من تلك التأثيرات السومرية ـ البابلية في سفر التكوين وهما « خلق الكون والانسان » و « قصة مولد موسى » وهذا ما سوف نتناوله في بحثنا الحاضر . وبذلك نكون قد اتممنا في هذا البحث والبحثين السابقين الحديث عن التأثيرات السومرية ـ البابلية في سفر التكوين والتي اخترنالها مجتمعة عنوان « بين الواح سومر وسفر التكوين » .

خلق الكون والانسان

الف السومريون والبابليون من بعدهم اساطير وقصص عديدة تتناول بصورة مباشرة او غير مباشرة موضوع خلق الكون وخلق الانسان ، وجاءوا بهذا الخصوص بافكار مهمة اعتمدتها كثير من الشعوب المعاصرة واللاحقة لهم كلا او جزءا . ونذكر من هذه الاساطير على سبيل المثال الاسطورة الخاصة

بكلكامش ورفيقه انكيدو[٣] حيث تحتوى مقدمتها ، رغم قصرها ، على معلومات في غاية الاهمية عن انفصال السماء عن الارض على يد الاله انليل بعد ان كانتا كتلة واحدة ٠

والكون في السومرية an-ki « السماء والارض » يمكن تجزئته بموجب الفكر السومرى الى جزئن ، سماوى ويتكون من السماء وفضاء فوقها (يعني في السومرية «العلى») حيث تسكن الالهة السماوية ٠ والآخر ارضي ويتكون من سطح الارض وفضاء تحتها يعرف بـ « العالم السفلي » ، حيث تعيش الهة العالم السفلى وحيث يوجد الاموات ٠ ويمكن القول على ضوء المعلومات الواردة في هذه المقدمة لقصة « كلكامش وانكيدو » وعلى ضوء اساطير سومرية اخرى مثل اسطورة « الماشية والحنطة » واسطورة « خلق المعول » ان هناك خمس نقاط اساسية عند السومريين بخصوص خلق الكون :

١ ـ في البدء كانت مياه البحر (في السومرية الالهة نمو (Nammu والارجح ان السومرين تصوروا ان المياه هذه كانت ازلية طالما لا يوجد ما يشير في النصوص السماوية الى اصلها او « مولدها » ٠

٢ ـ من مياه البحر الازلية هذه « ولد » جبل كوني يمثل السماء والارض متحدثين : السماء في (السومرية An واعتبرت عنصرا مذكرا) ٠ والارض (Ki عنصرا مؤنثا) ٠

٣ ـ تتيجة « لاتحاد » السماء والارض ولد اله الهواء انليل ٠

٤ ـ ان الاله انليل فصل السماء عن الارض « فحمل » ابوه (An) السماء وحمل هو الارض ٠

٥ ـ بعد ان تم فصل السماء عن الارض وتم خلق الكواكب والنجوم ظهرت معالم الحياة على الارض ٠

اما بالنسبة للبابليين فلا شك في ان قصة الخليقة البابلية الموسومة « عندما كان في العلى » (اينوما ايلش)(٤) تعتبر على قدر كبير من الاهمية بالنسبة للموضوع . غير ان هذه القصة ، برغم تفاصيلها الكثيرة وطابعها المسرحي في عرض قصة التكوين ، لا تختلف في جوهرها كثيرا عن معتقدات السومريين المذكورة اعلاه .

هنا نجد أيضا انه لم يكن في البدء سوى المياه الازلية « أبسو » (المياه العذبة ، مذكر) وتيامة (المياه المالحة مؤنث) ، وانه من امتزاجهما ولد الجيل الاول من الالهة ثم الثاني والثالث ... وتتكاثر على هذا النحو وبصبح صخبها وضجيجها مدعاة لضجر ابيهم « ابسو » فيعقد العزم على ابادة ابنائه . لكن الآلهة الحديثة تعلم بالمكيدة فتتقدم على قتله . وتحاول تيامة الانتقام لزوجها القتيل فتجند كل ما لديها من قوى وارواح شريرة فتاكة . وازاء ذلك تصاب الالهة بالذعر وتجتمع لتتدبر الامر .. وبعد الاخذ والرد تعلن بالاجماع اختيار الاله مردوخ ملكا عليها وبذلك تضعه امام مسؤولية الدفاع عنها وخوض حرب طاحنة ضد تيامة وجيوشها . ويقود مردوخ جيوشه ويخرج في نهاية الصراع منتصرا وذلك عندما يقتل تيامة ويشطر جسدها الى شطرين ليجعل من اولهما السماء ومن ثانيهما الارض .

هنا في اسطورة الخليقة البابلية نجد ايضا ان المياه كانت اصل الوجود وان السماء والارض تكونتا ، على غرار المعتقدات السومرية ، نتيجة لعملية انشطار جسد تيامة (المياه المالحة) الى شطرين على يد مردوخ .

ان خلق الكون في معتقدات السومريين والبابليين وما تبعه من خلق النجوم والكواكب له ما يوازيه في بداية الاصحاح الاول من سفر التكوين حيث تعتبر التوراة ان المياه اصل الوجود وان السماء والارض خلقتا بعد عملية فصل ايضا « بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد »(٥) .

وكذلك فقد كان خلق الانسان واحدا من المواضيع التي تناولتها الاساطير السومرية والبابلية على حد سواء والتوراة ايضاً • اذ نفهم من اسطورة سومرية يعود زمن تدوينها الى الالف الثالث ق•م ان الالهة اصابها الجـوع بعد ان تكاثرت وزاد عددها وان الالهة نمو « الام التي ولدت كل الالهة » جاءت الى ابنها انكي اله المياه وطلبت منه ان يخلق « عبدا للالهة ينتج لها طعامها » • وكان جواب انكي ان الامر ممكن وان عليها ان تأخذ شيئا من الطين « الذي وسط مياه العمق وتخلق منه الانسان ، وينخرم الرقيم الطيني في هذا الموضع من النص ، وعندما ينتظم ثانية نجد الاله انكي يقيم دعوة للالهة للاحتفال على ما يبدو بخلق الانسان • وفي خلال ذلك تقوم الآلهة ننماخ (السيدة العظيمة) باخذ قطع من الطين وجعلها على صورة البشر بينما « يقرر لها انكي المصائر »•

ونقرأ في اسطورة سومرية اخرى[٦] ان الالهه بقيت بحاجة الى المزيد من اللبن والخبز حتى بعد ان تم خلق لخار (اله الماشية) واشنان (الهة الحنطة) وانها لذلك خلقت الانسان ليعنى بزرائب الماشية ولتتمكن هي من التنعم بمزيد من الاكل والشرا ب•

اما عند البابليين فتعتبر قصة الخليقة وقصة الطوفان « اتراخاسيس » من المراجع الاساسية عن موضوع خلق الانسان وتتميز قصة الطوفان البابلية لـ « اتراخاسيس »[٧] عن قصة الخليقة وعن غيرها من المراجع المسمارية ذات العلاقة بخلق الانسان في انها تحتوى على تفاصيل وافية عن عملية الخلـق لا يجدها الباحث في المؤلفات المسمارية الاخرى • فنحن نقرأ في منتصـف الرقيم الاول من هذه القصة ان الالهة العظام آنو وايا وانليل اجتمعوا ليتدبروا الآمر بشأن التمرد الذي قامت به الالهة المسماة ايكيكي (Igigi) فالمعروف عن هذه الالهة انها اوكلت بمهمة اصلاح الارض وفلاحتها وانها عملـت اربعين عاما حتى اضناها التعب ومشقة العمل فاعلنت عصيانها مطالبة بحلق من يحمل عنها « النير » • وبعد مناقشة الامر بين الالهة العظمى طلب أيا اله

الحكمة من الالهة الاخرى ان تبعث في طلب ننتو (Nintu) الهـة النسـل لتخلق الانسان الذي عبر عنه النص البابلي بكلمة لوللو (Lullu) [٨] .

وعندما حضرت الالهة ننتو خاطبها الالهة العظام قائلين :

انت يا الهه النسل القادرة على خلق البشر
اخلقي لوللو من اجل ان يحمل النير
ليحمل النير الذي فرضه انليل
ليحمل الانسان عناء الالهة

وتذكر قصة الطوفان البابلية لـ « اتراخاسيس » انه جيىء بعد ذلك بالاله وى ـ ايلا (We-ila)[٩] فذبح امام الالهة و « مع لحمه ودمه مزجت الالهه ننتو الطين » وخلقت منه الانسان :

وذبحوا في مجلسهم وى ـ ايلا الذي كانت له شخصية .
ومع لحمه ودمه
مزجت ننتو الطين
ثم استعملوا الى الطبل[١٠] لما تبقى من الوقت
فكانت روح من لحم الاله
ونودى (بالانسان) الحي رمزا لها[١١]

واذا ما صرفنا النظر عن التفاصيل الجزئية ، فيمكننا القول على ضوء ما تقدم ان المآثر السومرية والبابلية تتفق على نقاط جوهرية بخصوص خلق الانسان وهي :

١ ـ ان الانسان خلق من طين (او طين ودم حسب المآثر البابلية) .

٢ ـ ان خلق الانسان لم يكن غاية في حد ذاتها او نتيجة مكملة لبقية مراحل خلق الكون وانما حدث بسبب العناء الذي اصاب الالهة من جراء العمل في الارض فقررت ان تخلق بديلا عنها يحمل المشقة .

٣ ـ انه خلق من اجل ان يكد ويكدح في الارض لكي يريح الالهة من عناء العمل وليقدم لها الطعام .

وبالمثل فقد كان خلق الانسان بموجب التوراة من اجل « ان يعمل الارض » « كما انه جبل ترابا من الارض »[١٢] على غرار ما رأينا عند السومريين والبابليين .

بين سرجون وموسى : تشابه في قصة المولد

كان سرجون الاكدي (٢٣٧٠ ـ ٢٣١٦ ق.م) بحق واحدا من الم شخصيات التاريخ القديم . فعهده كان بداية لحكم اقوام الجزيرة العربية في العراق بعد ان كانت الهيمنة السياسية بيد السومريين . واليه يعود الفضل في توحيد دويلات المدن وفي ترسيخ قواعد الدولة التي كتب لها ان تصبح بفضل فتوحاته العسكرية واحدة من اشهر الامبراطوريات في المنطقة .

لقد وصلتنا من سرجون بضعة نصوص كتابية تسجل بالدرجة الاولى منجزاته العسكرية في توطيد نفوذه في الداخل وفتوحاته الواسعة في الخارج[١٣] .

أما النص الذي نحن بصدده الان ، وهو الذي يتعلق بقصة مولد هذا الرجل ، فانه وصلنا من فترة تاريخية متأخرة ، حيث تعود نسختان منه النهاية مهشمة في النسختين) الى العصر الآشوري الحديث (في حدود ٧٥٠ ق.م) بالاضافة الى كسرة من رقيم تحتوى على جزء من النص تعود الى العصر البابلي الحديث (في حدود ٦٠٠ ق . م)[١٤] . وعلى الرغم من بعد الزمن بين عصر سرجون والعصر الذي كتبت فيه هذه الالواح فاننا لا نشك اطلاقا في انها مستنسخة من الواح اقدم كانت تتضمن النص الكامل لقصة مولد هذه الشخصية الفريدة .

ان ما تبقى من قصة مولد سرجون على الرقم الثلاثة المهشمة لا يزيد على واحد وثلاثين سطرا لكنها تعتبر رغم ذلك على قدر كبير من الاهميـة للباحثين في اصول التراث العراقي القديم .

يقول سرجون في هذا النص عن نفسه ما يلي :

انا سرجون الملك العظيم ، ملك بلاد اكد
كانت امي كاهنة عظمى (enetu في الاكدية)[١٥] وانا
لا اعرف ابي
كان شقيق ابي يحب الجبال
ومدينتي كانت آزوبيرانو (Azupiranu) [١٦]
التي تقع على ضفاف الفرات
لقد حملتني امي وولدتني سرا
ووضعتني في سلة من البردى ختمت غطاءها بالقير
ومن ثم رمتني في النهر الذي لم يغمرني
فحملني النهر واخذني الى الغراف آكي (Akki)
فاتخذني الغراف آكي ابنا له
وجعلني الغراف آكي بستانيا عنده .
وعندما كنت بستانيا منحتني عشتار حبها[١٧]
فاضطلعت بمهمة الملوكية اربعا و (...)[١٨] سنة
لقد سست وحكمت ذوي الرؤوس السود[١٩]
وقهرت الجبال الشاهقة بفؤوس برونزية قاطعة
تسلقت القمم العليـا
وعبرت القمم السفلى
وطوفت حول بلدان البحر ثلاث مرات
واستولت (يداى) على دلمون[٢٠]

... وغـيرت .....
فاى كان الملك من بعدى
فعسى ان يسوس ويحكم ذوى الرؤس السود
ويقهر الجبال الشاهقة بفؤوس برونزية قاطعة
ويتسلق القسم العليـا
ويعبر القمم السفلى
ويطوف حول بلاد البحر ثلاث مرات
(وتستولى يداه على دلمون)
ويقصد مدينة الدير[٢١] العظيمة
... من مدينتي اكـد ...

يتضـح من هـذا النص ان ام سـرجون كانـت كاهنـة عظمـى (في السـومرية (Nin-Dingir) والاكديـة entu) وانهـا كانـت مضطرة لان تتخلص من وليدها غير الشرعي فرمته في النهر . فأم سرجون باعتبارها كاهنة عظمى كانت من الوجهة الدينية زوجة للاله، حتى ان اسمها (Nin-Dingir) يعنـي « السيد الالهية » . ولهـذا لم يكـن لها حق الـزواج وبالتالي الانجاب كما ان القوانين اوجبت عليها التعفف ومنعتها من التردد الى الاماكن المشبوهة ، وبعكسه فهي تعرض نفسها الى عقوبة الحرق . ومن جهة اخرى فقد فـرض المشرع عقوبة الجلد وحلاقة نصف الرأس على كل من يأتي بتهمة باطلة ضـد هذه الكاهنة . ولهذا اضطرت ام سرجون الى ان تتخلص من وليدها غـير الشرعي بالطريقة التي وصفها لنـــا النص ، والا عرضت نفسها الى مشاكل اجتماعية وقضائية كثيرة .

ومما تجدر الاشارة اليه بخصوص الكاهنة العظمى في وادى الرافدين ان معظمهن قد جرى اختبارهن من الاميرات (بنات الملك) . ولدينـا قائمة تحتوي على اسم اثنتي عشرة كاهنة ممن كرسن للخدمة في معهد اله القمر ننا

(ســن) في اور • ومن محظ الصدف ان تكون اولى تلك الكاهنات الامــيرة انحيدوانا (Enḫeduanna) ابنة الملك سرجون الاكــدي نفســه الذي اراد لها على ما يبدو ، ان تحترف الكهانة على غرار جدتها (امه) •

ان قصة مولد سرجون هذه تشبه الى حد ما القصة المعروفة عن مولد موسى[٢٢] اذ تذكر التوراة أن الفرعون امر جميع شعبه قائلا : كل ابن يولد تطرحوا في النهر لكن كل بنت تستحيونها • وذهب رجل من بيت لاوى واخذ بنت لاوى فحبلت المرأة وولدت ابنا • ولما رأته انه حسن خبأته ثلاثة اشهر • ولما لم يمكنها أن تخبئه بعد أخذت له سفطا من البردى وطلته بالحمر والزفت ووضعت الولد فيه ووضعته بين الحلفاء على حافة النهر •

ووقفت اخته من بعيد لتعرف ماذا يفعل به • فنزلت ابنــة فرعون الى النهر لتغسل وكانت جواريها ماشيات على جانب النهر ، فرأت السفط بــين الحلفاء فارسلت امتها واخذته • ولما فتحته رأت الولد واذا هو صبي يبكي • فرقت له وقالت هذا من اولاد العبرانيين ، فقالت اخته لابنة فرعون هل اذهب وادعي لك امرأة ترضعه من العبرانيات ودعت ام الولد لها ابنة فرعون اذهبي بهذا الولد وارضعيه لي وانا اعطي اجرتك • فاخذت المرأة الولد فصار لهــا ابنا • ودعت اسمه موسى وقالت اني انتشلته من الماء (الخروج ١ : ٢٢ ، ٢ : ١ ـ ٢٠) •

ان قصة سرجون وموسى تلتقيان في نقاط عديدة نذكر ابرزها :

١ ـ ان ولادة الطفلين في كلتا القصتين تحاط بالكتمان • فأم سرجون كانت مرغمة على كتمان ولادته لانها حملت به وهي كاهنة عظمى • وكذلك موسى فولادته احيطت بالكتمان ايضا لان فرعون كان قد أمر بقتــل ابناء العبرانيين •

٢ ـ تتطابق القصتان في روايتيهما عن وضع الوليد في سلة والقائه في النهر •

٣ ـ في كلتا القصتين هناك مما ينتشل الوليد ويرعاه : الغراف آكي في قصة سرجون وابنة فرعون في قصة موسى •

مراجع وملاحظات :

(١) فاضل عبدالواحد علي ، الطوفان (جامعة بغداد ١٩٧٥) ص ٦٩ وما بعدها •

(٢) مجلة كلية الآداب ، المجلد ٢٢ (١٩٧٨) ص ٢٦٩ ـ ٢٨٣ •

(٣) Kramer, Sumerian and Mythology, P. 30-41.

(٤) Heidel, The Babylonian Genesis, P. 1 ff.

(٥) التوراة التكوين ٦ ـ ٧ •

(٦) Kramer, op. cit, P. 68.

(٧) فاضل عبدالواحد علي ، الطوفان (١٩٧٥ ص ٩) وما بعدها •

(٨) الكلمة (Lullu) مستعارة من السومرية Lu-ulux والتي تعني حرفيا الانسان البعيد او « السحيق » اى « الانسان الاول » وتستعمل الكلمة (Lullu) احيانا للتعبير عن الانسان المتوحش باعتبار ان التوحش أى كان من صفات الانسان البدائي : انظر :

Von Soden, Akkadische Handworterbuch, P. 562, Speisir, Ancienet Near Eastern Texts, P. 68 n. 86.

اما الكلمة السومرية (lu) ومرادفتها الاكدية awelu فأنها تدل على الانسان او البشر بالمعنى الاعتيادى •

(٩) يكتب اسمه احيانا بشكل وى (we) فقط • اما مدلول الاسم فانه غير واضح • ولا يخفى ان الاله وى ـ ايلا في قصة اتراخاسيس نظير للاله كنكو (Kingu) في قصة الخليقة البابلية التي اشرنا اليها في اعلاه فالاله حكم عليه بالموت بعد ان شهدت ضده الالهه ايكيكي بكونه قائدا لقوات تيامه العادية ومن ثم ذبح من اجل ان يخلق الانسان من دمه •

(١٠) يبدو ان قرع الطبول كان جزءا من الطقوس الخاصة بالخلق وان كانت الاشارة هنا غير واضحة .

(١١) فاضل عبدالواحد علي ، الطوفان ص ٥٣ .

(١٢) التوراة : التكوين ٢ : ٦ ـ ٨ .

(١٣) L. oppenheim, "Text, from the Begining of the First Dynasty of Babylon", in Ancient Near Eastern Texts, p. 265-266.

(١٤) Speiser, "The Legend of Sargon", in Ancient Near Eastern Texts, p. 119.

(١٥) اصبح اكيدا الآن ان الكلمة enetu ليست سوى صيغة ثابتة للكلمة المعروفة entu « الكاهنة العظمى » التي كان يقابلها في المعبد السومري ـ البابلي الكاهن الاعظم (enu) ، انظر :

Chicago Assyrian Dictionary , Vol. 4, 172.

(١٦) تعني الكلمة « الزعفران » (على غرار الزعفرانية) غير ان موقعها غير معروف .

(١٧) كثير من ملوك وامراء وادي الرافدين ادعو بمحبة عشتار الهة الحب والخصب)لهم والاشارة تعني ضمنيا اختيارها سرجون للملوكية حيث ان الحكم في وادى الرافدين كان يقوم على مبدأ التفويض اي ان الالهي تختار واحدا من البشر ليحتلها في حكم البلاد .

(١٨) الكلمة المخرومة لابد كانت الرقم (٥٠) حيث حكم سرجون في حدود (٢٩٧٠ ـ ٢٣١٦ ق.م) .

(١٩) اصطلاح شائع الاستعمال في وادي الرافدين والمقصود به « الناس الشعب » بصورة عامة .

(٢٠) البحرين حاليا .

(٢١) هناك مدينة الدير الواقعة على بعد ١٦ ميلا جنوب غربي العاصمة بغداد كما ان هناك مدينة اخرى بهذا الاسم تقع بالقرب من بدرة على الحدود الشرقية لوادى الرافدين مع ايران .

(٢٢) الراجح ان مولد موسى وخروجه فيما بعد من مصر مع العبرانيين كان قد حدث في زمن الفرعون رعسيس الثاني (١٢٩٠ ـ ١٢٣٤ ق٠م) والراجح ايضا ان اسم موسى مصري يعني « الوليد » « الطفل » على غرار Tutmose الوليد (الاله) توت ، ومعنى هذا ان موسى كان يعرف بالاصل باسم كامل بقي منه في الاستعمال جزء واحد هو موسى ، انظر :

J. Wilson, The culture of Egypt, Phoemix Books (1954) pp. 254 -256;

Finegam, Light from the Anceint East (1954), P. 105-109, 116.

الفكر الديني القديم في اليونان

بقلم
الدكتور تقي الدباغ
استاذ بكلية الاداب
في جامعة بغداد

لقد اسفرت التنقيبات الاثرية العديدة في المستوطنات القديمة في جزيرة كريت والجزر المجاورة لها في بحر ايجة وفي شبه جزيرة اليونان عن فهم مظاهر بارزة ومهمة من مظاهر حضارتين قديمتين هما الحضارة المينونية والحضارة المايسينية[1] • فقد اكتشفت اثر تلك التنقيبات مخلفات كثيرة شملت المعابد

---

(١) المينونيون هم سكان جزيرة كريت والجزر المجاورة لها في بحر ايجة في الفترة ما بين سنة ٢٧٠٠ قبل الميلاد وسنة ١١٠٠ قبل الميلاد وعرفوا بهذا الاسم نسبة الى مينوس الذي قد يكون اسما لملك معين او لقبا يطلق على اكثر من ملك واحد كالفرعون في العصور القديمة والقيصر في العصور الحديثة وقد عرف هذا الاسم من الاداب الاغريقية • وعرفت مظاهر الحضارة المينونية بعد التنقيبات التي اجراها السر آرثر ايفانس في مدينة كنوسوس عاصمة المملكة سنة ١٨٩٥ وبعد الحفريات التي اجراها غيره في المدن الكريتية الاخرى مثل فستوس وهاكيا ترياذا وفاسيليكاى ومخلص وزاكرو وكورنيا وباليكاسترو وغيرها ، وقد قسم المعنيون بالاثار زمن استيطانهم استنادا الى المقارنة بالنوع وتتابع الطبقات الى ثلاثة ادوار سموها بالدور الاول والثاني والثالث وقسموا كل دور من هذه الادوار الى ثلاثة ادوار ثانوية • اما المايسينيون فقد دخلوا شبه جزيرة اليونان وانتشروا في الجزر الايجية في الدور الهيلادى الثالث اي في الفترة ما بين سنة ١٦٠٠ قبل الميلاد وسنة ١١٠٠ قبل الميلاد وعرفوا بهذا الاسم نسبة الى مدينة مايسيناى التي اجرى فيها شيلمان حفرياته الاثرية سنة ١٨٨٤ فكشف عن حضارة زاهرة استخرجت اثارها من مواقع اثرية اخرى مثل ترنز واسبارطة واجاينا واللوسس وخيرونا ودلفاى • ويظن ان المايسيتيين كانوا يمتون بصلة القرابة الى الفريجيين والكاريين باسيا الصغرى والى المايونونيين في كريت • ويعتقد الاغريق بأنهم وفدوا من تراكيا وتسالي واطلقوا عليهم اسم بيسكي ، أي أهل البحر •

والدور والقصور والالات والادوات والمنحونات البارزة والمجسمة والاواني الفخارية والمعدنية والحلي ورقم الطين وغيرها ، وبالرغم من كثرة ما وصل الينا من الاثار التي لها علاقة بالدين فان رسم الصورة الكاملة والواضحة للاحوال الدينية في العصور المينونية والمايسينية أمر صعب للغاية لافتقارها الى الوثائق المدونة التي زخرت بها الاداب الاغريقية في العصور الكلاسيكية التي بحثت في مختلف نواحي الحياة ومنها الاديان فتناولت الاساطير والالهة والمعابد والاصنام والاوثان والقرابين والطقوس وما بعد الموت والاعياد الرسمية والشعبية وغيرها فاصبحت دراسة الاديان في عصورها التاريخية اقل تعقيدا . ويضاف الى ذلك ان اثار عصور قبل التاريخ تخضع لتفسيرات مختلفة ولكل باحث رأي خاص بها ولهذا يجدر بنا أن نتحفظ في دراسة كل حالة لا تتوفر فيها المصادر المكتوبة .

ان أقدم المخلفات الاثرية ذات العلاقة بالدين هي اصنام اثوية(٢) استخرجت من طبقات المواقع التي تعود للعصر الحجري الحديث(٣) ويختلف الباحثون في تفسير ما تمثله هذه الاصنام ، اذ يشك بعضهم في اهميتها الدينية ويعتبرونها مجرد تماثيل للتعبير عن الهواية الفنية في النحت ، ويعتقد آخرون انها تمثل نوعا من الايمان بالالهة وقد صنعت لتجسيد تلك الالهة ونرجح استنادا الى المقارنة مع المثيلات في الاقطار المجاورة ان تكون أصناما للالهة الام التي عبدت هنا في الكهوف في عصور ما قبل التاريخ وهناك آثار

---

(٢) Evans, 1921, P. 44—52, Figs, 11—13

(٣) وجدت آثار هذا العصر في كنوسوس في النصف الاسفل من التل كما وجدت في مواقع كريتية اخرى وفي شبه جزيرة اليونان وجدت آثار مجموعتين من القرويين سكنت الاولى في السهول وسكنت الثانية في الجبال وفي جميع الاحوال لم يكن هؤلاء القرويون في كريت واليونان اغريقا لان الاغريق دخلوا البلاد في الدور الهيلادي الثاني في الفترة ما بين ٢٠٠٠ ـ ١٦٠٠ قبل الميلاد (انظر Hutchinson, 1962
Pendlebury, 1939: Wace, 1949, 1962

اخرى لهذه العبادة اكتشفت في جزيرة كريت ، ففي وسط كهف امنسوس القريب جدا من مدينة كانديا الى الشمال من العاصمة كنوسوس وجدت اوثان بهيئة اعمدة صاعدة من الارض تحيطها جدران حجرية ووجدت حول تلك الاوثان اواني حجرية كبيرة استخدمت لتقديم النذور مما يشير الى قدسية هذا الكهف الذي اتخذ مقرا للعبادة في عصر لم تعرف فيه المعابد ، ويذكر هرمر ان هذا الكهف كان مقرا لعبادة الالهة ايليثيا(٤) ويظهر ان عبادة هذه الالهة استمرت في هذا الكهف حتى بداية العصور الميلادية(٥) ، وهناك كهوف اخرى في جزيرة كريت استخدمت للعبادة اشهرها كهف ايدا وكهف كاماريس وكهف سخرو وكهف اركالوكري ، وقد وجدت فيها جميعا اصنام وأوثان عبدها المؤمنون بها . اما في شبه جزيرة اليونان فلم يعثر على كهف له اهمية دينية رئيسية في عصور قبل التاريخ ولكن هذا لا يعني ان الكهوف لم تستخدم لاغراض اخرى لها صلة بالدين ففي احد كهوف اركولد سكن الانسان منذ نهاية العصر الحجري الحديث وحتى بداية العصور الكلاسيكية ودفن موتاه في مستوطنة هذا ودفن معهم ما يفيدهم في الدار الاخرة .

يفهم مما سبق ان الكهوف هي اقدم الاماكن لاقامة شعائر وطقوس عبادة الالهة في الجزر الايجية وشبه جزيرة اليونان ففي هذه الكهوف المقدسة اقيمت الاوثان وصنعت الاصنام للتعبير عن الوجود الرمزي للالهة اثناء اقامتها فوق الارض وفي هذه الكهوف مارس المتعبدون اقوى المراسيم اثارة للعواطف الدينية ابتغاء مرضاة الالهة .

وفي الدور المينوني المتوسط ظهرت المعابد البسيطة فوق قمم الجبال فعلى قمة جبل جوكتاس(٦) بالقرب من كنوسوس عثر على بقايا معبد وعثر

---

(٤) ايليثيا هي واحدة من ارباب البانثيون الهوميري . انظر
Webester, 1962, P. 456

(٥) Nilsson, 1972, P. 54

على مخلفات معبد آخر فوق جبل بتسوفا في شرق جزيرة كريت(٧) وفي كلتا الحالتين ازيلت الانقاض عن جدران تحيط بساحة صغيرة وجدت فيها اصنام للرجال والنساء والحيوانات مع مقادير كبيرة من الرماد على بقايا عظام آدمية محروقة مما يدل على حرق جثث الاموات قبل الدفن وقد عرف الكثير عن معابد قمم الجبال بعد العثور على مشاهدها المحفورة على قطع الحلي التي وجدت في كنوسوس ومايسيناى(٨) وغيرهما وفي هذه القطع الفنية الجميلة يظهر المعبد محاطا بسور خارجي من الجهات الاربع وفي بعض الاحيان يمثل المعبد ببابه الحجري فقط وتنتشر فوق هذا الباب اغصان شجرة مورقة ذات ثمار وغالبا ما يظهر عمود واقف في المشهد(٩) واحيانا يحل محل العمود حجر منتصب او جبل مرتفع ويظهر ان الاعمدة كانت اوثانا تمثل عبادة طوطمية تتجسد فيها المعبودات ولدينا من كريت وبلاد اليونان مشاهد كثيرة لأوثان بهيئة اعمدة ترمز للارباب وقد نرى بين وثنين من هذا النوع عابدا يرفع يديه الى السماء في حالة دعاء او نرى وثنا حجريا امام بناية المعبد او في داخلها ويتضح من هذا ان عبادة الاوثان وتقديسها كانت من الامور البارزة والسائدة في العهود المينونية والمايسينية(١٠) .

ومارس اهل كريت واليونان القدماء عبادة الاشجار اذ كانوا يعتقدون بان الارواح المقدسة تسكن في الغابات والبساتين فاتخذوا من الاشجار الهة للزراعة واهم الاشجار التي قدست في الدور المينوني الثاني النخل والصنوبر والتين ونقشت صور الاشجار بين قرني الثور احيانا ، والمعروف ان قرن

---

(٦) Pendlebury, 1939, P. 272

(٧) Evans, 1921, P. 500

(٨) Mylonas, 1950, P. 151, Fig. 2

(٩) Mylonas, Ibid, Fig. 2, A

(١٠) Wace, 1949, P. 115 وانظر Evans, 1901, Figs. 12-14, 24, 25

الثور هو احد الرموز العديدة للالهة • وفي المدن الكبيرة كان الناس يعبدون اربابهم في معابد خاصة يبنونها في البيوت وشيد الملوك والامراء المعابد في القصور وكانت معابد الدور بسيطة للغاية ولا تتجاوز حجرة صغيرة واحدة تحيطها ساحة مكشوفة من جميع جوانبها فمعبد الفأس ذى الرأسين الذي شيد في قصر كنوسوس في الدور المينوني الثالث كان يتألف من حجرة صغيرة واحدة في وسط ساحة واسعة ومثل هذا المعبد وجـد في فستوس وفي المدن الكريتية الاخرى ، وابرز ما في هذه الحجرة هو الوثن الذي صيغ بهيئة عمود قائم حفر فيه احيانا فآس ذو رآسين والى جوار هذا الوثن وجدت دكة مرتفعه توضع فوقها النذور والاصنام ووجد مذبح للقرابين وحوض غير عميق لجمع السوائل النذرية او للتطهير كما وجدت قرون مصنوعة من الجبس فيها ثقوب مدورة الشكل ليدخل فيها عمود الفأس ويظهر ان هذه القرون استخدمت ايضا لاسناد أواني النذور ، وللفأس ذي الرأسين اهمية خاصة في هذه العبادات لانـه يرمز للرب • ويشاهد بكثرة في قطع الفن وعلى التوابيت وفوق الاوثـان او تحت طائر يحوم حوله ويبدو ان لهذا الفأس علاقـة بزوجـين مقدسـين من الالهـة[١١] •

وبالاضافة الى الجبال والاعمدة والاشجار والثيران عبد اهل كريـت واليونان القدماء الافاعي ايضا واعتبروها من الاهاتهم العظمى وقد عثـر في خرائب مدنهم على كثير من نماذجها • ففي كنوسوس جسدوها بهيئة امرأة ترتدي الحلل الفاخرة وتبرز من اسفل غطاء الرأس افعى تنزل لتلتف حـول ذراعيها ، ووجد تمثال آخر لها في نفس المكان وبهيئة امرأة ايضا ولكنها تمسك بيدها المدوتين حيتين صغيرتين ، وهنا تمثال آخر لهذه الالهـة من الذهب والعاج معروض الآن في متحف بوسطن بالولايات المتحدة الامريكية لا يعرف مكانه ولكن يظن بأنه من كنوسوس وهذه الالهة هي ايضا بهيئة

(١١) Evans, 1935, P. 342

امرأة تمسك بيدها الممدوتين حيتين[١٢] • وعثر في احد قصور كنوسوس على اواني نقش على جدرانها شكل زوجين من الاقداح زخرفت جوانبها بمشاهد محفورة لافاعي تحاول الدخول في القدحين لتأكل منها أ وتأوى اليها • ويتضح من هذا كله ان عبادة الافعى لم تظهر في الكهوف ولا على قمم الجبال بل ظهرت في المعابد الخاصة في البيوت والقصور لان الافعى باعتقاد من كان يؤمن بقدسيتها هي الحارس الامين للبيت ومن فيه وما فيه بالاضافة الى كونها الهة الخصب والعالم السفلي ورمز الخلود •

وفي كثير من المشاهد الفنية تظهر الطيور وخاصة الحمامة وهي تحوم حول الاصنام في المعابد او فوق الفأس المزدوج او على توابيت الموتى او بالقرب من الاوثان • ان هذه الطيور ولا سيما الحمامة تشير الى الحضور الرمزي للالهة التي قد تكون افروديت •

وكانت النذور التي اعتاد المتعبدون على تقديمها للارباب نذورا غير دموية في الغالب وتوضع فوق منضدة من الطين المجفف بالشمس او من الجص امام صنم المعبود ووجدت نماذج من هذه المناضد في قصور كنوسوس وفستوس ومايسيناى وترنز[١٣] ، كما وجدت مناضد خاصة بالسوائل النذرية التي تراق في طقوس العبادة واستخدمت اباريق كروية الشكل لها فم مدبب[١٤] لتفريغ تلك السوائل مثل الخمور • اما القرابين فلم تكن مألوفة على نطاق واسع في العصور المينونية والمايسينية ومع ذلك يفهم من المشاهد المنقوشة على تابوت وجد في هاكيا ترياذا[١٥] ان حيوانا قد نحر قربانا لرئيس ذى مكانة اجتماعية بارزة وكان المتعبدون يستخدمون الناى المزدوج والقيثارة والطبلة

---

(١٢) Evans, 1921, P. 500

(١٣) Nilsson, 1972, P. 285

(١٤) Nilsson, ibid, P. 125

(١٥) Nilsson, ibid, P. 125

اثناء اداء مراسيم الابتهالات والتراتيل والصلوات ويتضح من رسوم الجدران ان رجال الدين لبسوا جلابيب مزركشة ومآزر من جلود الحيوانات ٠

وبمرور الزمن تطورت عبادة الاشجار والجبال فبدلا من أن تتجسد الهتها في الاشجار والجبال اصبحت تتجسد في البشر ويستدل على ذلك من نقوش الاحجار الكريمة كالاصنام والاختام اذ تبدو الهة الاشجار في احد هذه المشاهد بهيئة امرأة تجلس تحت اغصان شجرة مورقة بانتظار من يعبدها(١٧) ، وكان المؤمنون بها يرفعون ايديهم الى السماء ويقدمون لها الزهور ويرقصون(١٨) ويغنون لكي تنزل الالهة من السماء وتحضر امامهم ونلاحظ مشهد هذا النزول الالهي في نقوش بعض الاختام التي عثر عليها في هيراكليون وايسوباتا(١٩) ٠

وتظهر الالهة في مشاهد فنية اخرى على هيئة حيوانات وحشية او تظهر واقفة بين حيوانين وبيدها رمح طويل(٢٠) او تظهر وهي تقبض على كل حيوان في يد واحدة وقد تكون هذه الحيوانات خرافية كالغول(٢١) أو حقيقية كالاسد والعنزة(٢٢) والثور هو الحيوان المفضل للقرابين وللمصارعة التي كانت لعبة رياضية محبوبة عند قدماء الكريتيين ٠ ومن الحيوانات الخرافية ايضا اسد له رأس حصان وذنب مدبب وجلد مرقط(٢٣) وفي ختم عثر عليه في كنوسوس نرى مشهدا لالهة تقف على قمة جبل مخروطي الشكل وهي تحمل رمحا ويقف امامها رجل يتعبد كما يقف اسد على سفح الجبل من كلا

---

(١٦) Mylonas, 1950, P. 159
(١٧) Mylonas, ibid, Fig. 2,J
(١٨) Mylonas, ibid, Fig. 2, D
(١٩) Evans, 1901, Figs. 4, 52
(٢٠) Mylonas, 1950, P. 151, Fig. 2: C, H.
(٢١) Mylonas, ibid, Fig. 2: I.
(٢٢) Mylonas, ibid, Fig. 2: G, H, C.
(٢٣) Evans, 1901, Fig. 1, 12, 13.

الجانبين[٢٤] ٠ وعبد المينيون ايضا الهة خاصة بالبحار تتجسد عندهم بهيئة امرأة تجلس في سفينة[٢٥] ٠

لقد ضم المجمع المقدس في عقيدة المينونيين والمايسينيين كما يتضح من الامثلة السابقة الهة مؤنثة ٠ اما الاله الذكر فقد اضيف لها فيما بعد وهناك نماذج قليلة تجسد هذا الاله ٠ ففي نقوش ختم وجد في كيدونيا يظهر هذا الاله واقفا بين قرني ثور[٢٦] وفي نقش ختم اخر وجد في كنوسوس يظهر هذا الاله نازلا من السماء على قمة جبل وبيده رمح طويل[٢٧] ٠ ان وثنية الكريتيين واليونان القدماء في عصور ما قبل التاريخ كانت تهتم بالالهة الاناث التي تحتل المنزلة الرفيعة والمقام الجليل اما الارباب الذكور فكان دورهم ثانويا بعكس وثنية الاقوام السامية في اقطار الشرق الادنى التي كانت تهتم بالارباب الذكور اكثر من اهتمامها بالاناث ٠

ومن الجدير بالذكر ان هذه الوثنية تخلو في هذه المرحلة من مراحل تطورها من الاشارة الى عبادة مظاهر سماوية فالشمس والقمر والنجوم والسماء تظهر في المشاهد الفنية باعتبارها مناظر طبيعية فقط ولا تدل على اية عبادة دينية كما ان هاتين الديانتين المينونية والمايسينية لا تقدسان الموتى بالرغم من العناية الفائقة في دفنهم ودفن الهدايا الجنائزية الثمينة معهم كالالات والاثاث التي وجدت في قبور الملوك والرؤساء ٠

أما الديانة الهلنية فتمثل في نشأتها وجوهرها عبادة المظاهرة الطبيعة التي تجسدت في الالهة الاولمبية وهذه الالهة تسكن على قمة جبل اولمبس الواقع شمال ثيسالي ويظهر ان الغزاة الشماليين القدماء هم الذين ادخلوا عبادتها الى

---

(٢٤) Evans, 1921, Pl. II.

(٢٥) Evans, 1935, Pl. II; Mylonas, 1950, P. 151, Fig. 2: E

(٢٦) Mylonas, 1950, P. 151, Fig. 2: C

(٢٧) Evans, 1901, Figs. 43, 48

بلاد اليونان(٢٨) وكان ارباب المجتمع الاولمبي يعيشون في مجتمع يشبه المجتمع البشري يتألف من عائلات ولها اصدقاء وخصوم وتمتاز بالقوة ولكنها ليست قادرة على عمل كل شيء وتتصف بالحكمة ولكنها ليست عليمة بكل شيء ويعبدها الناس بالاختيار وتقام لها المراسيم الدينية البسيطة وتقدم لها النذور وتنحر القرابين دون ان يكون لرجال الدين صلة بذلك اذ لا وجود لكتب مقدسة ولا لنظام كهنوتي يفرض سلطانه ويتحكم بأمور الدين ويمارس الناس العبادة بانفسهم ولم يكن هناك يوم مقدس معين ويؤكد الدين على السعادة في الحياة وعلى الرخاء للافراد وللدولة وهو دين رسمي وجزء من واجبات الحكومة وكان لهومر دخل كبير في صياغة اسس هذه العقيدة الدينية جملة وتفصيلا فالالياذة والاوديسة المنسوبتان اليه والمكتوبتان في القرن السادس قبل الميلاد هما من أهم المصادر التي يعتمد عليها في دراسة هذه الارباب الاولمبية(٢٩) .

فالاساطير الاغريقية تشير الى بدء الخليقة(٣٠) وتذكر ان الارض والبحر والهواء كانت في بادىء الامر مختلطة ببعضها في عالم مظلم غير منتظم الشكل يحكمه الاله خوس وزوجته الالهة نوكس وقد ولد لهذين الزوجين ايروبس اله الظلام فطلب منه والده ان ينير العالم المظلم فطرد والده واغتصب عرشه ثم تزوج امه فولد له منها ايثر اله النور وهميرا الهة النهار ومن اتحاد هذين الالهين ولد ايرس اله الجمال ثم تعاون هذا الاله مع والديه فخلقوا بونتس اله البحر وجيا الهة الارض فتزوجا ومن اتحادهما ولد اورانوس اله السماء فاغتصب هذا عرش والده وطرده من مملكته ثم تزوج امه فولد لهما

---

(٢٨) Murrey, 1955, P. 42—45

(٢٩) اميل الى الاعتقاد بان ارباب مجمع اولمبس يمثلون ديانة هلنية نقلها الاغريق معهم من مراكز استيطانهم الاولى الى شبه جزيرة اليونان ولا علاقة لهذه الديانة بالوثنية المينونية في كريت والمايسينية في بلاد اليونان .

(٣٠) Guerber, 1927, P. 137 — 147, 156, 167, 168

عدد من العمالقة للواحد منهم عين واحدة وعدد آخر من الجبابرة للواحد منهم مئة يد عرفوا بالتيتان وكان الاب يخاف بطش ابنائه فانزلهم الى باطن الارض وسجنهم هناك فحزنت الام عليهم وتمنت عودتهم وناداتهم ليمثلوا امامها فلبى كرونوس اله الزمن وهو اصغر الابناء نداءها فخرج من باطن الارض وهجم على ابيه وقطع ذراعه واستولى على ملكه وتزوج امه جيا(٣١) وقيل لكرونوس ان احد ابنائه سيغتصب عرشه ومملكته مثلما فعل هو بأبيه فقرر القضاء على من يولد له فلما ولدت ديميتر بلعها ثم بلع بعدها هستييا وهيرا وبوسأيدون وهيدس على التوالي بعد ولادتهم ولما ولد زوس اخفته امه في كهف دكيا في جزيرة كريت وجاءت بحجارة لفته بقطعة من القماش ووضعتها بجانبها فبلعها الاب ايضا ظنا منه ان الملفوف بالقماش هو ولده ولما كبر زوس عاد من بلاد كريت وأعلن الحرب على والده وانتصر عليه واجبره على اخراج اخوته الخمسة الذين بلعهم وكذلك الحجارة التي القمتها له امه بدلا عنه ففعل الاب وبذلك اقصى كرنوس عن اولمبس بعد انتزاع الملك منه وتربع زوس على العرش الذي طرده منه ابوه فبدأ عهد جديد هو عهد الالهة الاولمبية الذي يحكم فيه زوس دون منافس ∙ واقسمت الارباب الاخرى على طاعته وعدم مخالفة اوامره ووضعت الحجارة التي اخرجها كرونوس في مدينة دلفاى ومنذ ذلك الوقت اعتبرت هذه المدينة مهبط الوحي عند الاغريق(٣٢) ∙ ثم اقتسم زوس هو واخوته حكم الكون واختاره اخوته ليكون ملك السموات والارضين بمشاركة زوجته الالهة هيرا وتعاون الاخوة واولادهم في الحكم بمجالات اخرى فاصبح بوسايدون اله البحر وهيدس اله الظالم السفلي وهيلوس اله الفنون وايرس اله الحرب وهفستوس اله النار وارتمس الهة الولادة واثينـة الهة الحضارة

---

(٣١) تذكر هذه الالهة في بعض المصادر باسم ريـا ∙

(٣٢) وكانت هذه الحجارة تعبد من قبل الاغريق ∙ انظر
Murrey, 1935, P. 42

وافروديت الهة الحب وهستيا الهة الحياة العائلية وديميتر الهة الزراعة وهرمس رسول مجمع الالهة ودليل الارواح الى العالم السفلي •

وكان زوس في هذه العبادة الوثنية هو رئيس المجمع الالهي على مرتفعات اولمبس وهو اله الكون والسماء يجمع الغيوم ويوجه الرياح ويحدث الرعد والبرق وينزل الامطار ليسقي بها المراعي والبساتين وكان الاغريق يقدمون له النذور والقرابين في اليوم الاخير من العام(٣٣) واذا اصابهم قحط شديد قدموا له القرابين من البشر(٣٤) • وسموه اله السماء واعتبروه أب الالهة وأب البشر والحاكم المطلق الذي يستمد منه الملوك سلطانهم وله السيادة على الدولة وعلى العائلة ويعاقب المجرمين ويحمي المستضعفين ويسكن هذا الاله فوق الجبال العالية وخصوصا قمم جبال اولمبس ولذلك كانت المباريات الرياضية الاولمبية تقام في اولمبيا على شرفه وتبركا به منذ سنة ٧٧٦ قبل الميلاد وبنى الاغريق له معبدا فوق جبال كل منطقة مهمة لاختلافهم في تحديد مكان ولادته ومن اهم تلك المعابد معبد اولمبس ومعبد اركاديا ومعبد بواتيا ومعبد مسينا ومعبد اجاينا(٣٥) • واعتبر الاغريق زوس الاله الحامي للبيت ومن فيه وما فيه من الثرورة ولذلك كانوا يقيمون له دكة المذبح في الساحة التي تقع امام مدخل الدار ويقدمون النذور وينحرون القرابين لنيل رضاه ولحمايتهم من الشرور • وفي حالات اخرى كان زوس باعتباره الاله الحامي للبيت ياخذ شكل الافعى فاذا وجدت في الدار افعى فان صاحبها يتبرك بها ويشعر بالطمأنينة لانها تجسد روح الاله الذي يبسط حمايته على اهل البيت ومما هو جدير بالذكر ان هذه العقيدة لا تزال موجودة في بلاد اليونان(٣٦) • وعرف زوس في اوساط الرومان بالاله جوبتر او جوف وكان على غرار سلفه رأس البانثيون

---

(٣٣) Cook, 1914, Vol. I, P. 776
(٣٤) Nilsson, 1961, P. 6 — 7
(٣٥) Avery, 1961, P. 1156 — 1157
(٣٦) Nilsson, 1961, P. 69 — 72

فهو اله السماء والمطر والرعد والبرق ورمزه الصاعقة ولذلك كان المزارعون يقيمون له الاحتفالات مصحوبة بتقديم النذور والقرابين لانه يسقي مزارعهم وبساتينهم ويكرمونه في فصل الربيع في عيد فناليا عندما تظهر الاعناب في شهر نيسان(٣٧) واعتبر جوف ممثلا للشرف والكرامة الوطنية وسمي Optimus Maximus اي الاحسن والاعظم كما اعتبر اله النصر وحامي الثروة الوطنية والشخصية وحارس الشرف واليمين والمعاهدات وقواعد الكرم والاستضافة واقيمت الالعاب الرومانية الكبرى على شرفه وعلى غرار زوس الاولمبي ، كان جوبتر يعبد فوق المرتفعات الجبلية واقدم معبد بني له هو المعبد الذي شيد على تل الكابيتول(٣٨) . كان جوبتر وهو اله ذكر الرب الاعظم في الوثنية الرومانية اما زوجته جونو فكان دورها ثانويا في هذه الديانة فالاله جوبتر هو رب السماء وهو نور الشمس وضوء القمر ومرسل الرعد ومنزل المطر(٣٩) وكانت عبادته فرضا لازما على الرومان(٤٠) .

وتأثرت عبادة زوس بالديانات الاجنبية فارتبطت بالشمس وبالاله مثرا عند الفرس(٤١) وبعبادة آمون عندا الفراعنة(٤٢) .

وعبد الاغريق الشمس باسم هليوس(٤٣) وشبهوه بشاب قوي البنية جميل الطلعة له شعر متموج كثيف يعلوه تاج تنبعث منه اشعة الشمس ويسوق عربة تجرها اربعة جياد وتروى الاساطير الاغريقية ان هليوس يصعد في كل صباح من البحار الشرقية في عربته اللامعة ويرتفع في الفضاء ثم ينزل في السماء

---

(٣٧) Bailey, 1932, P. 45
(٣٨) Guerber, 1927, P. 39
(٣٩) Durant, 1944, P. 61
(٤٠) Clover, 1919, P. 19
(٤١) Cook, 1914, Vol. I, P. 186
(٤٢) Cook, ibid, P. 353, 360
(٤٣) Guerber, 1927, P. 349 — 352

في البحار الغريبة وفي الليل ينقله زورق ذهبي اللون وهو نائم الى مكان شروقه حيث يبدأ رحلته اليومية المعتادة في اليوم التالي وهكذا وعندما يكون في وسط السماء يرى كل شيء على الارض من عليائه ولذلك احتلت عبادته مكانة مقدسة عند الاغريق وخصوصا في جزيرة رودس حيث اقيم له فيها تمثال كبير جدا • وفي العصور الهلنستية امتزجت عبادته في مدينة بعلبك بعبادة الاله بعل ، وفي العهود الاخيرة امتزجت عبادته بعبادة الاله ابولو وعرف باسم آخر وهو فوبس(٤٤) اى الحياة والنور وعرف بين الرومان باسم سول(٤٥) وكانت لهذا المعبود عند الرومان طبيعتان طبيعة وطنية حيث يشترك بصفات ووظائف الاله هيليوس وفوبس وابولو وطبيعة اجنبية حيث ترتبط عبادته بعبادة الاله مثرا التي وفدت من الشرق في القرن الثاني بعد الميلاد •

اما ابولو(٤٦) فكان احد الارباب الاولمبيين وخصه الاغريق بالفنون والزراعة وتركزت عبادته في مدينة دلفاى وان كان من مواليد مدينة ديلوس • وشمل المجمع الاولمبي هيدس(٤٧) اله العالم الاسفل الذي تنزل اليه ارواح الموتى ويحكم هيدس هذا العالم بالعدل والاستقامة ويشاركه في حكم مملكته الاله هرمس رسول المجموعة الاولمبية الذي ينقل له تلك الارواح • والارواح تسكن في جنان خضراء ا ذكانت محسنة في حياتها اما اذا كانت مسيئة فمصيرها وادي الظلمات • وتروى الاساطير الاغريقية ان افروديت الهة الحب اثارت في قلب هيدس حب العذراء برسيفون(٤٨) بنت ديمتر من زوس فخطبها

(٤٤) Guerber, 1927, P. 44, 283, 394

(٤٥) Guerber, ibid, P. 44

(٤٦) Avery, 1961, P. 124 — 129

(٤٧) الاله هيدس هو ابن الإله كرونوس (الزمن) والالهة جيا (الارض) واحد الالهة الاولمبية • لم يشيد له الاغريق معبدا في اى مكان لانه يقيم في العالم الاسفل وسموه بالاله بلوتو اى الثروة لانه يمنح الثروة الموجودة لديه في باطن الارض • انظر Guerber, 1927, P. 137 — 147, 156, 167

(٤٨) وتذكر مصادر اخرى هذه الالهة باسم كور •

هيدس من والدها فلم يوافق الاب كما انه لم يرفض وترك الامر دون ان يبت فيه خشية اثارة سخط اخيه هيدس او غضب زوجته ديميتر فاضطر هيدس الى خطف الفتاة والنزول بها الى ممكلته في العالم الاسفل • ولم تسعد برسيفون في حياتها الزوجية مع هيدس وظلت حزينة وكئيبة ولم تأكل شيئا طيلة مدة اقامتها معه • ولما علمت امها بخبر اختطافها اوقفت نمو النباتات في المزارع فذبلت الحقول والمراعي واصرّت على استمرار الجفاف حتى تعود ابنتها اليها فاوفد زوس رسوله هرمس الى اخيه هيدس ليستدرك الامر ويعيد الفتاة الى والدتها قبل ان يموت البشر وتخسر الالهة النذور والقرابين فوافق هيدس على صعودها الى العالم العلوى بعد ان طلب منها اكل قليل من الرمان ولما ذاقت برسيفون طعام الموتى اصبحت ملزمة حسب الاعراف المقدسة بقضاء بعض شهور السنة وهي شهور فصل الصيف مع هيدس في العالم الاسفل والبعض الاخر اى بقية شهور السنة مع والدتها في المزارع والحقول •

هذه هي بعض الجوانب من العقائد الهلنية الوثنية التي آمن بها كل الاغريق وهي بمجموعها تمثل الدين الرسمي للدولة ولكن بالاضافة الى هذا الدين الرسمي وجدت احتفالات ومهرجانات عامة لاداء بعض المراسيم والطقوس لعدد من الارباب تختلف اختلافا جوهريا عن العبادات الرسمية اذ كانت المشاركة فيها شخصية وابوابها مفتوحة لمن يرغب في المساهمة فيها والالتزام بقواعدها كالتطهير وكتمان السر والصوم كما ان هذه العبادات لم ترتبط بالاصول المادية للدولة بل بالاحوال المعنوية للافراد ولذلك تجاوزت حدود القبلية والمدينة والعنصر واتصفت بالصفة الانسانية اذ كانت تؤمن بكون منظم يتجسد بالاله وتعلم الناس وحدة الحياة ووحدة الالهة[٤٩] • ان علاقة المتعبد بهذه الالهة وبشعائرها السرية كانت قوية جدا وكان الفرد بواسطتها يصل الى غاية سامية لاعتقاده بانه يتحد مع الاله وهذا الاعتقاد المقدس هو

---

(٤٩) Angus, 1925, P. 39

الهدف الرئيسي الذي ينشده المؤمن من جميع هذه الطقوس المعقدة التي تشمل المشي على القدمين مسافة طويلة في مواكب جماهيرية والصوم والتطهير وحمل المشاعل والرقص والغناء وشرب الخمرة والقصد من هـذه المراسيم هو اثارة العواطف والتعجيل باتحاد المتعبدين بربهم وحين يتم هـذا الاتحاد يشعر هؤلاء بزوال الحواجز بينهم وبين الاله وتنكشف لهم اسرار الحياة ويضمنون السعادة في الدنيا والاخرة ٠

ويظهر ان هذه الطقوس السرية انتقلت الى شبه جزيرة اليونان في المراحل الاخيرة من عصور قبل التاريخ ثم تطورت في القرن السادس قبل الميلاد ونالت رضا الناس فتحمسوا لها واقبلوا على المساهمة فيها على نطاق واسع في كافة انحاء البلاد واهم هذه الطقوس ما كان يمارس منها في اعياد الالهة ديميتر والاله ديونيسوس فالطقوس الاللوسيسية السرية الخاصة باعياد الالهة ديميتر تجري في أول فصل الخريف بمدينة اللوسيس[٥٠] والتنقيبات الاثرية كشفت في هذه المدينة عن اثار معبد يرجع تاريخه الى القرن الخامس عشر قبل الميلاد وتروى الاساطير الاغريقيية ان ديميتر زارت هذه المدينة في هذا القرن واقامت فيها طقوسها[٥١] وتدل المخلفات الاثرية على ان مراسيم اعياد ديمتر كانت تمارس في النصف الثاني من العهد المايسيني فهي اذن اقدم المراسيم السرية في بلاد اليونان ٠

ديميتر هي احدى الهة المجمع الاولمبي[٥٢] واختصت في الزراعة وكانت بنتها العذراء برسيفون تساعدها في عملها ونسب الاغريق الى الالهة الام كل ما يتعلق بالزراعة مثل حرث الارض ونشر البذور وحصدها وسحقها ثم خزنها للاكل او لاعادة زرعها وظهر تأثير هذه العقيدة الدينية عند الاغريق

---

(٥٠) تقع هذه المدينة على بعد ١٤ ميلا غرب مدينة اثينة ٠

(٥١) Mylonas, 1942

(٥٢) Nilsson, 1961, P. 24 — 31

في عيد ثسموفوريا للابتهاج بنشر البذور في الحقول المعدة للزراعة وتستلتزم مراسيم هذا العيد تقديم النذور من الحاصلات الزراعية وذبح خنزير للالهة على دكة المذبح في معبدها لان الخنزير هو الحيوان المقدس المفضل عندها • وفي موسم الحصاد يحتفل الناس بعيد ثالسيا ويقدمون النذور من الحاصل الجديد الى الالهة وعندما تنضج الكروم يحتفلون بشرب الخمرة الجديدة وتقديم مثل هذه النذور عادة مألوفة في هذه البلاد منذ عصور قبل التاريخ فالاواني المعروفة باسم كرنوس التي حملتها النسوة فوق رؤوسهن في مهرجان الّوسس كانت تحتوى اقداحا صغيرة في كل منها نوع معين من أنواع الحاصلات الجديدة او بعض الزيت او قليلا من الخمرة ووضع بين هذه الاقداح مصباح وتجسيد لعضو تناسل الذكر المصنوع من الحجارة او الفخار ووجدت هذه الاواني في كريت المينونية كما ان السلال المعروفة بسلال لكنون التي حملتها النساء في عيد ثسموفوريا في فصل الخريف خدمت نفس الغرض والجدير بالذكر ان بعض طقوس هذه الاحتفالات لها صلة بالخصب ودور النساء فيها لا يقتصر على تأكيد خصب الارض فقط بل على خصبهن ايضا •

ويذكر هومر في ترنيمة ديميتر ان الام خرجت تبحث عن بنتها التي اختطفها هيدس في معظم الروايات وبلوتو في الروايات الاخرى واخذها معه الى العالم الاسفل(٥٣) فذهبت ديميتر الى مدينة الّوسس ونزلت ضيفة في بيت ملكها وتعهدت بتربية ابن الملك ديموفون تربية يكون بعدها خالدا وكشفت عن نفسها لزوجة الملك ثم طلبت من اهل المدينة ان يبنوا لها معبدا في اسفل قلعتهم وكانت ديمتر وهي في هذه المدينة حزينة على فراق بنتها برسيفون فأمرت الارض ان تجدب الى ان تعود البنت فعم القحط وتعرض البشر

---

(٥٣) اسم بلوتو مشتق من كلمة بلوتوس Ploutos اى صاحب المال وتروى الاساطير ان بلوتو هو اله العالم الاسفل ويقيم تحت الارض في مخازن الحبوب الزراعية •

والالهة للفناء فقرر زوس استرجاعها فوافق هيدس على ذلك بعد ان اطعمها الرمان وهو من طعام الاموات ولما اكلت برسيفون الرمان اصبحت حسب الاعراف الالهية ملزمة بالبقاء مع هيدس في العالم الاسفل في شهور انصيف والبقاء مع امها في العالم العلوى في بقية شهور السنة ولما عادت برسيفون فرحت بها امها وامرت الارض ان تخرج زرعها وثمرها مرة اخرى ثم ارسلت ديميتر رسولا الى كافة ارجاء العالم ليعلم الناس الحرث والزرع وطرق ممارسة طقوس عبادتها وهكذا رسمت هذه الطقوس من قبل الالهة نفسها في مدينة الّوسس ثم انتشرت تدريجيا في كافة انحاء البلاد اليونانية وعندما تبناها الرومان اصبحت واسعة الانتشار في امبراطوريتهم .

لا يرد في الاساطير الاغريقية المعروفة شيء كثير عن هذه الطقوس السرية لان الشعائر التي تلقاها المؤمنون بها من الكهنة بقيت مكتومة خوفا من العقاب الذي يصل الى حد الموت(٥٤) كما ان مخلفات الاثار لا تفيد شيئا في هذا المجال ومع ذلك فقد عرف من هذه الشعائر الشيء القليل الذي يكفي لتوضيح المراحل الاولى من المهرجان فالاحتفال العام كان يتم في مدينة الّوسس في شهر ايلول بمناسبة نشر البذور في الحقول المعدة للزراعة ، والمرشحون للمساهمة فيه يتدربون في مدينة اثينة على ممارسة بعض الطقوس الثانونية قبل ستة شهور ويسمح للرجال والنساء والاطفال الاشتراك في الاحتفال ولكن يستبعد غير المرغوب فيهم من قبل الكهنة وعندما يحين الموعد للمهرجان يختار المحتفلون ادلاء لمساعدتهم على كيفية تطبيق مراسيم الحج المعقدة . وفي اليوم الثالث عشر من شهر ايلول ينقل تمثال باخوس اله الخمر مع مخلفات الالهة ديميتر من مدينة الّوسس الى مدينة اثينة من قبل كهنة معبد ديميتر وفي اليوم الرابع عشر يفتتح المهرجان بتلاوة كلمة يلقيها الهيروفانت وهو الكاهن الاعلى لمعبد ديميتر في مدينة الّوسس وتستمر الاحتفالات لمدة تسعة ايام

(٥٤) Mylonas, 1950, P. 183

والمشتركون فيها ينبغي ان يكونوا متطهرين من الادران وبعيدين عن الشرور ويعاملون الناس بالعدل فمن عرف منهم بهذه الصفات الحميدة يسمح له بدخول المهرجان اما غيرهم فيمنعون منه وبعد تلاوة كلمة الافتتاح يبدأ الصوم وينحر خنزير كبير يرميه المحتفلون في البحر ثم ينحر خنزير صغير يرش دمه على المحتفلين ليبلغوا اقصى درجات التطهير وفي عصر اليوم التاسع عشر تبدأ مسيرة المحتفلين الى مدينة التوسس مشيا على الاقدام ويسير في مقدمتهم الكهنة حاملين معهم تمثال الاله باخوس ومخلفات الالهية ديميتر ويلبس الناس ملابس فاخرة ويضعون على رؤوسهم اكاليل من الآس والريحان ويطوفون في شوارع مدينة اثينة وهم يرقصون ويغنون ثم يغادرونها وفي منتصف الليل يصلون ساحة معبد الالهة في مدينة التوسس بعد ان يكونوا قد قطعوا اربعة عشر ميلا ووقفوا عدة مرات للاستراحة ولزيارة الاضرحة المقامة على طول الطريق المقدس بين المدينتين • وفي ساحة المعبد يجتمع المحتفلون ويرحبون بعودة الاله باخوس الى مدينته وباعادة مخلفات الالهة ديميتر الى مكانها ثم يرقصون ويغنون ابتهاجا بعيد الالهة وفي الليلتين الاخيرتين يدخلون في ضريح الالهة لاداء الطقوس السرية ولا يعرف بالضبط تفاصيل ما كان يجرى في تلك الليلتين ويظن ان بعض الطقوس كانت تمثل حياة الالهة الام وحزنها على اختفاء ابنتها ومساعيها في البحث عنها وعودة البنت لامها في العالم العلوى وفرح الام بهذه المناسبة السعيدة وبعد ان تعثر بنات ملك التوسس على برسيفون تنتهي الطقوس بالمثول امام صنم ديميتر لتهنئتها بعودة ابنتها اليها وبهذا الوقوف يستشعر المتعبد حضور الالهة واندماجه فيها ويقوى امل المؤمن بحياة مباركة وسعيدة في العالم العلوى مع ديميتر وفي العالم الاسفل مع برسيفون وهيدس • ويقال ان هذه الطقوس كانت تنتهي بزواج مقدس ويشار بهذه المناسبة الى وجود غرفة تحتانية في معبد التوسس يجتمع فيها رئيس الكهنة باحدى الكاهنات عندما تطفأ المشاعل وقد اسفرت التنقيبات الاثرية

التيجرت فيمدينة الـّسس عن وجود هذه الغرفة(٥٥) • وبعد الانتهاء من هذه الطقوس والمراسيم يغادر الحجاج مدينة الـّوسس عائدين الى اوطانهم فرحين مسرورين بحياة مباركة سعيدة في الدنيا والاخرة •

اما الطقوس الخاصة بعبادة الاله ديونيسوس فقد عرف بعضها من المشاهد التي رسمها الفنانون على الاواني الخزفية وعرف البعض الاخر من الاساطير وخصوصا اسطورة طيبة(٥٦) ، ومما جاء في هذه الاسطورة ان زوس الاولمبي تزوج سيميل Semele بنت الملك كادوموس مؤسس مدينة طيبة فولدت له منها ديونيسوس ويذكر ان سيميل احترقت بنار البرق فاستنجدت بزوجها فحضر زوس وانقذها من النار واخفى ابنه ديونيسوس في فخذه خوفا من زوجته الكبرى هيرا ثم خرج ديونيسوس من هذا المكان في وقت آخر ولما بلغ اشده اخذ يجوب الارض ودخل بلاد اليونان من ثريس وكانت لديونيسوس علاقة بالزراعة وخصوصا زراعة الكروم وبمختلف الحيوانات ولا سيما الثور ولذلك عبده الاغريق باعتباره تجسيد للحياة والقوى الطبيعية وبما ان الحياة تخضع للنمو والاضمحلال والموت والبعث فقد ارتبط ديونيسوس بهذه المظاهر فكان يختفي في مملكة هيدس في العالم الاسفل مدة من الزمن ثم يصعد الى العالم العلوى وكان وقت اختفائه وبعثه يطابق دورة جفاف النباتات في فصل الصيف ونموها من جديد في فصل الربيع ومن هنا ظهرت الطقوس السرية الخاصة بعبادته فالاتحاد مع ديونيسوس اله الحياة والموت صاغ المحور الاساسي لتلك الشعائر والطقوس المكتومة ويسمح للرجال والنساء بممارسة هذه الطقوس التي لم يكن لها موعد خاص ولا مكان معين لادائها كما هى الحالة في مهرجانات الالهة ديميتر فهي تقام في الليل وعلى قمة جبل بعيد عن المدن المأهولة بالسكان ويلبس المشتركون في هذا المهرجان

---

(٥٥) Mylonas, 1950, P. 186 — 187

(٥٦) Mylonas, ibid, P. 173 — 177

مثل ملابس الاله ويطوفون في السهول والوديان وعلى قمم الجبال الى ان يختاروا قمة الجبل المناسبة لهم وفي هذا المكان الموحش كان المحتفلون يرقصون طول الليل رقصات جنونية على ضوء المشاعل وكانوا اثناء هذا الرقص يدورون ويحركون مشاعلهم ويضربون الارض باقدامهم ويهزون رؤوسهم ويقفزون من مكان الى آخر ويغنون ويشربون الخمرة ويستمرون في لهوهم وعبثهم الى ان تلتهب عواطفهم وعند ذاك يتم اتحادهم بالاله بعد ان بلغوا الدرجة القصوى من الطرب وخفة الروح بل والجنون الذي زاد من حدته شرب الخمرة بافراط • ولم يكن القصد من تناول الخمرة السكر فقط بل لاعتقادهم بانهم حين يشربونها يدخلون في جوفهم الاله ديونيسوس والاله باخوس وكانت الخطوة التالية من هذه الطقوس تشمل نحر قربان للاله من الحيوانات او الطيور وليكن هذا القربان ثورا او تيسا او دجاجة وبعد الذبح تفصل العظام ويأكل المحتفلون اللحم نيئا وبما ان الحيوان هو تجسيد مقدس للاله فان أكل لحمه الخام يكون واجبا علة كل محتفل لادخال الاله في جوفه ولهذا كانت هذه الوليمة من الطقوس المقدسة الالزامية في المهرجان وهكذا يتحقق الاتحاد بالاله بالطرب وتناول الخمرة المقدسة واكل اللحم المقدس فاذا تم هذا تحول الى باخوس اله الخمر او الى مخلوق مقدس آخر واصبح انسانا كاملا وسعيدا في حياته وبعد موته • ويذكر ان المحتفلين بهذا العيد يتبادلون التهاني والتبريكات ويخصصون بعض وقتهم لشرب الخمرة الجديدة التي تنقل منه كميات كبيرة الى مكان الاحتفال يباركها الكهنة امام صنم الاله • ويشترك الكهنة مع المحتفلين في تناوله ويتم زواج رمزي بين الاله ديونيسوس وزوجته الكاهن الاعلى لمعبده وكانت النسوة المحتفلات تتخذ من عضو تناسل الذكر رمزا للاله ويحملن تجسيدا لهذا الرمز من الحجارة او الفخار في مسيرة تصحبها الاغاني والاناشيد ويظهر ان القصد من هذه المظاهر الجنسية هو تأكيد الخصب المقدس في النساء فالمرأة حين تلمس هذا الرمز تأمل ان يكون ابنها ابن الاله •

كانت هذه الطقوس السرية معروفة في ثريس ويظهر أن هومر كان على علم بها(٥٧) ولكن ديونيسوس لم يكن في عهده بين مجموعة الالهة الاولمبية كما ان عبادته لم تكن مقبولة عند الآخيين ويرجح أن تكون طقوس هذه العبادة قد بدأت في شبه جزيرة اليونان في القرن السابع قبل الميلاد ثم اصبحت محبوبة عند الناس هناك فقد وضع له تمثال الى جانب تمثال ابولو في دلفاى وفي العهد الروماني انتشرت عبادته في كافة انحاء الامبراطورية •

هذا عرض موجز للارباب وصفاتها ووظائفها وبعض اعيادها في الجزر الايجية وشبه جزيرة اليونان في عصور قبل التاريخ والعصور التاريخية القديمة • اما المعابد وهي البيوت المقدسة التي تسكن فيها الالهة اثناء وجودها الرمزي على الارض فقد اغفلها الآخيون وهم طلائع القبائل الاغريقية لانهم اهتموا ببناء القصور بينما عني الدوريون وهم من القبائل الاغريقية ايضاء ببناء الاضرحة في مدنهم الكبيرة مثل ترنز ومايسيناى ودلفاى وغيرها حيث وجدت بقايا هذه المزارات فوق المباني المايسينية(٥٨) واستبدل هؤلاء الاعمدة الاسطوانية القديمة باعمدة مخروطية الشكل واتخذوا منها اوثانا اقاموها في الاضرحة مثل ضريح ابولو في مايسيناى(٥٩) وتطورت هذه الاضرحة القديمة على مر الايام والازمان بالاضافا تالتدريجية حتى اصبحت معابد كاملة(٦٠) وبدأ هذا التطور بالجدار الذي يحيط بالضريح فاصبح في بعض الحالات سورا منتظما بعد ان كان بسيطا ومتعرجا ثم تناول التطور الاعمدة التي بنيت امام الضريح ففي العهود المينونية والمايسينية اقيم عمود او عمودان عند مدخل الضريح ثم زاد عدد هذه الاعمدة ثم اضيفت الى بناية الضريح الرئيسية اجنحة جديدة فاصبح الشكل الاساسي للمعبد الاغريقي مستطيلا

---

(٥٧) Iliad, Bk. IV, P. 132

(٥٨) Farnell, 1911, P. 224

(٥٩) Farnell, 1909, P. 149

(٦٠) Wycherley, 1949, P. 105 — 106

في واجهته الامامية طنف مسقف تسنده الاعمدة وفي مؤخرته طنف مماثل اضيف لمجرد التناسق الفني للعمارة . اما الساحة الداخلية من البناء فقد بنى فيها صفان من الاعمدة على المحور الطويل لانشاء ممرات جانبية وفي بعض الاحيان بنيت حجرات صغيرة للعبادة بواسطة قواطع بين الاعمدة والجدران الداخلية للهيكل فاصبح المعبد محاطا من جميع جوانبه بالاعمدة للحماية وللتناسق الفني الجميل ولحمل السقوف واراحة الجدران من ثقلها وظهرت هذه الاعمدة الخارجية لاول مرة في معبد ثرمون في اتوليا بشمال غرب اليونان ثم انتشر استعمالها في كل المعابد الاغريقية وكان لعهد الطغاة في القرن السابع قبل الميلاد تأثير قوى في تطور المعابد(٦١) اذ اهتم هؤلاء ببناء المعابد الفخمة لاظهار عظمتهم ومجدهم ولايجاد فرص العمل للعمال العاطلين لكسب تأييدهم ففي اثينة اعاد بزستراتوس بناء معبد الالهة اثينة وشرع ببناء معبد ضخم للاله زوس الاولمبي ويعود معبد كورنث الكبير الذي بقيت منه سبعة اعمدة ضخمة لهذا العصر . وببداية القرن السادس قبل الميلاد اصبح المعبد كاملا اذ وجدت فيه حجرة رئيسية مقدسة هي الضريح الذي يضم صنم الاله في مكان يكون فيه مواجها للزائرين(٦٢) عند دخولهم الى المعبد وعلى جوانب هذه الغرفة اقيمت اعمدة ضخمة بنيت المسافة بينها وبين الجدران الرئيسية للمعبد احيانا لتكون غرفا داخلية وبنى في مدخل المعبد وفي مؤخرته طنف مسقف جميل يستند على اعمدة عالية واحيط المعبد بكامله ومن جميع جوانبه بالاعمدة الضخمة العالية التي اكسبته منظرا بديعا بما اضافته من جمال وروعة على هيبة الاله .

وجرت العادة ان يحتفل الناس في جزر بحر ايجة وشبه جزيرة اليونان بزواج مقدس في ايام معينة من السنة يقدمون فيها النذور وينحرون القرابين

---

(٦١) Nilsson, 1961, P. 86

(٦٢) Nilsson, ibid, Pl. VIII, b

للالهة في معابدها ففي العصور التي سبقت دخـول الاغريق لشـبه جزيرة اليونان كان الناس يحتفلون بالالهة اريادني أما في العصور الهلنية فكانت الافراح تسود المدن في عيد زواج الالهة زوس والالهة هيرا وزواج الاله هيدس والالهة برسيفون واخذ الرومان عادة الاحتفال بهذه المناسبات من الاغريق وطبقوها على اربابهم مثل جوبتر ومنيرفا وفي بعض الحالات يحتفل الناس بزواج الكاهن الاعلى للمعبد الذي قد يكون هو الملك ايضا باعتباره ممثلا عن الاله وارتبط هذا النوع من الزواج الذي كان حقيقيا احيانا ورمزيا احيانا اخرى بالعقائد الدينية واصبح جزء من التعاليم والمراسيم الكهنوتية ، ففـي معبـد زوس بمدينة طيبة بمصر كان الكاهن الاعظم ينوب عن الاله زوس في زواجه من فتاة تنوب عن الالهة هيرا[٦٣] وفي معبد أتس في فريجة باسيا الصغرى كان الكاهن الاعلى نفسه يسمى أتس ويتزوج كاهنة تنوب عن الالهة سبيل • وفي معبد ديميتر بمدينة الوسس كان رئيس الكهنة يتزوج احدى الكاهنات زواجا حقيقيا وحين تشرف على شؤون المعبد كاهنة عذراء كما في معبد الاله بوسايدون في كالورى ومعبد الاله ديوسكورى في اسبارطة فان الاحتفالات تقتصر على تأدية مراسيم رمزية للزواج المقدس[٦٤] ، وكانت نساء اثينة في عيد الربيـع يحملن رمز الاله ديونيسوس في مسيرة عامة لزيادة خصبهن واقيمت افراح مماثلة في مملكة كاليدون احتفالا بزواج الملكة بالاله ديونيسوس[٦٥] • ونستنتج من هذه الامثلة على ان عادات الزواج المقدس قديمة العهد في بلاد اليونان وقد ظهرت بشكل واضح في الطقوس السرية بمدينة الـوسس التي تمتد جذورها الى عام ١٠٠٠ قبل الميلاد •

---

(٦٣) Farnell, 1911, P. 265

(٦٤) Farnell, 1911, P. 267

(٦٥) Farnell, ibid, P. 268

الخلاصة

يكشف هذا البحث عن سجل كامل تقريبا لحضارات سبقت العصر الهليني عرفت بعد التنقيبات العديدة التي جرت في المئة سنة الاخيرة في الجزر الايجية وفي بلاد اليونان ويتناول احد فصول هذا السجل الديانتين المينونية والمايسينية وقد نشأت الديانة الاولى في جزيرة كريت ونشأت الديانة الثانية في بلاد اليونان واقدم الاثار التي لها علاقة بالدين هي اصنام انثوية . وتدل الدراسات المقارنة على ان تلك الاصنام تمثل الهة ام عبدت في الكهوف . وفي منتصف العهد المينوني والمايسيني استخدمت فمم الجبال لعبادة اعمدة واوثان حجرية تجسدت فيها الالهة واتصلت بعبادة هذه الاوثان عبادة الاشجار المقدسة التي تجسدت فيها الهة الزراعة وترجع عبادة هذه الاشجار لنفس الزمن الذي ظهرت فيه عبادة الاوثان كما ظهرت في هذا الوقت عبادة الافعى وكانت الافعى رمزا لرب يعبد في المنازل . اما النذور التي قدمها اهل هذا العصر لالهتهم فكانت غير دموية اما القرابين الحيوانية فلم تكن شائعة . وكانت الالهة المهيمنة في المعابد الهة انثى ولكن الها ذكرا أضيف فيما بعد الى المجمع المقدس . اما عبادة الاجرام السماوية فلم تكن معروفة اذ لم يعثر لحد الآن على دليل يثبت وجودها بين اتباع الديانتين .

اما الديانة الهلنية الرسمية فهي في نشأنها وجوهرها عبادة طبيعية فالمظاهر والعناصر الطبيعية تحولت فيها الى مخلوقات مقدسة اكتظ بها معبد الالهة في اولميس والالهة الاولمبية لم تكن تتصف بالورع والزهد والتقوى بل تعيش وتسلك مثل المؤمنين بها من البشر وكان الناس يمارسون هذه العبادة طواعية بانفسهم في تجمعات عائلية صغيرة وكان المتعبدون يتقربون الى الرب لطلب الاحسان والنعم بمراسيم دينية بسيطة وبقرابين من الحيوانات دونما حاجة الى كتب دينية او الى رجال دين . والى جانب هذا الدين الرسمي الذي انتمى اليه جميع الاغريق نجد في بلاد اليونان القديمة بعض الشعائر الدينية التي

كانت تمارس بالكتمان وكانت مشاركة الافراد في ادائها شخصية واختيارية وتقتصر على من يرغب في تحمل مشاق تطهير خاص او يتعهد بكتمان شعائر سرية للغاية توحى اليه وهذه الشعائر السرية لا تهتم بالرخاء المادي للدولة بل بالطمأنينية الروحية للافراد كما انها تدعي صفة عالمية باعتبارها تمثل ديانة كونية يعتقد معتنوقها بكون منظم وتعلمهم مبادؤها وحدة الحياة ووحدة الاله واكثر هذه الشعائر الدينية السرية انتشارا في اوساط الاغريق القدماء كانت الشعائر الدينية السرية التي تمارس في أعياد الالهة ديميتر والاله ديونيسوس. اما المعابد فقد اغفل امرها الآخيون وهم اقدم الطلائع الاغريقية ويبدو ان جهود هؤلاء الوافدين تركزت على بناء القصور . ان شكل المعبد الاغريقي مدين منذ بدايته الى المبادىء الدورية في العمارة والواقع ان العمارة الاغريقية باستثناء دور الملاهي تطورت من انماط المعابد الدورية فالاضرحة القديمة اصبحت بالتدرج معابد متناسقة تبرز فيها السقيفة والاسطوانات والحجرات والقاعة الخاصة بتمثال الاله المقدس والاقسام الرئيسية لهذه المعابد ارتبطت ببعضها ارتباطا منسجما فالاسطوانات اقيمت لحمل السقف والجدران شيدت للاحاطة بغرفة العبادة وكان لطغاة القرن السادس قبل الميلاد دور بارز في هذا التطور . وتظهر في الديانة الاغريقية احتفالات بزواج مقدس يجرى في فصول معينة من السنة بين الالهة مثل زواج الاله زوس والالهة هيرا وزواج الاله هيدس والالهة برسيفون وفي بعض الاحيان ينوب الكاهن الاعلى الذي قد يكون ملك الدولة عن الاله ويكون زواجه حقيقيا او رمزيا .

المصادر المستخدمة في البحث

Angus, S., The Mystery Religions and Christianity, New York, 1925.

Avery, C., The New Century Classical Handbook, New York, 1962.

Bailey, D., Phases in the Raliogion of Ancient Rome, Berkely, 1932.

Clover, R., The conflict of Religions in the Early Roman Empire, London, 1919.

القذائف النارية والبارودية العربية
في ضوء المصادر الاثرية

الدكور صلاح حسين العبيدي
كلية الاداب ـ جامعة بغداد

اذا كانت الاسلحة العربية قد وجد من يعنى بها من الدارسين ، فان سلاح النار والقذائف النارية والبارودية ما زال في حاجة الى من يبرز قيمته ، لانه لم يلق من العناية مثلما هو الحال بالنسبة الى بقية الاسلحة الاخرى ، على الرغم من ان هذا السلاح قد لعب دورا هاما في حياة العرب الحربية وما احدثه في مجال العلوم العسكرية الحديثة •

ومن هنا رأيت ان اعرض لهذا الموضوع • اما معلوماتنا عن هذا السلاح فقد استقيناها من مصادر ثلاثة •

المصدر الاول هو ما جاء في المراجع التاريخية •

اما المصدر الثاني فهو ما جاء في المخطوطات العربية الاثرية •

والمصدر الثالث هو الاثار المادية القليلة التي عثر عليها اثناء التنقيبات في العراق •

اختلفت الاراء في مخترع القذائف النارية • فالفكرة السائدة لدى المؤرخين والباحثين الاوربيين ان مخترع النار هي بيزنطية ، لذا اطلقوا عليها اسم « النار اليونانية » او « النار الاغريقية »(١)

كذلك من الملاحظ ان بعض الباحثين من العرب من تبع ـ وهو مغمض العينين ـ هذا الرأى الذي يجانب الصواب ولا يتفق مع المنطق العلمي والحقائق المعروفة عن اصل هذا الاختراع •

وترددت اقوال اخرى بان « فلنيكوس » من مدينة هليوبولس بمصر هو صاحب الاختراع[٢] وذلك اثناء الحكم البيزنطي لها .

ونحن بدورنا لم نستسلم لاقوال هؤلاء المؤرخين والباحثين لان ما ذكروه ليس هو المحصلة النهائية للدراسات في هـذا المجال ، ولا يعـد كلامهم وثيقة ثابتة في اصل هذا الاختراع وبخاصة ما نلاحظ على احكامهم من انها ليست مدعمة بالادلة المادية التي يعتمدها الباحث في هذا الميدان .

لقد وقعت على بعض النصوص وانا ابحث عن اصل القذائف النارية فوجدتها احتوت على مؤشرات واضحة حول دراية العرب بهـذا السـلاح قبل غيرهم وكانت دليلا لنا في بحثنا ومجالا لاعادة النظر في احكام المتقدمين حول اصل هذا الاختراع . وقد كان ذلك في مدينة الحضر[٣] التي أسسها العرب في بادية الجزيرة خلال القرون الثلاثة الاولى للميلاد . ولا نريد ان نتطرق الى تاريخ هذه المدينة ومكانتها في التاريخ ، الا اننا نحب ان نشير الى نقطة هامة ، وهي ان اهمية الحضر برزت عندما اصبحت على مفترق طرق ، وهو مفترق اوجدته الحاجة العسكرية ابان فترات الحروب التي نشبت بين اعظم امبراطوريتين في العالم يومئذ هما امبراطورية الرومان وامبراطورية الفرثيين . وقد عانت الحضر كثيرا من الحصارات الحربية لم تفلح معظمها لشجاعة اهلها ومناعة اسوارها واستحكاماتهـا الحصينة وللاسلحة الدفاعيـة والهجومية التي كانت تستعملها في ذلك الوقت . وكان من بين تلك الاسلحة سلاح غريب من نوعه في ذلك الوقت وهو سلاح « القذائف النارية » وقد اشار الرومان الى هذه القذائف في اخبارهم حيث سموها « النار الحضرية » نسبة الى مدينة الحضر ، وقد ذكر الرومان بأن أهل الحضر كانوا يحاربون بنوع غريب من النيران المخيفة المرعبة[٤] .

اما عن مكونات النار الحضرية فان الرومان الذين اشاروا اليها لم يذكروا لنا شيئا عن طبيعة هذه النيران ومكوناتها وشكلها ، كما ان كتابات الحضر

لم تشر الى هذه النار ولكن من الباحثين[٥] من يعتقد بأنها مصنوعة من قماش مبلل بالنفط ، وهو تصور لو جاز حقا فانه في صورة من ابسط صوره ، لكن قوة هذه النيران ورعبتها وتأثيرها المدمر تؤكد بأن قذائف النار المذكورة كانت تتألف من مكونات النفط الثقيل « النفط الخام » او القير السائل ، والتي لا يمكن السيطرة عليها واطفاؤها بسرعة ، ولست استبعد وقوعهم على هذا النوع من السائل فان مناطق النفط قريبة منهم مثل القيارة وهيت[٦] .

والنار الحضرية كما أتصور كانت مصنوعة من مواد قابلة للاشتعال مثل استخدامهم القير داخل الاقمشة بدلا من الحجر لان القير هو الآخر مادة قابلة للاشتعال يلفونها على شكل كرات وبذلك يضمنون ديمومة التهاب الكتلة الى فترة اطول في التوقد والاشتعال .

وطبيعي انه لابد لهذه القذائف من آلة خاصة تقذف بها ، واغلب الظن انهم استخدموا المنجنيق لهذا الغرض ولعل في الاكتشاف الاخير للمنجنيق في مدينة الحضر ما يؤيد استعمالهم لهذه الالة في قذف تلك النيران[٧] .

اما في العصر الاسلامي فان القذائف النارية قد اصبحت سلاحا عاديا عند العرب استعملوه في فتوحاتهم وحروبهم وخاصة في حصار المدن برا وبحرا ، وكذلك في الحروب البحرية التي بدأت تشارك مشاركة فعالة في الفتح العربي . فقد وصلت الينا معلومات تشير الى ان المقذوفات التي احترقت بها الكعبة في حصار الحصين بن نمير لعبدالله بن الزبير سنة ٦٤هـ وكانت من نوع القذائف النارية[٨] .

ويذكر المستشرق الاسباني (كوندى) ان اهل مراكش استخدموا الاسلحة النارية في محاربتهم ، كما ذكر يوسف اشباخ[٩] ان المرابطين استخدموا الاسلحة النارية عند فتحهم مدينة سرقسطة سنة ٥١٥هـ في عهد علي بن يوسف بن تاشفين .

وقد طور العرب هذا السلاح وادخلوا عليه كثيرا من التحسينات ، فقد اولى العباسيون هذا السلاح الكثير من اهتمامهم فحققوا تطورا هاما اتى بنتائج باهرة فادخلوا على هذا السلاح الكثير من الاضافات انصبت بصورة خاصة على النواحي التركيبية منه ، كما تعددت الالات القاذفة لها ، فصار لكل نوع من هذه الالات قذائف نارية خاصة بها ففي ، مخطوطة « تبصره أرباب الالباب في كيفية النجاة في الحروب من الاسواء ونشر اعلام الاعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الاعداء » تأليف مرضى الطرسوسي مستشار السلطان صلاح الدين الايوبي العسكري جاءت تفصيلات وافية عن المقذوفات النارية ومكوناتها النارية والات قذفها ، فيقول عن المقذوفات التي ترمى بالنشاب « كبريت جزء راتينبج جزء قلفونيا جزء نوره ، جزء ساس كتان او دقيق التبن مخلوط بنخالة الحنطة جزء تسحق ما يجب سحقه وتخلط الجميع، وتؤخذ من شحم الكلي فتحرق وتؤخذ منه جزء وتخلط معهوتلف تلك العقاقير في مشاقة رقيقة وتلف عليه قشرات التوت وتحشى به قلب النص وتلف عليه وترمى فيه جمرة لطيفة او تحرق طرفه وترمى به فاذا خالطه الهواء اشتعل نارا عظيمة فتحرق اي شيء اصابه »[١٠] .

ثم يتكلم عن المقذوفات التي تقذف بها المجانيق فيقول « قطران عشرة ارطال راتينبج ثلثه ارطال سندروس من كل واحد رطل ونصف كبريت نقي طيب سالم من الترابية ثلثه ارطال شحم دلفين مسلى مذوب خمسة ارطال شحم كلا الماعز محلول مروق مثله تحل القطران وتلقى عليه تلك الشحوم وتطرح عليه الراتينبج بعد ان تحله على حدته ويدور على المطبوخ وتقد عليه ويطبخ الى ان يصير الجميع واحدا فاذا اردت العمل به وفي وقت الحرب فتأخذ منه جزءا وتضيف اليه عشرة من الكبريت المعدني الذي يسمى النفط ما كان منه يميل الى الخضرة تشبه الزيت القديم ويجعل الجميع في طنجير الى ان يكاد ويقد فتغط الاناء بلبد ، وليكن فخارا وترمى به عن المنجنيق على الشيء الذي نريد حرقه فانه لا يطفأ أبدا »[١١] .

اما صاحب كتاب « الانيق في المجانيق »[١٢] فقد ذكر لنا طريقة صنع القذائف النارية وتركيبها التي ترمى عن المنجنيق بشكل آخر حيث قال « قدر عراقي يأخذ أربعين قنا وأربعين وشقا واربعين صندروس ينخل الزامات كلهم بقليل من النفط الخوزى يطعم العشاء بدهن الرخامة بالنفط وينزل الجميع الى الرخامة ويخدمه عليها ويأخذ صندروس مخرمش ويعلقه ويأخذ قدره المدورة من الفخار ويفتح لها ثلث شواريق وثلاث منافس وبيضها (اى يسودها) بالزفت ويضرب الزامات في القدرة ويأخذ ثلث غزاور مطاولات يملاهم نفط ويحمل على رأس كل عزوز وردة من اللباد ولا يسد فم الغزور ويغرز الغراوز في الزامات ويطالع الوردات من الشواريق ويطالع من كل شارق اكريبج عراقي مقلي بكبريت ويضرب عليها شبك من الشريط قدر عراقي » ٠

اما عن القذائف النارية التي تستعمل لقذف المراكب فيقول الطرسوسي[١٣] (قطران جزء كبريت معدني وهو النفط جزء راتينبح جزء سندروس ، جزء شحم دلفين مسلي مروق ، جزء مشحم كلي ماعز مثله كبريت اصفر ، جزء تسحق ما يجب سحقه ويرفع القطران على النار الى الدست شيء ، على القطران يضاف اليه السندروس ويضرب به الى ان يختلط ثم يلقى عليه بعد الفراغ الكبريت المعدني الذي كله الزيت القديم وترفع فاذا احتجت اليه باخذه وتغليه الى ان تعلم انه قد اخذ الجد تشعل فيه نارا وترسله على الماء الى ما ارادت من المراكب فانه تحرق احراقا عظيما ويمشى على الماء ولا ينطفىء) ٠

وفي الشعر العربي ما يفيد الى اهمية سلاح النار في فتح الحصون والقلاع قال الشاعر المكي حينما فتح الرشيد هرقله :

هوت هرقله لما أن رأت عجبا — حوائما ترتمى بالنفط بالنار
كأن نيراننا في جنب قلعتهم — مصبغات على ارسان قصار[١٤]

وقد تفنن العرب في استخدام النار في الحروب فاستعملوا طرقا متعددة لهذا الغرض ، ويبدو بعضها غريبا من نوعه ، ففي مخطوط الطرسوسي[١٥] نجد مثلا « صفة العمل بالنار على الخيل » على الوجه الاتي (وهو ان تؤخذ تجافيف مبطنة باللبود فيكس بها الخيل بعد ان تطليها بالطلاء المانع من احراق النار •••• وتلطخ بذلك هذه التجانيف لطخا جيدا حتى يضم جميعا ثم تعمد الى مشاقه تتخذ منها كيانا بمنزلة الاجراس وترويها من النفط الذي يشعل وتلف عليها الخيوط الحديد الرقاق وتشدها في مقدم الفرس وفي مؤخره وحول الكفل كل ذلك على التجانيف وتلبس انت درعا من خيش مبطن باللبود وسراويلات منه •• وتجعل على رأسك قلنسوة من اللبود مطلية بالطلاء وتجعل من تلك الاجراس وحواليها وتركب الفرس وتحذر ان يخرج له يد ولا رجل وتلعب بالفرس كروفر فان ذلك ممن يرهب العدو واذا عمل بالليل كان له ارهاب عظيم) •

وقد امدتنا بعض المخطوطات الاثرية بصورة واضحة لهذا اللون من المظهر الحربي في استعمال النار في الحروب ، وتوضح الصورة[١٦] (الشكل ١) فارسا يرتدي درعا مبطنا باللباد من النوع المطلي بمانع الحريق ، وقد كسي بقلنسوة من نفس المادة ، وكذلك بالنسبة لفرسه حيث يبدو الدرع متدليا الى الاطراف وكذلك رأس الفرس وقوائمه ، ومؤخرته والذيل ، وقد اسند الفارس على كتفيه بصورة مستقيمة رمحا ركب فيه زج من طرفيه ، والرمح ملفوف بقماش من نفس قماش ملابس الفارس وفي مقدمة الفارس ومؤخرته رجلان يرتديان من نفس الملابس المانعة للحريق ، وقد حملا في ايديهما جميعا ادوات نظنها تتعلق بهذا النوع من وسائل الحرب •

ويبدو من استخدام هذا الاسلوب انه يعكس في نفس الاعداء نوعا من الرعب يفل من عزيمتهم لانه عندما يقوم الفارس على فرسه بالكر والفر ويدخل الخوف بمنظره وخصوصا اذا كان الوقت ليلا كما اشار الى ذلك الطرسوسي •

وفي المكتبة الاهلية بباريس صورة اخرى من مخطوط عربي عليها رسوم رجال من العرب بعضهم على الخيول والبعض الاخر مشاة وفي ايديهم خرق مبسوسة بالنار يرمون بها الاعداء[١٧] (شكل ٢) ٠

هذا عن النار العربيـة ، أما عن ما يسـمى بالنار اليونانيـة او « النار البيزنطية » فليس لدينا ما يثبت ان الاوربيين قد عرفوا القذائف النارية قبل ان يعرفها العرب وقد اشار الاوربيون انفسهم الى ذلك ، فقد ذكر ستيفن رانسيمان[١٨] « ان السفن التجارية البيزنطية كان سلاحها الرئيسي هو النار الاغريقية التي اخترعت في القرن السابع » ومعنى هذا ان العرب قد عرفوا هذا السلاح قبل ان يعرفه الاوربيون بنحو اربعة قرون ٠

وفي الوقت الذي كان العرب يستخدمون هذا السلاح في حروبهـم كانت اوربا تجهله جهلا تاما وليس ادل على ذلك ما كتبه الغربيون عنها ، فقد وصفت الاميرة « اناكومينا » ابنة « اليكسواس كومنيوس » ، الذي شهد عصر الحروب الصليبية الاولى النار العربية في كتابها عن سيرة ابيها ، فصورت مقدار روعها حين تعلو النار في الجو عندما تشتعل ثم حين تنقض كقطعة من الجحيم فتشوى الناس وتتركوه رمادا تذره[١٩] ٠

وقد استمر جهل الصليبيين بالنار العربية حتى الحملة الصليبية السابعة التي قادها ملك فرنسا « لويس التاسع » وكان هدفها مصر ، فقـد جاء في المذكرات اليومية للفارس « دى جوانفيل » التي جمعها في كتابه « ذكريات عن الحروب الصليبية » ليومي ٦ ، ٧ شباط سنة ١٢٥٠ م ما يأتي « في غسـق الليل جاء المسلمون بآلة عجيبة ووضعوها تجاه الابراج التي كنا ساهرين على حراستها انا و « السير والتركوريل » ثم قذفونا منها بشيء ملأ قلوبنا بالدهشة والرعب ، نار كانما هي الادنان المشتعلة وذيولها من خلفها مثل الحراب الطويلة ودويها يشبه الرعد كأنها جارح يشق الهواء ولهـا نور ساطع جدا من جراء عظيم انتشار اللهب الذي يحدث الضوء حتى انك ترى كل ما في المعسكر ،

كما لو كان في وضح النهار وقد رمى المسلمون علينا هذه النار في تلك الليلة ثلاث مرات من الالات الكبيرة واربع مرات من القسى العريضة[٢٠] .

وقد اشارت الاميرة « انا » الى بعض عناصر هذه النار ووصفت طريقة استعمالها فقالت « انها مزيج من النفط والزيت والكبريت المجمد بنوع من الصمغ القابل للاشتعال وكان هذا المزيج الناري يعبأ في انابيب من النحاس لها فوهة توقد منها وفي مؤخرتها قوس تنطلق فتدفعها الى الامام . وكانت تلك الانابيب توضع بكميات كبيرة في اسطوانة مستديرة في مدافع المنجنيق ثم تقذف على العدو فتصليه نار حامية اذ تنفجر بقوة الاصطدام فيندلع لهيب لا يمكن لانسان ان يخمده وينتشر شررها في كل جانب فيجعل ما حولها جهنم وبئس المصير »[٢١] .

هذا وقد تحقق على يد العرب في العصر العباسي تطور هام في حقل الاسلحة النارية اتى بنتائج باهرة ذلك هو اختراع البارود نتيجة دراسات كيمياوية قام بها علماء العرب في هذا الميدان ، حيث نجحوا في القرن الثاني عشر في ايجاد مادة مفرقعة كاوية حارقة ، ومن الجدير بالذكر ان كلمة « البارود » ذكرها ابن البيطار في كتابه لمفردات الادوية لاول مرة .

غير ان بعض الباحثين[٢٢] من يعتقد ان « روجر بيكون » او « شغارتز » او « مارك » هو صاحب الاختراع ، ويرى آخرون ان الفكرة الخاصة باطلاق قنابل عن طريق قوة متفجرة من البارود هي فكرة صينية .

وقد اثبت « قاصيري » في القرن الثامن عشر الميلادي و « فياردو » و « رنيو » و « فافيه » في القرن التاسع عشر بكل وضوح وثقة ان اختراع البارود باعتباره قوة متفجرة دافعة للقذائف النارية والبارودية انما يرجع للعرب وحدهم وليس لاحد سواهم[٢٣] ففي كتاب « الفروسية والمناصب الحربية » لحسن الرماح نجد ذكر كثير من المواد المفرقعة والاسلحة النارية

من قبيل قبولهم « بيض يندفع تلقائيا ويحرق » وقولهم ايضا « تطير نافثة للهب » وكذلك ما ذكروه عن مواد تحدث صوتا مثل الرعد وهكذا[٢٤] .

وقد جاء وصف الرماح للبارود كما يلي :

« تؤخذ عشرة دراهم من البارود ودرهما من الفحم ونصف درهم من الكبريت وتسحق جيدا حتى يصبح كالغبار ، ويملاء منها ثلث المدفع فقط خوفا من الغزارة ... ويضع الخرائط من اجل ذلك مدفعا من حديد او خشب تناسب جسامة فوهته وتدك فيه الذخيرة بشدة ويضاف اليها اما بندق واما نبل ثم تشعل ويكون قياس المدفع مناسبا لثقبه ، فاذا كان عميقا اكثر من اتساع الفوهة كان ناقصا[٢٥] .

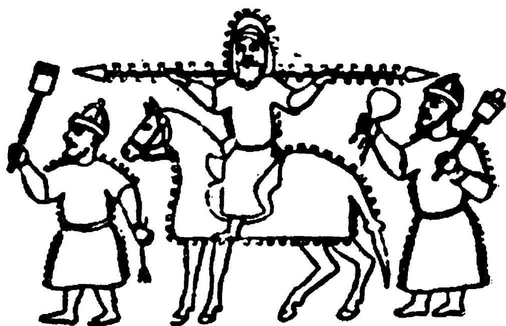
فالعرب كما تقول الدكتورة « هونكة »[٢٦] (اول من صنع لغماً تقذفه الصواريخ) وتقرر « هونكة »[٢٧] ان الخليط العربي العجيب الذي يحدث رعدا وبرقا قد وصل الى بعض علما اوربا امثال « روجر بيكون » و « البرتوس مجنوس » و « فون بولشتدت » وقد يكون الاخير هو الذي اتصل اثناء تجواله بذلك الذي يدعي انه مخترع البارود وهو «الفرنسيكاني برتولد شفرز» في فرسورج واخبره عن هذا الاختراع العربي . وتضيف هونكة[٢٨] فتقول « ثم حدث ان انتقلت النظرية الى التجارب العلمية التي هزت كيان العالم ، فالعرب في الاندلس هم اول من استخدمه في اوربا . فالعرب الاندلسيون هم صانعوا القنابل من البارود في اوربا ، وقد أشار ابن خلدون[٢٩] الى استعمال العرب للبارود في حروبهم عندما فتح ابو يوسف سلطان مراكش مدينة سلجماسة واخرج بني عبدالوارد سنة ٦٧٢هـ . يقول « ولما فتح ابو يوسف بلاد المغرب وانتظرت امصاره ومعاقله في طاعته ، وغلب بني عبدالمؤتمن على دار خلافتهم ومحاربتهم وافتتح طنجة وطوع سبته مرفأ الجواز الى العدوة وثغر المغرب سما امله الى بلاد القبلة فوجه عزمه الى افتتاح سلجماسة من ايدى بني عبدالوارد المتغلبين عليها واداله دعوته منها من عودتهم فنهض اليها في العساكر

والحشود في رجب سنة مئتين وسبعين وستمائة منازلها وقد حشد اليها اهل المغرب اجمع عن زناتة العرب والبربر وكافة الجنود والعساكر ونصب عليها الات الحصار من المجانيق والعرادات وهندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانه ، اما النار الموقدة في الباروده ، بطبيعة غريبة ترد الافعال الى قدرة باريها » •

والتاريخ يحدثنا ان المدفعية العربية قذفت بقنابلها في الاعوام ١٣٢٥ ، ١٣٣١ ، ١٣٤٢ م مدنا مثل « بازا » و « اليكتا » و « الجيكراس » فاحدثت هذه القنابل ذعرا شديدا في صفوف الاعداء حتى انهم اعتقدوا ان الساعة قد اقتربت وادنت الدنيا بزوال » • وفي عام ١٣٤٦م دارت معركة طاحنة هي المعروفة باسم « كريس » فاصلت فوهة المدفعية التي اطلق عليها الاوربيون وقتذاك فوهة الشيطان نيرانا حامية ، استولى الرعب على الانجليز الذين كانوا في « الجزيرة » كما نكل العرب بالفرسان الفرنسيين تنكيلا عظيما واحرزوا عليهم نصرا مبينا »[٣٠] •

هذا وقد وصلت الينا صورة لهذا النوع من السلاح ، والصورة تحتفظ بها مكتبة بفرسبرج نرى فيها صورة لرجلين من العرب يشتغلان في الاسلحة النارية احدهما الى اليمين يحمل ما يشبه البندقية وفيها القنبلة والبارود داخلها وقد ادناها من لهيب امامه حتى يولع البارود ويقذف القنبلة[٣١] (الشكل ٣)•

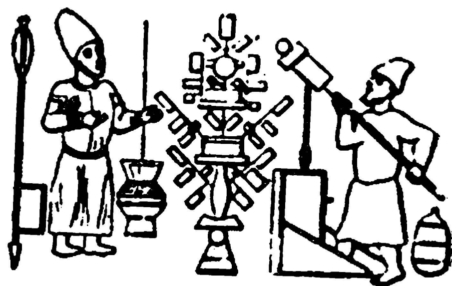
واخيرا ، اننا بما قدمناه لنرجو ان نكون قد اعطينا بعض العطاء في ظاهرة قد يكون الحديث حولها في المستقبل اكثر واوسع عندما تظهر كشوفات جديدة •



شكل (١)



شكل (٢)



شكل (٣)

الهـوامش :

١ ـ Bury: Gibbon's. Declinie and fall p 52

٢ ـ ماهر : سعاد : البحرية في مصر الاسلامية ص ٢٣١ ·

٣ ـ انظر عن تاريخ هذه المدينة كتاب « الحضر مدينة الشمس » · لمؤلفيه الاستاذين فؤاد سفر ومحمد علي مصطفى ·

٤ ـ العبيدي : صلاح : منجنيق من الحضر ، مجلة سومر الجزء الاول والثاني ، والثلاثون (١٩٧٦م) ص ١٢٧ ·

٥ ـ الدروبي : حافظ : الطقوس الدينية في المعبد الخامس في الحضر سومر ، الجزء الاول المجلد السادس والعشرين (١٩٧٠ م) ص ١٤٤ ·

٦ ـ باقر · طه : مقدمة في تاريخ الحضارات جـ ٢ ص ٤٧٥ ·

٧ ـ العبيدي : صلاح : المصدر السابق ص ١٢١ ·

٨ ـ زيدان : جرجي : تاريخ التمدن الاسلامي جـ ١ ص ٢٠١

٩ ـ اشباح : يوسف : تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين جـ ٢ ص ٢٩٥ · ماهر · سعاد : المصدر السابق ص ٢٣٣ ·

١٠ـ الطرسوسي : مرضى بن علي بن مرضى : عنـى بتحقيـق المخطوط ونشـره، كلودكاهين ص ٢١ ·

١١ـ المصدر السابق ص ٢١ ·

١٢ـ الزردكاش ، ارنبغا : الانيق في المجانيق (مخطوطة مصورة بالجامعة العربية تحت رقم ٩٧٠) ورقة رقم ١٦ ·

١٣ـ الطرسوسي : المصدر السابق ص ٢١ ·

١٤ـ ابو الفداء : تاريخ جـ٢ ص ٩ · الاغاني ١٧ ص ٤٧ ·

١٦ـ زيدان ، جرجي : المصدر السابق ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ · لوبون : غوسـتاف : حضارة العرب شكل ٢٣٧ ·

١٧ـ المصدر السابق ص ٢٠١ · لوبون : المصدر السابق شكل ٢٣٥ ، ٢٣٦ ·

١٨ـ رانسيمان : ستيفن : المدينة البيزنطية · ترجمة د · صالح احمد العلـي، ص ٨٣ ·

١٩ـ زكي : عبدالرحمن : معركة المنصورة واثرها في الحروب الصليبية ص ٧٤ ·

٢٠ـ ماهر : سعاد : المصدر السابق ص ٢٣٤ ٠

٢١ـ زكي : عبدالرحمن : المصدر السابق ص ٧٤ ٠

٢٢ـ انظر مظهر : جلال : الحضارة الاسلامية اساس التقدم العلمي الحديث ص ١٠٣ ٠

٢٣ـ المصدر السابق ص ١٠٣ ٠

٢٤ـ هونكـه : فضل العرب على اوربا : ترجمه وحققه وعلق عليه فؤاد حسنين ٠ ص ٣٢ ٠

٢٥ـ عدوان : احمد محمد: دراسة في تاريخ الصناعات العسكرية في العصر المملوكي مجلة كلية التربية (جامعة الفاتح بليبيا) العدد الخامس ١٩٧٦ ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦ ٠

٣٦ـ هونكه : سيجريد : فضل العرب على اوربا ص ٣٢ ٠

٢٧ـ المصدر السابق ص ٣٢ ٠

٢٨ـ المصدر السابق ص ٣٢ ٠

٢٨ـ ابن خلدون : المقدمة جـ٧ ص ٨٨ ٠ ماهر : سعاد : المصدر السابق ص ٢٢٣ ٠

٣٠ـ هونكه ، المصدر السابق ص ٣٣ ٠

٣١ـ زيدان : المصدر السابق ص ٢٠٢ ٠ لوبون : المصدر السابق شكل ٢٣٨ ٠

المصادر العربية :

١ ـ **اشياح ـ يوسف**
تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموجودين ٠

٢ ـ **باقر ـ طه**
مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ٠ مطبوعات دار المعلمين (شركة التجارة والطباعة ١٩٥٦م) ٠

٣ ـ **الدروبي ـ حافظ**
الطقوس الدينية في المعبد الخامس في الحضر ٠ مجلة سومة الجزء الاول ٠ المجلد السادس والعشرين (١٩٧٠م) ٠

٤ ـ **رانسيمان ـ ستيفن**
المدينة البيزنطية ٠ ترجمة د ٠ صالح احمدالعلي ٠

٥ ـ زكي ـ عبدالرحمن
معركة المنصور واثرها في الحروب الصليبية (القاهرة سنة ١٩٦٠) ٠

٦ ـ زيدان ـ جرجي
تاريخ التمدن الاسلامي (دار الهلال) ٠

٧ ـ الطرسوسي : مرضى بن علي بن مرضى
تبصرة ارباب الالباب في كيفية النجاة في الحروب من الاسواء ونشر اعلام الاعلام في العدد والالات المعينة على لقاء الاعداء ٠ عني بتحقيقه ونشره كلود كاهين ٠

٨ ـ العبيدي ـ صلاح
منجنيق من الحضر ـ مجلة سومر الجزء الاول والثاني المجلد الثاني والثلاثون (١٩٧٦م) ٠

٩ ـ عدوان ـ احمد محمد
دراسة في تاريخ الصناعات العسكرية في العصر المملوكي ٠ مجلة كلية التربية (جامعة الفاتح بليبيا) العدد الخامس ١٩٧٦ ٠

١٠ـ سفر ـ فؤاد ومصطفى ٠ محمد علي
الحضر مدينة الشمس (منشورات مديرية الاثار العامة ـ بغداد) ٠

١١ـ لوبون ـ غوستاف
حضارة العرب ٠ نقله الى العربية عادل زعيتر ، طبع بدار احياء الكتب ٠ عيسى البابي الحلبي وشركاه القاهرة (١٩٦٥ م) ٠

١٢ـ ماهر ـ سعاد
البحرية في مصر الاسلامية واثارها الباقية (دار الكتاب العربي للطباعة والنشر) ٠

١٣ـ مظهر ـ جلال
الحضارة الاسلامية اساس التقدم العلمي الحديث (الناشر مركز كتب الشرق الاوسط) ٠

١٤ـ هونكه ـ سيجريد
فضل العرب على اوربا (شمس الله على الغرب) ٠ ترجمه وحققه وعلق عليه الدكتور فؤاد حسنين ملتزم الطبع والنشر دار النهضة العربية ٠ القاهرة ٠

المصادر الاجنبية :

١٥ـ Bury J. B. Gibbons Decline and Fall (London) 890-6.

المدنية والبناء في بلاد وادي الرافدين

الدكتور وليـد محمود الجادر
الاستاذ المساعد في جامعة بغداد.
كلية الاداب ـ قسم الآثار

ان ظهور ونمو المدن في وادي الرافدين لم يكن وليد صدفة بطبيعة الحال. فلقد توفرت عوامل هامة ساهمت في تطوير وتحويل القرية العراقية القديمة الى مدينة بمعنى الكلمة • فقد أدت زيادة نسبة السكان في الوحدة الاجتماعية الى تركيز التجمع ، وهذه الظاهرة تعتبر مرتبطة ارتباطا عضويا بالتقدم والنمو التقني المتعلق بالزراعة والرعي وما يحتاجانه من تصنيع مكمل لهذا التطور •

ويحدد المختصون بالآثار فترة النصف الثاني من الالف الرابع ق•م ، أو ما يعرف بفترة الوركاء ، بداية مقبولة لظهور بعض القطاعات المدنية المميزة وسط التجمع السكاني الكبير في هذه المرحلة •

وبالقرب من ضفاف نهري دجلة والفرات اكتشف المنقبون ، مدنا اخرى اثبتت بقاياها الاثرية ، سواء في المجالات المعمارية ، أو من خلال موجوداتها الاثرية ، انها مراكز متطورة : مثل لكش واور •••

ومن مظاهر التجمع المدني والمدينة : البناء ، سواء ما كان منه البناء الخاص ، كالبيوت السكنية ، أو العام ، كالمعابد والاسوار الدفاعية يضاف الى ذلك ظهور المرافق والوحدات المكملة والمرتبطة بهذه المباني وسكانها : كالمواصلات والوحدات الصناعية والاسواق وغيرها •••[١]•

ويرى وولي (Sir. L. Woolley) بان انتقال التجمع السكاني من

(١) Oppenheim, L. Ancient Mesopotamia, University of Chicago. 1964 P: 125 and P: 74 - 142.

القرية الى المدينة قد حدث نتيجة لتطور نظام القرية وتنظيم الزراعة والرى[٢] ، بينما يؤكد آخرون في هذا المضمار على أهمية الانتقال من الزراعة الديمية الى الزراعة بواسطة الارواء[٣] • ويرى المنقب الفرنسي المعروف بارو

---

(٢) M. Lambert. "Comte rendu." in: R. A. 59. P. 133-136.
I. M. Diakonoff : Ia Socicté de L'État en Mésopotamie. ibid. P. 133-136.

ويحوى المصدر الاخير على اراءا خاصة ببداية المدنية وتكوين المدينة السومرية ودور المعبد في هذا التكوين كما ويناقش اراء الباحث المعروف كريمر (S. N. Kramer) الذي يرى انه كان يوجد الى جانب هيمنة المعبد قطاعات مدنية خاصة مستمدا رأيه من الوثائق السومرية •

S. N. Kramer. The Sumerians. Their History, Culture and Character. Univ. of Chicago Press. Chicago. 1963.
Lambert. ibid.

وانظر ايضا : رأي الباحث فالكنشتاين والخاص بتكوين المدينة والمدنية ودور المعبد في ذلك :

Falkenstein, A. La cité- temple Sumerienne. in : Cahiers d'Histoire Mondiale. Paris 1953-1954. P. 784...

انظر ايضا :

Lenzen, H. Die Entwieklang der Sumerishen Tempel, Zeitschrift Für Assyriologie und Vorder-asiatische Archäologie, Neue Folge, XVII (Berlin, 1954 P. 40).

(٣) حول مزيد من التفاصيل عن نمو المجتمعات في الشرق الادنى القديم والبحوث المستفيضة والخاصة بنمو المجتمعات وموضوع الاستقرار في وادي الرافدين وكيفية الانتقال من سكنى القرى الى المدن •

انظر :

R. Adams, R. Braidwood, Albright. W. Th. Jacobsen ... in: City invincible. A Symposium on Urbanization in The Ancient Near- East. Dec. 4-7. 1958. edited by Carl H. Kracling and R. M. Adams. Chicago. 1960. P. 20-60.

(A. Parrot) بأن توصل المجتمع الى تصنيع المعادن أى ما يعرف بالتعدين ، هو الاساس في بلوغ ذلك المجتمع السكاني الى مرحلة المدينة والمدنية ، ويضيف الى ذلك تقسيم العمل والتخصص في الانتاج[٤] •

ويضاف الى رأى بارو سابق الذكر ، ان تمركز الحياة الاجتماعية واستقرارها كان ايضا واحدا من الاسس في اعتماد المدينة والمدنية • فنتيجة لطبيعة العلاقات الاجتماعية اصبحت المدينة تتكون من وحدات تقليدية معروفة هي اضافة الى بيوت السكن والمعبد ، والقصر فيما بعد ، ومجموع هذه العناصر الرئيسية تكون الصفات الخاصة للمدينة وتميزها بأنفرادية معينة ، أي تنفرد كل منها بشخصية مستقلة •

وهكذا يتكون مفهوم المدينة في وادى الرافدين من مجموع التجمعات السكنية التي تتخذ لها بالمدينة اماكن ووحدات معمارية معينة ويلاحظ في شكل الوحدات المعمارية هذه معظم جوانب الفنون التطبيقية باعتبارها مكملات ضرورية لها ويعطي طابعا يميز المدينة الواحدة عن الاخرى ، هذا مع ملاحظة المفهوم الرئيسي للوحدة البنائية هنا وهو الجانب العملي اولا ، ومع ذلك ، يظل البناء والعمارة بشكل اوسع ، الشكل الاول من اشكال الفنون الرئيسية التي يمكن ان يلاحظ فيها تسلسلا واضحا في وادي الرافدين منذ الفترة السومرية وخلال الفترات اللاحقة •

وتميز بعض المفردات في اللغة السومرية والاكدية فيما بعد المدينة ككيان مستقل عن خارجها حتى فيما اذا كان لهذه المدينة متعلقات مباشرة

---

(٤) Revue d'Assyriologie, (RA) 59. P. 133-136.

أو غير مباشرة ، أي المناطق المجاورة للمدينة ولكن خارج سورها المستقل وبواباتها الرئيسية[٥] •

ولقد عرفت المدينة السومرية بكلمة (Uru) ويقابلها في الأكدية (âlu) وقد وردت في النصوص البابلية اشارات وصفات عديدة لها مدلولات مختلفة فالكلمة تفيد « المدينة » بمعناها التقليدي كما انها تفيد معنى ضواحي المدينة ، والاهم من ذلك ان الكلمة (ālu) استخدمت للدلالة على المدينة باعتبارها مركزا اجتماعيا (social Structure) كما اوردت النصوص المسمارية عددا كبيرا من اسماء الموظفين الذين كانوا يعملون داخل المدينة الواحدة بمختلف الرتب من كبيرهم وصغيرهم • وعرفت المدن بسكانها ومواطنيها ، كأن يقال سكان المدينة الفلانية ، واستعمل العراقيون الاقدمون نسب الشخص الى مدينته كأن يقال على سبيل المثال « فلان النفري » نسبة الى مدينة نفر • ومعروف ايضا ان امهات المدن السومرية كانت مراكز لعبادة الهة معينة ولهذا اصبحت ، على سبيل المثال ، مدينة اور مدينة للاله ننا (سن) ونفر مدينة الاله انليل ، وسبار مدينة الاله (شمش) •

ولما كانت المدينة تعني محل استيطان جماعة سكنية فقد استخدمت

---

(٥) المدينة السومرية كانت في صراع حربي مع المدن المجاورة ، وكانت معظم المدن السومرية محصنة باسوار دفاعية ويحصن المدينة الواحدة احيانا اكثر من سور واحد وتشاهد عمليا بقايا اسوار من هذه المدن لازالت باقية حتى اليوم وبلغ سمك سور مدينة نفر الخارجي في اجزاء عديدة منه سبعة عشر مترا : انظر :

Antiquitis Journal. No. 4 (1923) P. 311-333.

كذلك نعرف عن سور مدينة سيبار (ابو حبة) الواقع في ناحية اليوسفية والذي تبلغ مساحته ١٣٠٠ × ٨٠٠م وبسمك ٤ـ٧ مترا من الاعلى ومن الاسفل يصل هذا السمك بين عشرة وخمسة عشر مترا • انظر :

V. Scheil, Saison de Fouilles à Sippar. Pl. et Passim.

E. Bell. Early Architecture in Western Asia, London. 1924. PP. 26, 31, 38, 43.

الكلمة (ālu) للتعبير عن معنى « المستوطنة » و « المقاطعة السكنية » في الوقت نفسه •

وباعتبار المدينة مركزا اداريا وسياسيا وعسكريا فقد اضيفت الكلمة (ālu) الى اسماء اخرى مثل (bēl āli) « حاكم المدينة » (bīt āli « بيت المدينة » باعتبارها مركزا اداريا و (rab ālāni) « حاكم المدينة » (العسكري في العصر الاشوري) و (Sha muhhi āli) الذي ربما يوازي الاخير ، في المرتبة في العصرين الاشوري الحديث والبابلي الحديث ومن الكلمة ālu تأتي ālû بمعنى « الموطن » أي – مستوطن المدينة[٦] •

كذلك فان كل مخطط يشغل حيزا مكانيا يمثل ويرمز الى قوتين متضادتين : الاولى مركزية وتتمثل في الوحدات الادارية والدينية والقصر ، والثانية ، غير مركزية تشمل اطراف المدينة الداخلية وبضمنها الميناء (Karum) ومعروف ان بوابات المدينة تعتبر الحد الفاصل بين مدينة واخرى وبين الداخل والخارج في المدينة الواحدة[٧] •

وعرف سكان وادي الرافدين أهمية تقسيم الحيز المكاني في دراسة وضعية المدن في المنطقة الواحدة وكذلك تحديد مفهوم الجهة والاتجاهات الاربعة[٨] •

ثم ان مفهوم سور المدينة في وادي الرافدين يتوضح من اعتباره كتلة

---

(٦) CAD. Vol. I. Part. 2. sub alu.

(٧٧) انظر مقالة السيدة كاسان بالفرنسية حول مفهوم الزمان والمكان في وادي الرافدين القديم والمترجم الى العربية من قبل كاتب هذا المقال وذلك في مجلة سومر مجلد ٣١ (١٩٧٥) ، ص ٣٤٠ •

(٨) نفس المصدر • ص ٣٤٣ •

دفاعية ضد تحرشات المدن الاخرى وخاصة بدوافع اقتصادية بالدرجة الاولى ، هذا اضافة الى أن السور يعطي مفهوم المركزية في السلطة على مجموعة معينة من الافراد في ذلك المكان المحدد • وهكذا تفصل بوابات هذه المدن الخارجية بين عالم المدينة الداخلي والخارجي ، وهي نقطة عبور بين الحيز المفتوح الخارجي والحيز المكاني المحدد للمدينة ، والحيزان المكانيان يكونان مختلفين ايضا من الناحية النوعية •

وتعني كلمة (bâbu) في الأكدية الحيز المكاني الذي يتعلق بالقسم الخارجي من المسكن او البناء ، ويقال على سبيل المثال : « من الباب الى الخارج » وعكسه : « من الباب الى الداخل » • ومن اشتقاقات نفس الكلمة استخدمت كلمة (bâbanu) والتي تشير الى الحيز الخارجي ، خارج سور المدينة ، وهو الجزء المضاد لما يقع في داخل اسوارها •

وتبدو من الملاحظات اللغوية مدى عمق ادراك سكان وادي الرافدين ومنذ فترات تكوينهم لاولى مدنهم القديمة لمفهوم حدود الباب سواء كان المقصود بها باب السكن أو باب المدينة •

ويجدر بنا ان نلاحظ كمثال على المغالات في سمك أسوار وجدران المدن وأطوالها ما هو موجود في نفر الذي لا يمثل فقط جانبا دفاعيا بل يعكس الشعور النفسي بالنزعة الى مزيد من الاستقلال والحيطة(٩) •

---

(٩) Bottéro, J. Stève. M. J. Dict. Archéo. des Tech. Vol. II. Paris. 1964. P. 486.

كذلك انظر تفاصيل سور مدينة لكش المنسوب بناءه الى كوديا ، ويذكر عنه ان له وجهان : خارجي وداخلي ، وكشفت الحفريات الاثارية بعض اجزائه ووجد ان سمكه في بعض اجزائه يصل الى عشرة امتار وان ارتفاعه في بعض الاجزاء الاخرى يصل الى ثمانية امتار ، ووجد انه كان مشيدا بالطابوق من قياس ٣٤ × ٣٤ × ٩ سم • هذا اضافة الى ان بعض اجزائه التي وجد انها

بيــوت العامــة :

ان الاحاطة بصورة علمية بدراسة بيوت الســكن للافـراد في وادي الرافدين ترتبط بالدرجة الاساسية بطبيعة المناخ وطبيعة ومستوى الوضع الاقتصادي وذلك بداية من الالف الرابع ق • م تقريبا •

وكانت بعثات التنقيب قد زودتنا بنتائج واضحة عن نماذج لهذه البيوت منذ فترة جرمو وحسونة ولكننا هنا نبدأ مع بداية تمركز التجمعات السكنية في وادي الرافدين في مجموعة من المدن هي على الرغم من قلة نماذج بيـوت الافراد الباقية فيها بشكل سليم ، الا اننا مع ذلك نستطيع اعطاء صورة واضحة عنها من خلال هذه النماذج • ان اوضح نموذج من بيوت الافراد هذه البيت المكتشف في موقع تل اسمر والمسمى سابقا بتل اشنونا وهو من مواقع ديالى والقريب الى المناطق الشرقية من بغداد ، وكانت بعثة اثرية تابعة للمعهد الشرقي للاثار في شيكاغو قد قامت بالتنقيب فيه قبل بداية الحرب العالمية الثانية •

لقد وجد ان المتبقى من ارتفاع الجدران لهذا البيت الخاص حوانـي المترين ، ووجدت الباب الرئيسية له والتي كانت تطل على الشارع وتؤدى الى فناء الدار من جهة اليسار والى المطبخ من جهة اليمين ، كما وعثر على كوة في جوار المطبخ وفي واجهة المدخل عثر على مصطبة من الحجر ملتصقـة بالجدار ، ووجدت بقايا ثلاثة غرف اخرى فتحات مداخلها على شكل قوس

كانت مشيدة باللبن ، ويلاحظ ان داخل المدينة نفسها كانـت تضم اربعـة قطاعات رئيسية كانت تعرف بـ : گرسو ، اورازاكا ، نينا وكشكالا :
Girshu, Uru azagga, Nina, Gish - galla.

انظـــر :
Jastrow: Die Religion Baby, Und. Assy. Tome. I (1905) P. 56.

كذلك انظر :
Comptes randus de L'acad. Ins. Bell. Let. (1910) P. 154.
Muayad Said Damerji : Die entwicklung Der Turü - torarcgitektur im alten Mesopotamien. München. 1972.

ارتفاعه متر ونصف • وقد امكن تحديد فترة بناء هذا البيت بحدود منتصف الالف الثالث ق • م[١٠] •

ان مثل هذا التخطيط الواضح لاحد بيوت الافراد في وادي الرافدين يعتبر في الواقع النموذج التقليدي للبيت العراقي ما عدا بعض الاختلافات التي يمكن اعتبارها ثانوية تتعلق بطريقة توزيع الغرف على الساحة المفتوحة الرئيسية •

لقد وجدت بيوتا مشابهة لهذا المخطط من فترة اقدم كالتي عثر عليها في موقع تبة كورة[١١] من فترة العبيد •

كذلك توضح لنا بقايا بيوت سكن الافراد في مواقع اخرى في اشور ولكش (تلو) واور من فترة نهايات الالف الثالث ق • م انها مشابهة لمخطط البيت النموذجي الاول من تل اسمر وهو البيت الذي اعتبرناه نموذجا تقليديا والذي استمر عبر العصور الطويلة بشكله العام ليصبح فيما بعد البيت الشرقي المعروف •

وهكذا نلاحظ ان البيت العراقي القديم بشكل عام يتميز بوحدة بنائية متكاملة ومستقلة ، أي انها وحدة مغلقة على نفسها ، حيث تتكون من فناء مكشوف ومن مجموعة من الغرف ولا تتصل بالخارج الا من خلال باب الدخول ، أي لا توجد لها منافذ اخرى ولا حتى شبابيك مطلة على الشارع •

والمعروف ان مثل هذه البيوت ما زال معروفا لحد يومنا هذا ، ويبقى المنفذ الآخر ، هو الفناء المكشوف من الاعلى وهو المتنفس الوحيد للهواء والضوء •••

ويدخل الى البيت من خلال الباب الذي يؤدى الى المجاز حيث كانت

---

(١٠) Bottéro, J. Stève, M. J. ibid. P. 489.

(١١) نفس المصدر السابق • ص ٤٨٩ •

توضع انية الماء بجوار حفرة في الارض تستخدم على ما يبدو لغسل الارجل قبل الدخول الى البيت ، ويلي المجاز مدخل الفناء الذي يكون في العادة مبلطا ويحوى على بالوعة تكون مركزا لتجمع المياه المستخدمة في البيت(١٢) •

ان مثل هذا التخطيط النموذجي للبيت في وادي الرافدين جرى الاخذ به بالنسبة للوحدات البنائية الاخرى كالمعبد والقصر مع اختلاف الحجوم ونوعيات المواد الاولية •• والعناصر الثانوية المكملة • ومثل هذا التخطيط تمليه الطبيعة المناخية والجغرافية والواقع الاقتصادي والاجتماعي بحيث استمر الاخذ بهذا التخطيط النموذجي حتى في قصور الملوك ، سواء في وادي الرافدين أم في المناطق المجاورة لها ، كما هو الحال في تخطيط البيوت في مدينة ماري (تل الحريري مثلا)(١٣) •

---

(١٢) Wooley, L. The Sumerians. England Oxford. 1928. P. 158.

ويذكر وولي ان السقوف كانت تستخدم فيها جذوع النخيل ، وجريده ، كما ويذكر وجود ممر يطل على الفناء الرئيسي وعلى العموم فان اساليب التسقيف غير واضحة كليا ولكن امكن التوصل الى بعض أنواعها من خلال الاكتشافات الاثرية المتتابعة ، اما عند السومريين فيبدو من خلال بعض الاختام « والمقارنة مع بعض بيوت السكن المعاصرة » وطبيعة المواد المستخدمة في البناء ، فيمكن تحديد نوعية واسلوب التسقيف عندهم • انظر حول تفاصيل التسقيف في كل من اور وتلو وخفاجي وتل اسمر وعقرقوف :

Dict. Archéo. des Tech. I. Paris. 1963 P. 65...

كذلك :

ibid. Vol. II. P. 484.

(١٣) انظر مجلة سومر • العدد ١ ، ١٩٤٥ ص ٦٨ شكل ٥ب •

كذلك انظر للتوسع عن انواع القبب المستخدمة كتسقيف جزئي أو كلي :

Maspero. Hist. Ancienne des Peuples de L'Orient Classique. Tome. I. Paris. 1895. PP. 680. 685.

De Sarzec. Heuzey. Découvertes en Chaldée. PL. LVII. bis. no. I. Hilprecht. Explorations in Bible Lands. 1903. P. 420.

وتبقى ناحية مهمة وهي الاضاءة في مثل هذه الدور السكنية وفي غيرها من الوحدات البنائية في المدينة •

لقد اثار مثل هذا الموضوع جدلا بين الباحثين ، لعدم تمكن البعثات التنقيبية من العثور على توضيح كامل بهذه النقطة حتى الآن • غير ان اكتشاف بعض المعالم الدالة على معرفة سكان وادي الرافدين القدماء باستخدام اساليب متطورة في الاضاءة اعطت فرصا مناسبة للولوج في مثل هذا الموضوع ، والذي يرتبط بالنتيجة بتطور واستخدام العلم والتجربة في الحياة •

والاعتقاد السائد ا نالاضاءة في البيت كانت تتوفر من خلال المشعل (في الاكدية) (diparu) الذي كان يتخذ شكل حزمة من القصب المشبعة بالشحوم أو الزيت ، وفي السومرية يعطي الاصطلاح (GI. IZI. LA2) معنى القصبة التي تحمل النار[١٤] • ويذكر في نص من النصف الاول من الالف الرابع ق • م عن تجهيز الزيت للاضاءة[١٥] •

ولقد عثر المنقبون الاثاريون في مناطق عديدة من وادي الرافدين على ما يمكن تسميته بالمصابيح اليدوية المصنوعة من الطين المفخور واحيانا من الجبس بأشكال القواقع او تقليدا لها وذلك منذ منتصف الالف الثالثة

---

(١٤) Bottéro, J. ibid. Tome. II. Paris. 1964. P. 491.

(١٥) Clay A. T. Neobaby Lonian Letters From Erech. NO. 190. 32.

يرد الضوء المستحصل عليه بهذه الطريقة في اللغة الاكدية تحت لفظة dipâru والمعروف عن ورود النص التالي في ملحمة كلكامش :

il A- num- na -ki ish - shu-u di- pa- ra- a - ti

Glg. Xi, L. 103. واله الانوناكي حملوا المشاعل •

ق . م[16] .

وترد في مناسبات عديدة في نصوص خاصة بالطقوس والمعاملات التجارية اشارات واضحة الى المصباح والاضاءة المنبعثة منه والموصوفة باشكال مختلفة قد تبدو مبالغا فيها احيانا لما تعطيه مثل هذه المصابيح من انطباع مثير[17] . ويرد التعبير الاكدى (Shat nuri الذي ترجم على انه الالة او الاداة ذات النور او الخاصة بالانارة[18] . ويبدو ان المادة الرئيسية المستخدمة في مثل

---

(١٦) عثر المنقب وولي على نماذج من هذه « المصابيح » في قبور السومريين في اور ولقد وجد ان معظمها مصنوع من الصدف الطبيعي ومن هذه النماذج ما هو مصنوع على شكل رأس الطير وزينة عيونه ظهر انها مرصعة بقطع من مادة اللازورد (Lapis) انظر تفاصيل ذلك:

Woolley. L. Ur. Exc. IV P. 103.

No: 42, 155, 215, 218, 242, 261 and vol 11 P. 283. Pl. 101.

ومن خلال تفاصيل واحدة من احجار الحدود المعروفة في وادي الرافدين تحت الاصطلاح كودورو (Kuduru) والتي ترجع الى فترة حكم الملك البابلي مردوخ ذاكر شومي (Marduk - Zakir- Shumi) يمكن رؤية شكل الطير محمولا على قاعدة ويبدو واضحا انه كان مستخدما « كمصباح » انظر :

RA, tome XVI (1919). Pl. 1.

(١٧) KAR. 80. r. 20. Maqlu. I. 135.

CAD. Vol. III (1958,) P. 157.

كذلك انظر : 4R. 26. No. 3, 39...

وانظر : ADD. 742: 5

CAD. Vol. 3. P. 157.

« الذي حمل المصباح والاضواء خلال الظلام » ، ويرد في نص آخر (بيل هو مصباحي وفي نصوص مدينة مارى (تل الحريرى) ترد اشارات عديدة عن استخدام المصابيح كاشارات ضوئية ، خلال الليل وكذلك في طريق البريد والمراسلات والحراسة ..

انظر G. Dossin. “Signaux Lumineux au Pays de Mari” in:

RA. 35 (1938) P. 174-186.

كذلك انظر : Yos, 3. 190: 32.

(١٨) DAT. II P. 492.

هذه الادوات ، كما سبق ذكره هي مادة الزيت ، ويؤكد ذلك نص آخر من ماري (تل الحريري) من حدود القرن الثامن عشر ق • م والذي يذكر عن « تجهيز مادة الزيت للمصابيح الموجودة في غرفة الملك »(١٩) •

وفي نص اشوري يلاحظ استخدام المصابيح ذات الفتائل (Businnu) والتي كانت اجسامها تصنع من البرنز والحديد على حد سواء كما تشير بذلك بوضوح الكتابات المسمارية(٢٠) •

بنـاء المعابـد :

تتميز المدينة السومرية والرافدية بشكل عام عن غيرها من المستوطنات القروية باستخدام الطابوق مادة في البناء ومنذ فترة العبيد حيث انتشر استخدامه في البناء على نطاق واسع في اريدو واور والوركاء • لقد اعطى استخدام الطابوق في البناء بشكل عام في وادي الرافدين بعدا للمدينة وللتطور التقني فيها واعطى البعد الجديد في البناء مساحات وحجوما جديدة •

وفي اريدو بالذات وجد سبعةعشر معبدا مرتباً عموديا الواحد فوق الآخر ممثلة سبع عشرة طبقة سكنية في نفس الموقع • فباضافة الى أهمية البعد الديني الخاص بموضوع الديانة في جنوب وادي الرافدين ، فان ما يهمنا في الوقت الحاضر هو الجانب المعماري المتمثل في المعبد •

ان التشابه في مخططات كل هذه المعابد في الطبقات المتلاحقة يوحي بأستمرارية الفكرة الدينية والمعمارية التي ترتبط ارتباطا اساسيا بالمعبد •

---

(١٩) Ibid. P. 492.

(٢٠) C. H. W. Johns Assyrian Deeds, and Documents, Tome II P. 204 n' 964 rev. 15.

CAD. Vol. II. P. 348:
"businnu is possibly The name of the Plant mullein" whose leave, were used for making Candle and lamp Wicks".

يقرب الشكل العام للمعبد في اقدم طبقاته الى الشكل المربع • ويقسم الى ثلاثة قطاعات مقدسة • واقدم معبد من اريدو ، الذي يوازي دور العبيد الاول ، كان عبارة عن غرفة صغيرة مربعة الشكل تقريبا تتجه زواياها الى الجهات الاربعة الرئيسية(٢١) •

وجد اسفل هذا البناء البسيط اربعة جدران متوازية ربما كانت قاعدة أو بداية لما عرف فيما بعد بالمصطبة(٢٢) •

والمصطبة في الواقع ، مرتفعا اصطناعيا اتخذ كظاهرة معمارية بدأت في معابد اريدو ومنذ طبقاتها البنائية الاولى • وجرى تصميم هذا الاسلوب في مواقع عديدة في وادي الرافدين وخاصة في سومر • وفي الوركاء بالذات يلاحظ ثمانية من معابدها الرئيسية قد بنيت على مصاطب ، وتصل احيانا ارتفاعا الى تسعة امتار في الاصل • تلاحظ مثل هذه المصاطب ايضا في معبد العقير وفي تل براك في وادي الخابور •

ان الارتفاع بالمعبد الى علو مناسب كان تفاديا لاحتمالات الغرق أثناء الفيضانات كما لا يخفى ان في الارتفاع ايحاء بالسمو والقدسية(٢٣) •

ونجد فوق اسس هذا المعبد (السابع عشر) من اريدو في وادي

---

(٢١) فؤاد سفر : حفريات اريدو • مجلة سومر • مجلد ٤ ، ١٩٤٨ ص ٢٨٢ •

(٢٢) نفس المصدر ، ص ٢٨٢ ، كذلك انظر بحث السيد علي محمد مهدي « دور المعبد في المجتمع العراقي » من دور العبيد الى نهاية دور الوركاء ، وهو البحث الذي حاز فيه المؤلف على درجة ماجستير من قسم الاثار كلية الاداب وذلك عام ١٩٧٥ ، ص ٦٥ • كذلك انظر :

Parrot, A. Archéologie mésopotamienne. Vol. II. Technique et Problemes. Paris. 1953. P. 163 Fig. 43.

DAT. I. Paris. 1963. P. 68.

(٢٣) انتشرت هذه القاعدة المعمارية في مناطق حتى خارج وادي الرافدين وتعرف نماذج منها في ايران وحتى خلال الفترة الاخمينية •

الرافدين سلسلة من المعابد الواحد منها فوق الآخر ، اقدمها ما كان في الطبقة السفلى واحدثها الذي في العليا • ويتميز المعبد في الطبقة السادسة عشرة باضافات عثرت على بقاياها بعثة التنقيب العراقية برئاسة الاستاذ فؤاد سفر خلال تنقيباته ••• اذ وجد المدخل الى المعبد في الضلع الجنوبي الشرقي ، وفي الضلع المقابل (الشمالي الغربي) وجد تجويف طوله مترين ، سمي بخلوة المعبد أو ما يعرف بـ Cella حيث توجد في صدرها دكة مربعة الشكل هي دكة المذبح Alter ،وفي وسط المعبد دكة اخرى هي دكة القرابين[٢٤] •

هذه صورة مبسطة عن طبيعة التخطيط الاول لمعبدين (السادس والسابع عشر) من اريدو من بدايات الالف الرابع ق • م ، وتتبع نماذج المعابد من المراحل الاحدث في نفس الموقع ، توضح اتساعا في المساحة المتخذة للمعبد ، وفيه عدد من الغرف اتخذت كمخازن وغرف للكهنة وغيرهم من المقيمين في المعبد ، أما بالنسبة للوحدات الرئيسية في البناء فيظل الشكل المربع الذي تطور فيما بعد الى شكل مستطيل هو الشكل الخارجي التقليدي للمعبد • كما ويظل المدخل الى المعبد في الزاوية العريضة من الضلعين المستطيليين • وفي الداخل توجد الدكة والخلوة وهي المكان المعد لوضع تمثال الاله الرئيسي للمدينة • وتزداد الغرف المضافة الى مساحة المعبد وعلى جوانبه الاربعة اتساعا بازدياد اتساع المعبد ماديا ومعنويا • أما ما يعرف بالطلعات والدخلات التي كانت تمثل واجهة المعبد في البداية والتي تحيط احيانا بكل المعبد من الخارج فقد اصبحت سمة معمارية خاصة بالمعابد بشكل واضح ، وتفيد هذه الدخلات والطلعات في تقوية الجدار اضافة الى المظهر المتحرك شكلا لامتداد الجدار ومن الاضافات الاخرى هي المصطبة او الربوة وهي الارض التي ترتفع مع الدخول الى مدخل المعبد وتطورت فيما بعد ، الى سلم ذى درجات قليلة •

كما واضيفت الى واجهات المعابد من الخارج والداخل لطوش من الطين

---

(٢٤) فؤاد سفر : نفس المصدر • علي محمد مهدي • نفس المصدر ص ٦٦ •

المخلوط بالرماد ، اما من الخارج فقد استخدمت لطوش من الجص •

ان ابدع نموذج لتخطيط المعابد من المجموعة المكتشفة في اريدو يمثلها باعتقادنا المعبد السابع ، اذ تتوفر فيه كافة التفاصيل المنوه عنها سابقا •

(انظر الشكل رقم ١) •

لقد وجدت من نماذج المعابد السومرية الاولى بهذه الصورة والواقع المعماري المتميز وبشكل واضح في كل من مدن الوركاء واريدو وتل العقير ومواقع ديالى واشور وتبة كورة وماری[٢٥] •

ولا بد لنا ان نذكر هنا أهمية استخدام القير في البناء ابتداء من الالف الرابع ق • م ومن ثم انتشار استخدامه في الفترات اللاحقة وعلى نطاق اوسع كثيرا • والمعروف عن غنى اراضي وادي الرافدين بهذه المادة الهامة في البناء ، استخدم من قبل السومريين اولا لتلافي تصدع الابنية من الرطوبة ولاعطاء مزيد من التقوية للبناء • ولقد كا نالقير يستخدم بعد خلطه بعناصر

---

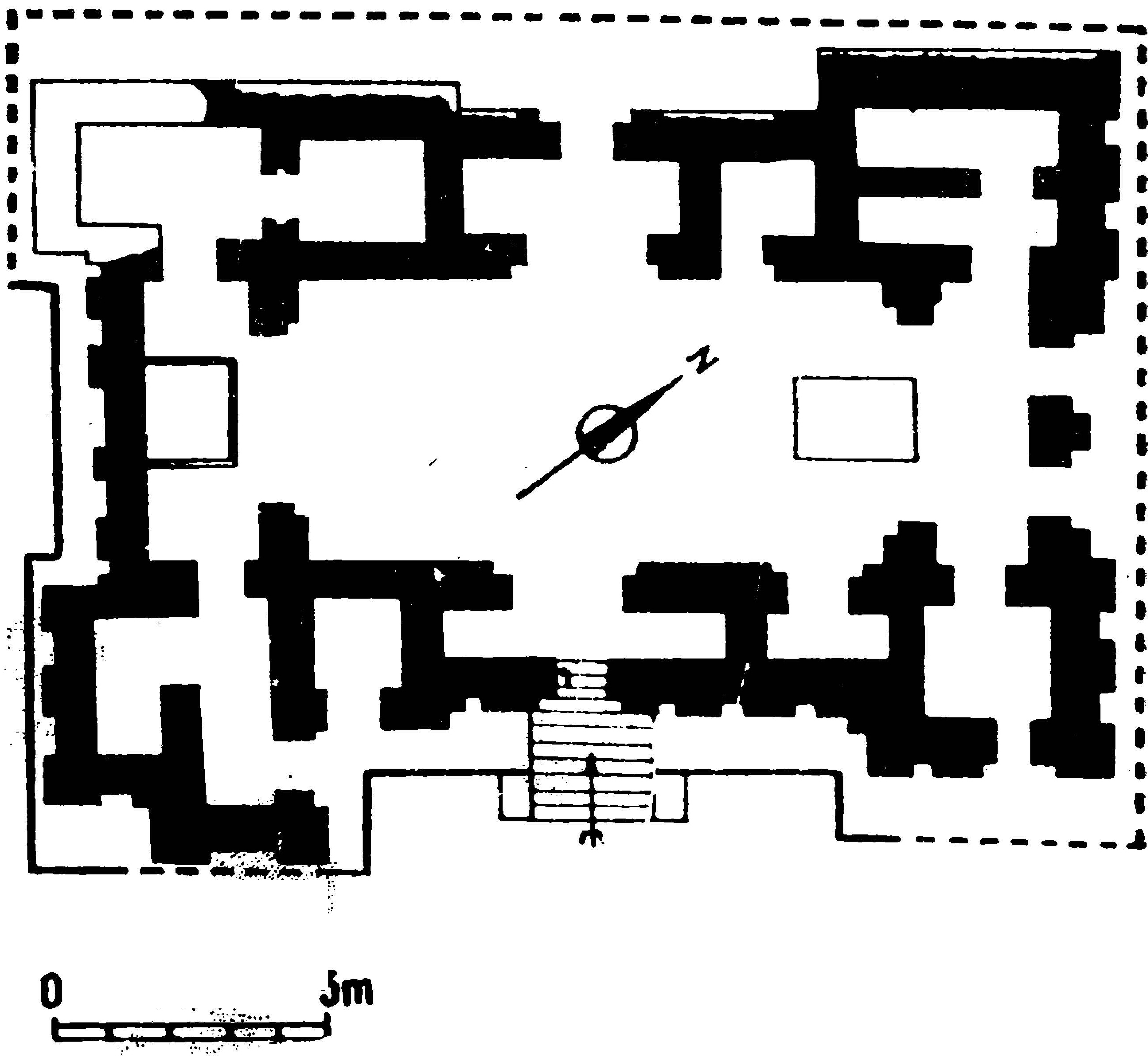
(٢٥) انظر حول تطور المعابد من عصر السومريين الاول وحتى عصر بابل القديم :

Lenzen, H. J. Mesopotamische Tempelanlagen Von der Früh-zeit Bis zum Zweiten Jahrtausand: in: ZA. 51 (1955) P. 36. ... :

Woolley. L. Antiquaries Journal. London. XI, n': 4 (1931) P. 343-381.

وحول مواضع تماثيل المعبودين في أماكنها الخاصة في المعابد بداية من العصر السومرى الاول وحتى بابل القديم • انظر :

Agnès Spycket: les Statues de Culte dans les textes Mésopotamiens des Origines A la ler. Dynastie de Babylone. Gabalda (1968) P. 9-10.



شكل رقم ــ ١ ــ

المعبد السابع في اريدو ويعرف عن جدرانه المطلية بالجص ، ويرتفع على مصطبة مشيدة من اللبن بارتفاع ١٥م وكان يرتقى الى مدخله بواسطة سلم من تسع درجات • ويعتبر هذا المعبد اقدم معبد متكامل معروف في جنوب العراق وضعت فيه قاعدة توجيه المعابد نحو الجهات الاربعة الرئيسية ايضا •

فؤاد سفر • حفريات اريدو • مجلة سومر • مجلد ٣ ، ١٩٤٧ ، ص ٣٢٩ •

كذلك انظر علي محمد مهدي • دور المعبد في المجتمع العراقي اطروحة ماجستير غير مطبوعة بعد • المسودة • ص ٦٩ •



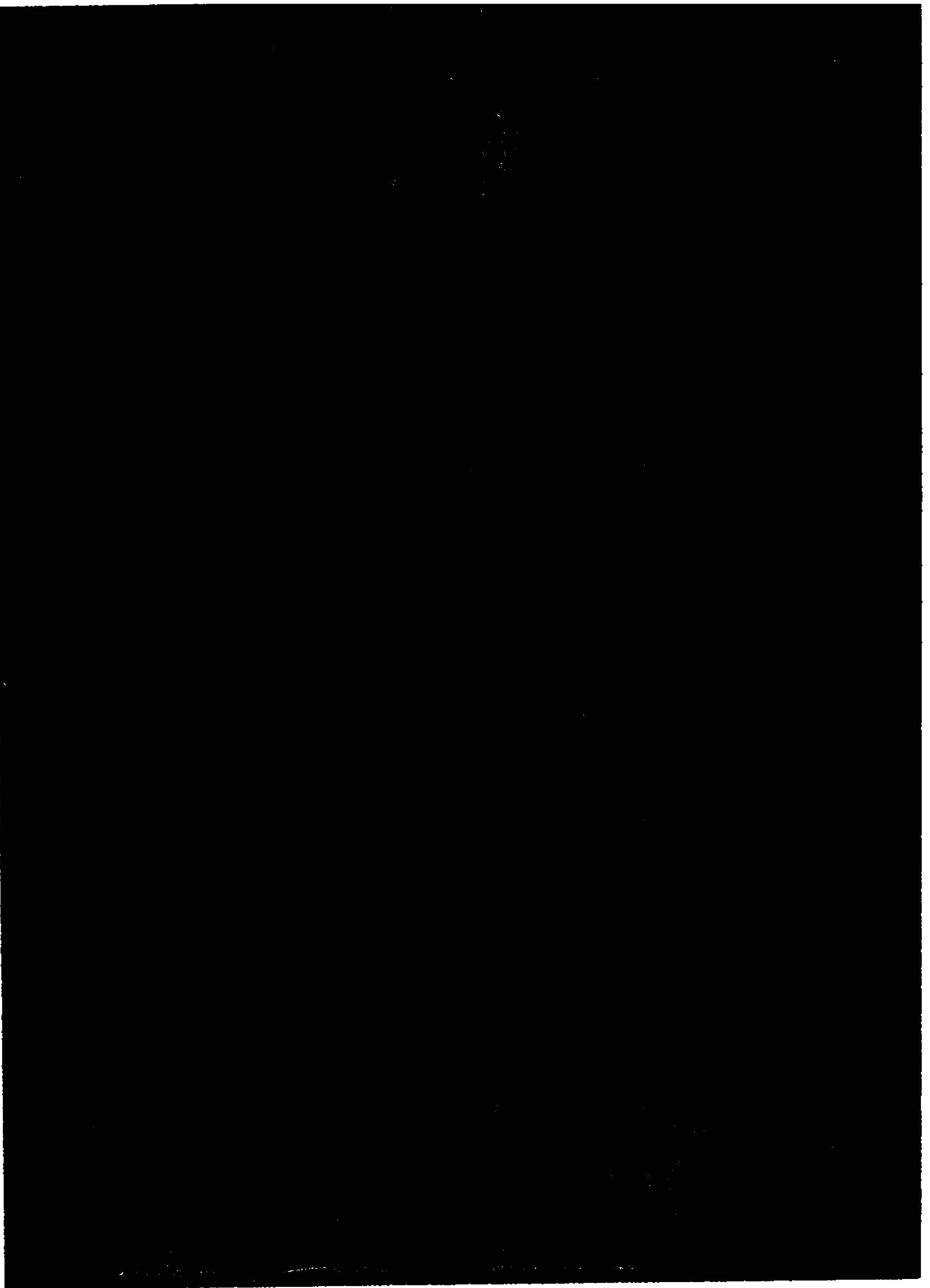
شكل رقم ـ ٢: ـ

يبدو ملك لكش اور نينا سابقا والذي يقــرأ الان اور نانشــة في جــزء من قطعة جدارية مستقلة منحوتا باسلوب النحتالبارز وهو يحملفوق رأسه قفة او سلة البناء ٠

الشكل من تلو ومصنوع من حجر الكلس محفوظة الان في متحفاللوفر بباريس منتصف النصف الاول من الالف الثالث (عصر فجر السلالات الثالث) ٠

الصورة من كتاب

A. Parrot. Sumer
Thames and Hudson. 1960 P. 130 Fig. n' 159.

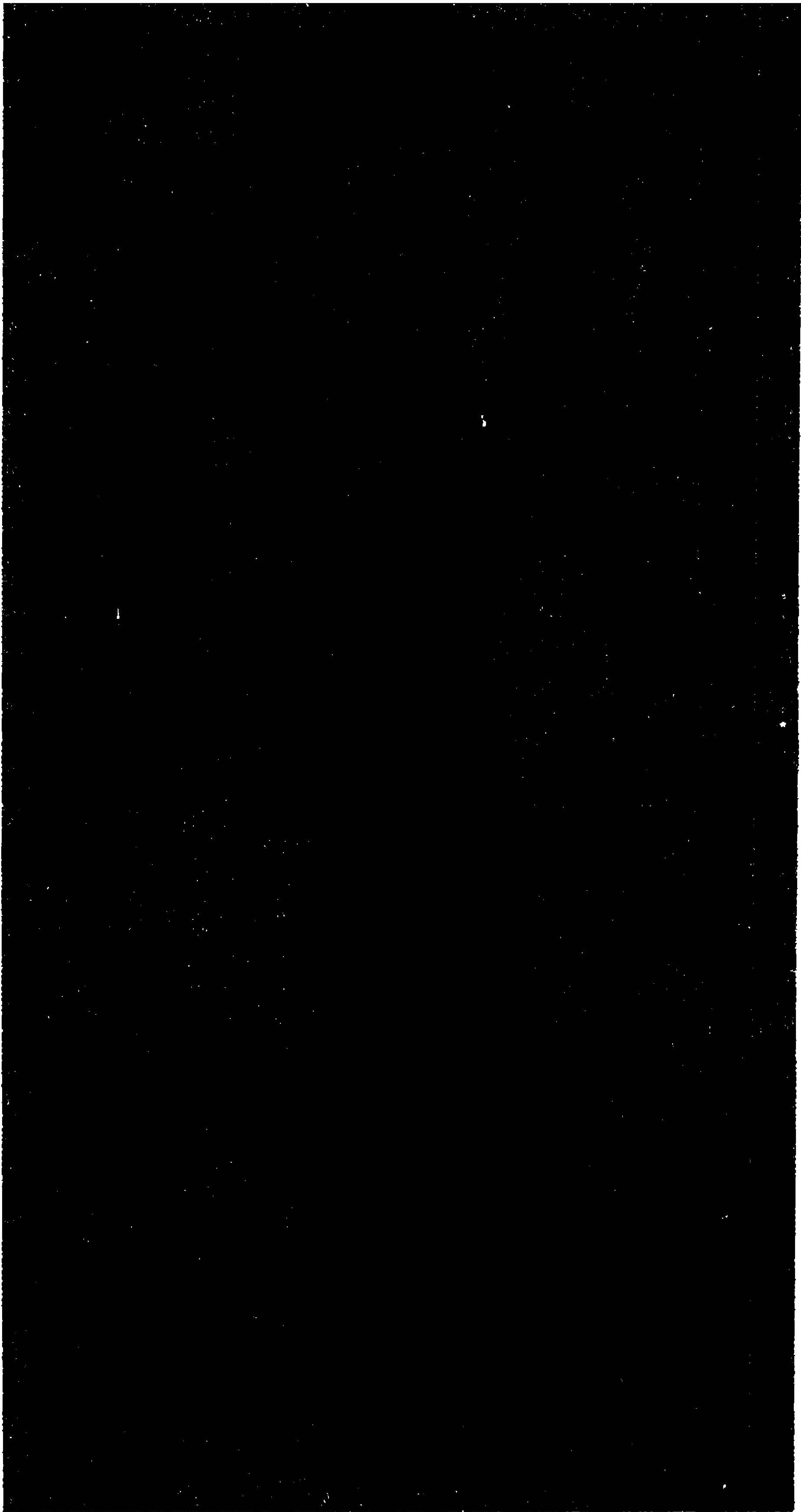


شكل رقم ـ ٢ب ـ

تعرف بمسلة اورنمو من القرن الثاني والعشرين ق٠م محفوظة في متحف جامعة بنسلفانيا في الولايات المتحدة الامريكية ٠

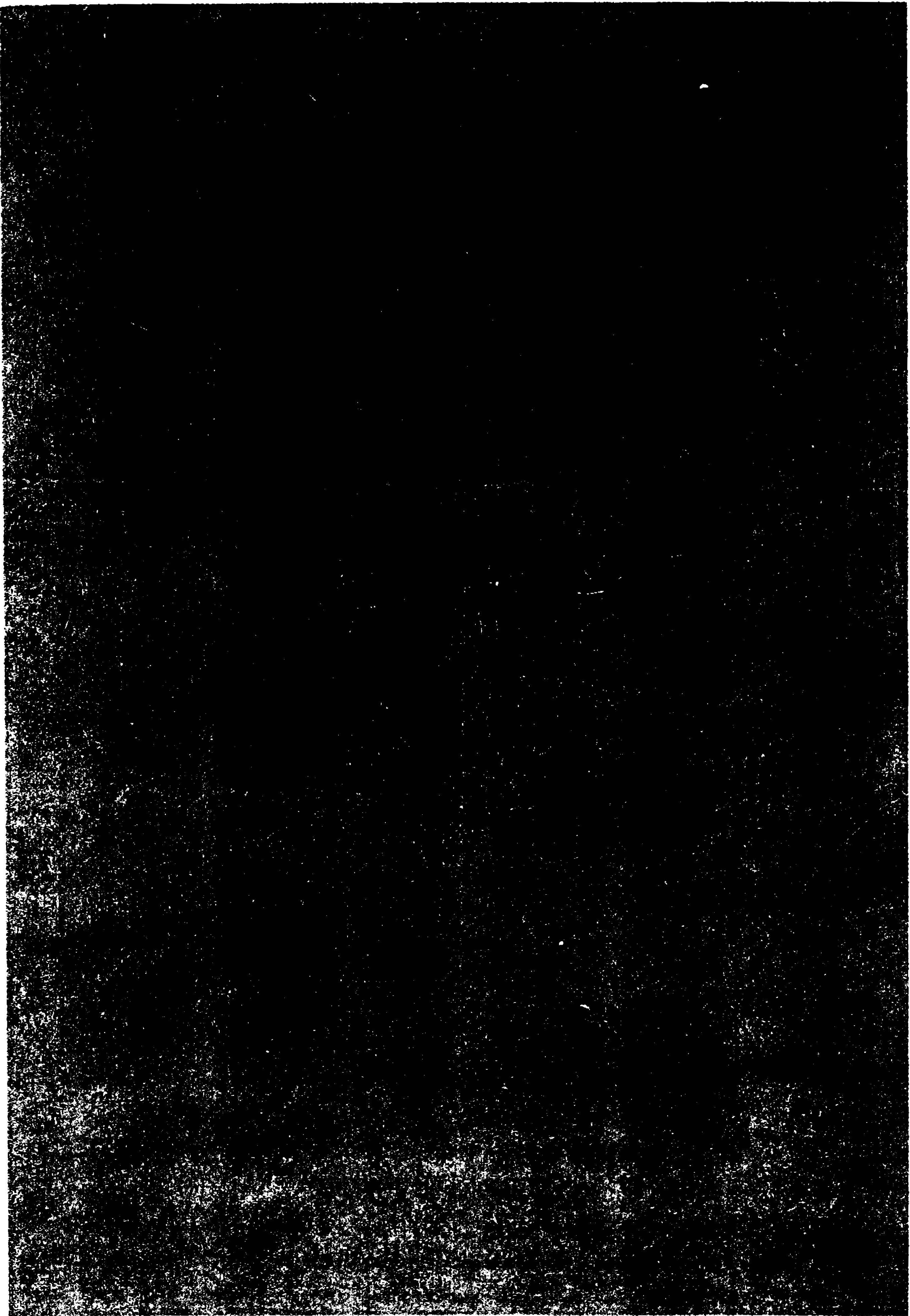
يبدو في هذا الجزء الملك اورنمو وهو يحمل على كتفه بعض العدد الخاصة بالبناء يساعده رمزيا شخص قد يكون من اتباع الكهنة والمعبد وهما خلف الاله الذي يبدو وكانه يرشد اورنمو الى مكان البناء ٠

الصورة من كتاب A. Parrot. Sumer. P. 229 Fig. 282.



شكل رقم ـ ٢ج ـ

واحد من نماذج الملك اورنمو الاخرى ويبدو وهو يحمل القفة الخاصة بالبناء والنموذج معمول من البرنز ومحفوظ في المتحف العراقي ببغداد • ومثل هذا النموذج لهذا الملك كان يوضع في اركان البناء الجديد الذي يشيده وكانه بمثابة نموذج من حجر الاساس المعروفة عندنا حتى اليوم •



شكل رقم ـ ٣ ـ

شكل رقم ٣

استنساخ مدينة نفر على رقيم طيني مؤرخ في حدود منتصف الالف الثاني ق ٠ م محفوظ الان ضمن مجموعة هلبرشت في مدينة يينا بالمانيا ٠

يتوضح من الخارطة تفصيل المدينة التي وجد انها رسمت وفق مقاييس مضبوطة وذلك من خلال التنقيبات ٠

اما الكتابة الموجودة على الخارطة فهي خليط من اللغــة السومرية والاكدية وتبدو التفاصيل التالية على الخارطة هذه :

١ ــ اسم المدينة « نفر » وقد كتبت بالعلامات الرمزية القديمة EN LIL - KI اى مدينة انليل ٠

٢ ــ الايكور وهو موضع اشهر معبد سومري وهو معبد اله المدينة ، انليل ، وتذكر مجموعة اخرى من المعابد٠ ورقم ٥ على نفس الخارطة تقع الحديقة المركزية للمدينة ٠ ويبدو نهر الفرات رقم ٧ في الجنوب الغربي من المدينة ٠ رقم ٩ هو موقع شط النيل المعروف اليوم وكان هذا النهر يجرى في وسط المدينة ويعني اسمه حرفيا « نهر قلب المدينة » Idsha uru كذلك يبدو سور المدينة وابوابها واهمها البوابة العظيمة ١٢ ٠

ثم اخيرا تبدو صورة الخندقين : ١٧ ، ١٨ الاول موازيا للسور الشمالي الغربي والاخر موازيا للسور الجنوبي الشرقي ٠

الشكل من كتاب
S. N. Kramer. The Sumerians. Chicago. 1963. 64....

كذلك ترجمة الاستاذ طه باقر لكتاب كريمر تحت عنوان من الــواح ســومر ص ٣٩٥ ــ ٤٠١ ٠

اخرى مثل الرمل والجبس والتبن المسحوق واحيانا مع الطين كما في نفر[٢٨] ، مما يكسبه صلابة قوية ساعدت على بقاءه متماسكا حتى اليوم •

وفي بداية عصر فجر السلالات (في الالف الثالث ق • م) أي خلال مرحلة اصبحت فيها المدن السومرية في وادي الرافدين وحدات مدنية مستقرة

---

(٢٦) Contenau, G. Manuel d' Archéologie Oriental. I. Fig. 320.

وعرف من نماذج هذه التخطيطات للمعابد ايضا خلال عصر اور الثالثة وخلال العصور اللاحقة في وادي الرافدين وبالذات خلال الفترة الاشورية والبابلية المتأخرة وخير مثال على ذلك معبد أى ـ ماخ في بابل •
ان تفاصيل بناء هذه المعابد نجدها حتى وهي مخططة احيانا على رقم الطين ومفصلة كتابة مثال ذلك ما يذكره الملك البابلي نبوناهيد من تفاصيل مهمة خاصة ببنائه لمعبد الاله القمر / سـن / في مدينة حران ، ويصف كيف انـه بذل الجهود الكبيرة في التفتيش عن اسس معبد هذا الاله الذي بناه اجداده ، وكيف انه يتوصل الى اكتشاف هذه الاسس بمساعدة المعمارين البابليين وخطط معهم بناء المعبد •
انظـر : King. L. w. A History of Babylon. Fig 20; P. 64.

(٢٧) Rutten, M. les Arts du Moyen - Orient ancien. Paris. 1962. Fig. 2 P. 35.

(٢٨) عرف استخدام القير منذ عصر حسونة في شمال وادى الرافدين ، أي من حدود الالف السادس ق • م ، وذلك في سبيل ربط بعض ادوات الزراعة المصنوعة من الحجر بقطع من الخشب او غيره ، انظر : JNES. IV (1945) P. 262.

انظر عن استعمال القير عند السومريين في مواقع عديدة في اريدو ، اور ، نفـــر •••

Speleers, L. Les arts de l'Asie Antérieure Ancienne. Paris. 1926 P. 30.

Hilprecht. Explorations... P. 372.

Bottéro, J. Dict. Archc. des Tech. Vol. I Paris. 1963. P. I 148-158.

وفي اللغة الاكدية نجد الفعل (napâtu) الذي يعني احرق او الهب قـد اشتق منه الاسم (naptu) أى النفط • وعرف البابليون والاشوريون بشكل خاص فيما بعد بتنوع استخدامهم لمشتقات القير والنفط •

ناتجة عن انتظام السلطات ومركزيتها وعن التوسع في اختصاصات العمل وتطور الاقتصاد ، مما اسهم في تطور معمارى واسع النطاق ، اذ شهدته معظم المدن السومرية وبشكل خاص مواقع السومريين في الوركاء ومواقع ديالى . ونتيجة لتزايد اهتمام السلطات المدنية والملوك بشكل اخص بالبناء كقطاع رئيسي في برنامج عملهم مما دفع السومريين الى تخليد انفسهم ورؤساءهم وهم في وضعيات يبدون فيها في خضم اعمال البناء : فنحن نجد مثلا الامير اورنانشة في نحتا بارزا (انظر الشكل ٢) وجد في لكش (تلو) وهو يحمل على رأسه سلة اللبن ، كما ويذكر گوديا بانه استلم من الاله ننكرسو مخططا خاصا ببناء معبد اي ننو (معبد الخمسين)[٢٩] .

ونجد تفاصيل بناء هذا المعبد مدونة وباللغة السومرية على اسطوانتين كبيرتين من الطين المشوى[٣٠] ، نقتبس منهما هذا المقطع :

« گوديا لأجل بناء معبد الـ اي ننو ، أخذ السلة (او القفة المقدسة) وقالب الطابوق المناسب ... ووضع الطين في القالب ، واتم الطقوس الضرورية ... كل شعوب العالم يسكبون معه الزيت والقطران ... لقد حمل الطابوقة الى المعبد ، وخططوا اسس اسسه ... كان مثله كمثل من يعيد بناء منزله الخاص ... فشيد باخلاص المعبد جاعلا اياه بين السماء والارض ... (نعم) لقد ارتفع گوديا بمعبد ننكرسو جاعلا اياه مثل الشمس وهي تخرج من بين السحب ، لقد ارتفع به مثل جبل مصنوع من اللازورد ، مثل جبل من الالباستر »[٣١] .

---

(٢٩) Cylinder. A. Col. I. 16. VII. 6.
Dict. Arch. des. Tech. I. P. 69.
De Sarzec. Découvertes en Chaldée. Pl. II. bis. Fig. I.

(٣٠) الاسطوانتين محفوظتين في متحف اللوفر بباريس .

(٣١) J. Nougayrol, J. M. Aynard. La Mésopotamie. Paris. 1965. P. 65.

ان خريطة البناء للمعبد او القصر ، كانت تعمل مسبقا وتتوفر لدينا مخططات لمعابد رسمت حسب مقياس نسبي على لوحات طينية . والجدير بالذكر ان السومريين اعتقدوا بان هذه المخططات قد وضعتها الالهة نفسها وانها الالهة اوصت بها الى القائمين بالبناء من حكام وكهنة عن طريق الاحلام .

ووجد على رقيم من الطين مخطط لبناء معبد انليل في مدينة نفر(٣٢) . نجد في المخطط اثار لقنوات وجدران وحفر واراضي ومخططات لبيوت سكنية ومخازن ومعبد وابواب ... (انظر الشكل رقم ٣) .

كان المعبد ، كما هو واضح ، مركزا دينيا ونقطة استقطاب رئيسية قبل ان يظهر القصر ومنصب الملك ... وهكذا فقد كان خلال معظم العصر السومري مركز الحياة المدنية ومنه تدار وتنظم العمليات التجارية والزراعية والحرفية ، وهو فوق كل ذلك المركز الرئيسي للمعرفة والثقافة . فلقد استلزم تنظيم الامور المدنية السابقة الذكر وجود حسابات منظمة والتي عثر على سجلاتها هيئة رقم الطين(٣٣) . ومنها وثائق تذكر مدخولات المعابد من الفوائد على الديون . ووثائق اخرى تجارية وقضائية .

---

(٣٢) يحتمل ان يكون مخطط هذا المعبد هو نسخة منقولة لمخطط معبد آخر من عصر الملك نرام ــ سن ، والمعروف ان اقتباس مخطط اقدم او اظهار مخطط لبناء يعود لعصر اقدم والبناء على اسسه كانت عادة معروفة جيدا لدى سكان وادي الرافدين وابرز مثال على ذلك ما وجدناه من عهد الملك نبوناهيد . انظر مخطط معبد نفر ايضا في :
King, History of Sumer & Akkad. P. 93.

(٣٣) لقد كانت هذه المعابد ومنذ بدايات نشوئها مراكز اقتصادية متكاملة فكانت تمتلك اضافة الى المزارع وما عليها من الزرائب والحيوانات ، مصانع تضم ورشات ومراكز انتاجية ، كذلك كانت هذه المعابد عبارة عن مراكز مارست تصدير مصنوعاتها بواسطة البر والنهر والبحر وغطت بعض المعابد بصادراتها المدن السومرية والمناطق الخارجية ، ويذكر بان معبد الآلهة باو كان يضم وحده ١٢٠٠ عامل ويمكن تخمين اعداد مقاربة استخدمها مسؤولو كل معبد من المعابد العشرين في مدينة لكش وحدها ، علما بان عدد نفوس لكش وحدها

لقد وجدت غرف خاصة في المعابد كانت تعتبر بمثابة الصفوف الدراسية لتعليم اللغة والكتابة وفيها كانت تنظم افكار المنتسبين وفق تعاليم وشؤون حياتية دينية ومدنية •

ويبدو واضحا من خلال الكتابات السومرية والاكدية فيما بعد ان هذه المعابد وتخطيطاتها وخدماتها المدنية والدينية استمرت دون انقطاع ودون تغييرات كبيرة في خلال الفترات اللاحقة ، ومن ذلك مخطط معبد الاله انليل في نفر الذي وجد مرسوما على رقم الطين وكما سبق ذكره ، ووجد ان تفاصيل البناء المذكورة في الرقم تشابه كليا ما تم اكتشافه من المعبد في نفر على يد بيتر وهاين (Peters and Haynes) (٣٤) •

لقد اكتشفت في نفر ضمن ملحقات معبد انليل هذا غرف الدراسة وتقع في الجهة الجنوبية الغربية من المعبد ، وتعتبر هذه اقدم غرف الدراسة المكتشفة لحد الآن في وادي الرافدين(٣٥) • ولقد اظهرت بعثة التنقيب اكثر من ٤٠ غرفة وجدت فيها مجموعات من رقم الطين وعليها تمارين للمتعلمين • كما وجدت فيها تمارين خاصة بالكتابة واللغة والحساب وقوائم تحوي اسماء الالهة وحتى وجدت تخطيطات وحزورات(٣٦) •

كان يبلغ في عهد اوركاجينا بـ ٣٦٠٠٠ (ستة وثلاثون الف نسمة) •
انظر : Falkenstein, A. ibid. (CHM. 1954) P. 790-792.

كذلك انظر : مجلة الاقلام العراقية • العدد السادس ، السنة الثامنة ، ١٩٧٢ ص ٧٦ – ٧٧ •

(٣٤) Peters. Harper, Haynes, Hilprecht. Univ. Pens. 1889-1900. King. Hist. of Sumer P. 87-88. Hilprecht. Expl. in Bible- P. 470.

(٣٥) انظر : Hilprecht. ibid. P. 523.

(٣٦) Speleers. Notice Sur Insc. de L'Asie Anter. Mus. Roy. du Cinquantenaire a Bruxelles. 1923 P. 64.

اما الزقورة فهي جزء مكمل للمعبد وقد عرفها السومريون اولا وعنهم اخذها فيما بعد البابليون والكاشيون والاشوريون • وتعرف في وادي الرافدين حتى الآن حوالي ثلاثون زقورة اكتشفت في امهات المدن العراقية القديمة ، ففي الجنوب هناك زقورة اور واريدو والعبيد ولكش وانوركاء وكيش ونفر ••• اضافة الى زقورة بورسيبا وسيبار وماري وزقورات مدن اشور ونمرود وخرسباد •

لقد قدمت اجتهادات عديدة لتفسير الغرض من بناء مثل هذه الزقورات التي هي وكما معروف بناء صلد من اللبن المغلف من الخارج بالطابوق المختوم باسم الاله الرئيسي للمدينة •

لقد قيل فيها اول الامر انها ربما تكون قبورا للملوك أو الهة ، أو أنهـا رموزا لاشكال كونية ، ورأى المنقب الفرنسي بارو (A. Parrot) **انها ظاهرة** معمارية بنيت من قبل اناس ارادوا ان يرتفعوا فوق مستوى الارض • ورأى آخرون انها مكانا اقرب الى عبادة الالهة ، وانها الطريق المهيب الذي تسلكه الالهة للوصول الى الارض •

ان هذا التخطيط المعمارى الجديد في وادي الرافدين ، الذي ظهر في منطقة سومر اولا ، من الممكن ان يرجع لمجموعة من الاسباب وليس نسبب واحد ، فهذا الارتفاع بالبناء وسط طبيعة مستوية كليا تقريبا يعطي الالهة صفة السمو والرفعة ، وهذه ترجمة لمركز الالهة في السماء علما بان كثيرا من اسماء الزقورات هذه مشتقة من زقر ـ زقارو والتي من معانيهـا العديدة العلو والارتفاع • والمعروف ان اول ظهور للزقورة في تاريخ العراق المعمارى كان منذ عصر الوركاء أي منذ تمركز مفهوم المدنية والمدينة بشكل واضح ومتكامل تقريبا •

مواضع المدن عند العرب في صدر الاسلام

الدكتور طاهر مظفر العميد
كلية الاداب ـ جامعة بغداد

وجد الخليفة عمر بن الخطاب (رض) ان الجيوش الاسلامية المرسلة الى العراق ومصر وهي توغل في الفتوحات وتحرير الاراضي العربية ، بحاجة الى مراكز عسكرية ستراتيجية ، تتجمع فيها ، وتثب فيها الى مناطق ابعد واراضي اوسع ، فأمر قادة جيوشه في العراق ومصر تأسيس المدن الاسلامية الثلاث البصرة والكوفة والفسطاط .

ولما كانت هذه المدن هي المدن الكبرى المبكرة الاولى التي مصرها المسلمون ، فأن لها مكانة خاصة لدى علماء الأثار والمتخصصين بالعمارة وتخطيط المدن بالاضافة الى مدينة القيروان التي بنيت في منتصف القرن الهجري الاول .

وبناء على هذه المكانة التي تحظى بها هذه المدن ، فأن غرض هذا البحث الوصول الى الحقائق التأريخية الثابتة ، مجردة من التعصب ، بعيدة عن الهوى ، سبيله الاعتماد على النصوص التأريخية المتوفرة ، وعلى نتائج التنقيبات الاثرية .

نستهل البحث في التعرف على افكار علماء الآثار الغربيين المختصين في الآثار ، بالتراث العماري والخططي للعرب في الفترة التي سبقت الاسلام .

كتبت عالمة الآثار البريطانية السيدة « جروترودبل » : « كان الغزاة المحمديون مجرد بدو رحل ، سكنهم السوداء ، وقبرهم رمال الصحراء ، وكان سكان الواحات النادرة في وسط البلاد العربية مثل ماهم عليه اليوم ،

ويقنعون بنوع قبيح من العمارة من اللبن وجذوع النخل ، لا يزينه أي نقش معتقد من وحي الخيال ، ولا يصلح الا لابسط الحاجات »(١) .

ويقول الأب لافانس : « يبدو ان أغنى اصحاب الاموال من قريش ، وعلى الاقل في الفترة السابقة على الاسلام ، كانوا يعيشون في مساكن فقيرة، ويتحدث الشعراء البدويون عن اتساع وارتفاع قدور اصحاب المكين ، ولكن لا يجد المرء قط من يذكر ترف مساكنهم ولا حتى مهابة منظرهم ، ولا ينطقون أبدا كلمة قصر ، ولم تكن بمكة عمارة ، ولما كان الامر يحتاج بين حين وآخر الى تجديد عمار المبنى الصغير للكعبة ، فأن الاهالي كانوا يضطرون الى الالتجاء الى عمال اجانب »(٢) .

وكتب ريتشموند بأن : « مدى الامكانيات المعمارية الاسلامية قبل قيام العرب بفتوحاتهم كانت لا تكاد تكفي الا لتعبر عن حاجاتهم بطريقة غشيمة الى اقصى درجة »(٣) .

وكتب البروفسور كريزويل ، عالم الآثار البريطاني المتخصص في العمارة الاسلامية : « ولم يكن البدوي الاصيل ليتقبل راضيا ان ينام بين اربعة جدران ويعلو سقف فوق رأسه اذ يشعر كما ولو كان قد وقع في فخ ، ويسكن القول ، بأن البدوي منهم كان يعاني من رعب متأصل موروث

---

(١) Bell, Palace and Mosque at Ukhaidir, Oxford, 1914, P. VII; Creswell, Early Muslim Architecture, Vol. 1. P. 7.

اورد هذه الفقرة الدكتور فريد شافعي في مؤلفه الموسوم « العمارة العربية في مصر لاسلامية صفحة ٣٩ ·

(٢) Lammense, Taif a, la Veille de l' hegire Mélanges. de la université st. Joseph, Beyrouth, VIII, P. 183; Creswell, Early Muslim Architecture, Vol. 1. PP. 40-41.

(٣) Richmond; Moslem Architecture, P. 9.

من الاماكن المقفلة ، فمن الواضح اذن ان بلاد العرب كانت تحتوي على فراغ معماري يكاد يكون تاما »(٤).

والواقع فأننا لا نستطيع ان نحكم على ما كتبه هؤلاء العلماء ما لم نسترشد بالبحوث والنتائج التي اشار اليها الكتاب الذين عنوا عناية عظيمة، في القرنين الماضي والحاضر ، بالأثار العربية في مناطق عاش فيها العرب وتركوا آثارا من حضاراتهم .

واذا ما عرجنا الى الجزيرة العربية ، نرى ان العرب أقاموا فيها قبل الاسلام مدنا كثيرة لازالت آثار بعضها ماثلة الى يومنا هذا ، غير ان القسم الاكبر منها قد اندثر ، وعفى عليه الزمن ، ولم يبق منها سوى بعض الاشارات والاخبار متناثرة في المراجع العربية وفي دواوين الشعر .

وقد جمع الدكتور ناجي معروف اسماء كثيرة لهذه المدن التي شيدت قبل الاسلام وبعده في اقاليم مختلفة من الجزيرة العربية ، وردت اسماؤها في الكتب والمؤلفات التي تبحث في « البلدان » و « المعاجم » و « والتاريخ ».

ففي الفترة التي سبقت الاسلام ، اقام العرب مدنا في الحجاز منها مكة المكرمة ، يثرب ، الطائف ، وادى القُرى ، ينبع ، الجُحفة ، جبلة ، تيماء ، مدين ، تبوك ، الحجرْ جده ودّان ، فَيْد ، الأبواء ، آمج ، بزواء ، دُوْمَة الجندل ، الديدان ، السقيا ، صفينة ، منِى ، المجاز ، مَجَنّة ، قرح خيبر ، حصن العشيرة ، العيص ، نطاة ، البحار ، حباشة ، الحديثة ، القاحلة ، القرعاء ، قرن ، الجار .

وشيدوا في اليمن مدنا نذكر منها ، صنعاء ، ظفار ، ضروان ، ميرباط ،

---

(٤) Creswell, Early Muslim Architecture, Vol. 1, PP. 40-41.

هذه المقتطفات اوردها الدكتور فريد شافعي في كتابه « العمارة العربية في مصر الاسلامية » صفحات ٣٩ ـ ٤٠

نجران ، جُرش جديله ، تبالة ، بينون ، عدن ، صحار ، جون ، جيش ، سبأ ، ناعط الكسر ، إب ، ذو أشرف ، بِرْك ، الغماد ، الحيق ، الحضور .

وفي اليمامة شيدوا : اليمامة ، حِجر ، صعفوق ، الوشم ، القرية ، مرآة ، إباض ، أحسن ، أكمة ، بلاد ، نطاع ، الجدار ، الحاتمية ، حائل ، قرقرى ، الباقرة ، الحديقة الثقب ، الهدّار ، منفوحة .

و في البحرين أقاموا : هَجَر ، القطيف ، الاحساء ، المشَقَرْ ، حوارين(٥) .

واذا اردنا التعرف على نشاط العرب في مجال بناء المدن ففي وسعنا ان نستعين بنتائج الرحلات العلمية التي قام بها بعض العلماء في حوالي منتصف القرن التاسع عشر الميلادي وما بعده ، اذ كان لهذه النتائج بعض الفضل في إماطة اللثام عن اوجه الحضارة العربية في اليمن ، فأصبح معروفا لكل متخصص في الدراسات الشرقية ، بعد ان تيسر للعلماء نتائج بحوثهم ، ان الجزيرة العربية قد شهدت في اطرافها الجنوبية الغربية حضارة رائعة لا يمكن بأي حال من الاحوال انكارها والتغافل عنها .

ففي عام ١٨٤٣ جمع الصيدلي الفرنسي آرنو Arnaud (٦) ،

---

(٥) المدن التي ذكرت اعلاه في المتن وردت في الملاحق الاولى والثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة في كتاب عروبة المدن الاسلامية ، للدكتور ناجي معروف ، الصفحات ٤٣ ـ ٧٦ .

(٦) كان جوزيف توماس آرنو Joseph Thomas Arnaud شاب صيدلي في خدمة حاكم تركي اوفدته حكومته الفرنسية في خدمة علمية خاصة الى اليمن زار خلالها مأرب في عام ١٨٤٣ وفي طريقه اليها زار خرائب مدينة صرواح وزار سد مأرب ونقل كثيرا من النقوش السبأية التي رآها ، فكانت اولى نقوش هامة تصل الى ايدي العلماء ، فقد نشر هذه النقوش ومذكرات آرنو القنصل الفرنسي في جدة المدعو فرسنيل Fresnel في عام ١٨٤٥ .

نقوشا عديدة في سبأ ، وقام بعمل رسم تخطيطي لمدينة مأرب القديمة وذكر انها كانت مستديرة الشكل وان بها ثمانية أبواب(٧) .

وفي عام ١٨٦٩ إرتأت اكاديمية الفنون الجميلة في باريس
Académie Inscription at Belles Lettres
ارسال جوزيف هالفي J. Halvey الفرنسي في بعثة الى بلاد اليمن لجمع بعض النقوش اليمنية لكتاب عزمت الاكاديمية اخراجه بعد اهتمام فرنسا بالابحاث العربية الجنوبية ويدعي هذا الكتاب
. Corpus Inscription um Semiticarum

وقد وصل هالفي الى اليمن عن طريق القدس ، وانتقل في جهات اليمن ثم عاد الى بلاده ونشر مؤلفه عام ١٨٧٢ الذي يتضمن مشاهداته لأثار اليمن بالاضافة الى النقوش .

وفي عام ١٨٨٢ قام كلازر Glazer بأربع رحلات فيما بين سني ١٨٨٢ - ١٨٩٢ زار فيها سبأ وظفار وجهات اخرى في داخلية اليمن ، ولم ينشر وصفه الكامل لرحلته الثالثة في عام ١٨٨٨ وهي التي تمكن فيها من الوصول الى مأرب ، وانما قام بنشره بعد وفاته في مايو سنة ١٩٠٨ كل من موللر ورودو كاناكيس تحت عنوان Eduard Glazers Reise nach Marib.

وفي النصف الاول من هذا القرن قام لفيف من الخبراء والعلماء العرب برحلات الى اليمن ، استفدنا كثيرا من ابحاثهم التي كشفت للعالم الكثير من معالم حضارة اليمن المجهولة .

ففي عام ١٩٣٦ زار اليمن نزيه مؤيد العظم ، واصدر عقب زيارته كتابا سماه « رحلة في بلاد العرب السعيدة » في جزئين(٨) كما قامت في عام ١٩٣٦

---

(٧) Journal Asiatique. Série, VII, Vol. 11.

(٨) طبع في القاهرة عام ١٩٣٨

بعثة الجامعة المصرية بزيارة اليمن برئاسة الدكتور سليمان حزين ، كانت مهمتها دراسة المنطقة من نواحيها الجغرافية والزراعية والجيولوجية[٩] .

وفي عامي ١٩٤٤ و ١٩٤٥ اوفدت جامعة فؤاد الاول آنذاك الاستاذ محمد توفيق الى اليمن[١٠] ، وقد تسنى له زيارة منطقة الجوف في هاتين السنتين ، وقال عن رحلته تلك : « وتمكنت من دراسة سطح هذه المنطقة وخرائبها دراسة جديدة ومستفيضة الى حد ما ، واستعنت على استكمال هذه الدراسة بالصور الفوتوغرافية التي تظهر لاول مرة عن الجوف وما فيه من آثار ونقوش وزخارف الى غير ذلك »[١١] .

وفي عام ١٩٤٧ قام الدكتور احمد فخري برحلة الى اليمن زار خلالها مناطق صرواح وجميع مراكز الحضارة المعينية في الجوف وسبأ ، وقد نشر نتائج زيارته هذه في بضع مقالات علمية ثم جمعها في كتاب اسماه
An Archaeological Journey to Yemen [١٢]

ومع هذا فأن الرحلات المتعددة الى اليمن لم تفدنا كثيرا في التعرف على تخطيط المدن لدى عرب اليمن آنذاك بصورة تفصيلية ودقيقة اذ المعروف ان غرض الرحلات السابقة التي قام بها المستشرقون في القرن الماضي كان من اجل الحصول على اكبر عدد ممكن من النقوش العربية الجنوبية ، دون الاهتمام

---

(٩) وقد نشر الدكتور سليمان حزين بعض ملاحظاته في مجلة
Nature, Vol. CXI, P. 513. 1937.

(١٠) كان الغرض من هذا الايفاد هو لدراسة الجراد الرحال والكشف عن مناطق توالده وتكاثره وقد ساهمت جامعة فؤاد الاول انذاك مع المركز العام لابحاث مقاومة الجراد بلندن .

(١١) آثار معين ، محمد توفيق ، صفحة ٢ .

(١٢) يقع هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء اقتصر ثانيهما على النقوش التي فحصها وقد طبع بالقاهرة عام ١٩٥٢ .

كثيرا بالعمائر وخطط المدن الا ما يأتي عرضا في وصفهم لما يشاهدونه في طريق تجوالهم .

وتفيدنا الصور الفوتوغرافية التي ارفقها الاستاذ محمد توفيق ضمن بحثه عن آثار معين في التعريف على عظمة العمائر التي تمثلها الآثار والاطلال والاوابد الباقية كما تشير هذه الاطلال الى ان مدينة معين (كانت مدينة مسورة بسور عال عظيم تهدم اكثره ، ولم يبق منه الا ارتفاع جزء بسيط منه عند الباب الغربي وهو نحو مترين ونصف متر ، وجزء آخر عند الباب الشرقي وهذا باقٍ على حاله الاصلي ويبلغ ارتفاعه نحو خمسة عشر مترا ولا تزال ترى به فتحات المزاغل لتصويب السهام والمراقبة »[١٣] .

واذا استعنا بما اورده المؤرخون والرحالة والجغرافيون المسلمون في وصف بعض المدن العربية نلاحظ ان الجغرافي ياقوت الحموي يشير الى مدينة صنعاء بقوله : «وليس بجميع اليمن اكبر ولا اكبر مرافق واهلاً من صنعاء»[١٤] . وقال عنها ايضاً بأنه كانت لها « تسعة أبواب ولا يدخلها غريب الا بأذن »[١٥] ووصفها الهمداني بأنها « احدى جنان الارض عند كافة الناس »[١٦] .

واذا ما عرجنا شمال الجزيرة العربية ، فهناك الحجر التي تقع الى الجنوب من دومة الجندل ، وهي كما يقول ياقوت الحموي تقع بوادي القرى بين المدينة والشام[١٧] .

وفي العراق نشاهد مدينة الحضر التي تنسب آخر الابحاث الاثرية بناءها الى

---

(١٣) محمد توفيق ، آثار معين ، صفحات ٤ ــ ٥ .

(١٤) ياقوت ، معجم البلدان ، الجزء الثالث صفحة ٤٢١

(١٥) نفس المصدر ، صفحة ٤٢٢ .

(١٦) الاكليل ، صفحة ١٩ .

(١٧) ياقوت ، معجم البلدان ، الجزء الثاني ، صفحة ٢٠٨ .

القبائل العربية التي عاشت في الجزيرة بشمال العراق (١٨) •وتعتبر هذه المدينة بحق نموجاً لفن العمارة العسكرية ، وعرفت كمركز هام خلال القسم الاول من القرن الثاني الميلادي • وقد قاومت حملات الامبراطور تراجان سنة ١١٦ م والامبراطور سيفروس عام ١٩٨ م ، وكان يحيط المدينة اسوار قوية منيعة تضم داخلها معبد الشمس الذي كشف عنه اخيرا ، وقد حطمت الحضر عــام ٣٦٣ للميلاد عندما قضى عليها الرومان ، ويمكن القول ان ازهى عصورها ينحصر بين سني ١٠٠ ـ ٣٠٠ (١٩)

وقبل ان ندخل في تفاصيل تراث العرب الخططي والمعمـــاري في العصر الاسلامي ، نرى من الواجب مناقشـــة الاراء التـــي بسطها علماء الآثـــار والمستشرقين الغربيين عن عمارة العرب في الفترة السابقة للاسلام حتى تتوضح الصورة أمام أعيننا ، وتكتمل ملامحها قبل ان نسير الى مناقشة المرحلة التالية لهذه الفترة •

ولا بأس ان نســتعين في مناقشـــة آراء الســيدة بـل والاب لامانس والبروفسور كريزويل بنصوص تأريخية موثوقة ، وفقرات كتبها متخصص في الهندسة المعمارية والآثار •

فلقد كتبت السيدة بل بأن العرب « يقنعون بنوع قبيح من العمارة من اللبن وجذوع النخل » ذكرت ذلك اثناء حديثها عن قصر الاخيضر وقد اشرنا في صدر هذا البحث الى ذلك •••

والظاهر لنا من طريقة تناول اولئك العلماء لمناقشة عمارة العرب في شبه الجزيرة ان تعريف لفظ « العمارة » نفسه ليس واضحا في اذهانهم ، ذلك انه يكاد ينحصر مفهومها عندهم بأن العمارة ما هي الا تفاصيل وزخارف واناقـــة

---

(١٨) كان الحضريون يسمون بأسماء عربية ، وقائمة اسماء ملوكهم تشير الى ذلك ايضا ومن ملوكهم « عبد سميا » الذى كان يلقب ايضا برلمك العرب انظر كتاب الحضر ، فؤاد سفر ، صفحة ٣٢ •

(١٩) فؤاد سفر ، الحضر ، صفحات ٣٢ ـ ٣٤ •

البناء وعظمته ، وهو فهم خاطىء الى حد كبير • ذلك لان المسلم به ومن المتفق عليه في جميع الاوساط المعمارية العلمية في العالم كله بغير استثناء ان جوهر العمارة يتمثل اولا وقبل كل شيء في التخطيط العام للمبنى وفي توزيع وحداته الرئيسية التي يتكون منها ذلك التخطيط ، اما التفاصيل والعناصر والزخارف فهي بمثابة المظهر الخارجي الذي ينعكس عليه تفاوت درجات الاناقة والثراء ••• ويمكن تلخيص تعريف العمارة في ان العمارة هي نتيجة كل محاولة قام بها الانسان ، وهدف بها الى ان يوفر لنفسه في معيشته ثلاثة مطالب كلها او بعضها وهي : (أ) الراحة (ب) الا من (حـ) الجمال ، وسواء كانت نتيجة تلك المحاولات ناجحة او فاشلة ••• ويؤيد ان جميع المراجع التي وضعت عن تأريخ العمارة تبدأ دائما بعمارة عصور ما قبل التأريخ وعمارة الاقوام البدائية اذا ما كان لها مخلفات باقية [٢٠] •

ولعل انتقال الآب لامانس من مناقشة عمارة العرب وتخطيط مدنهم ، وتفاصيل البناء الى الخوض في مهابة منظر العرب التي يستهزأ بها ، فأن ذلك لا يرتقى الى البحث التأريخي والآثاري بشيء ، ويصبح نوعا من التهجم الذي لا نجد اي مبرر له سوى الحقد الاسود الذي يملأ صدر هذا المستشرق الحاقد على العرب • ولابأس ان نشير هنا الى فقرة تتعلق فيما كتب عن تجديد عمارة الكعبة ، وقد اشرنا اليها في صدر هذا البحث ، فقد كتب : « ولما كان الامر يحتاج بين حين وآخر الى تجديد عمار المبنى الصغير للكعبة فأن الاهالي كانوا يضطرون الى الالتجاء الى عمال اجانب »

ونظرا لاهمية ما يقول لامانس في جملته السابقة ، وخطورة ما بنى عليها هو وغيره من مستشرقين ، من احكام اثرية وتأريخية ، فاننا سوف نقف عند هذه النقطة قليلا ، مناقشين رأيه ، معتمدين على نفس المراجع التي اعتمد على رواية منها ، ثم نرى بعد ذلك ، أهمية افكاره وقوة حجمها •

---

(٢٠) فريد شافعي ، العمارة العربية في مصر الاسلامية ، الصفحات ٤٥ ــ ٤٦ •

اعتمد الآب لامانس في حكمه على رواية اوردها الازرقي التي تشير الى ورود اسم « باقوم » الرومي اثناء تجديد قريش للكعبة ، فأطلق لامانس حكمه بأستعانة العرب على جميع تجديد الكعبة بالاجانب .

تشير رواية الازرقي بأن الكعبة بنيت عشر مرات[٢١] ، فقد رفع سيدنا ابراهيم (عليه السلام) قواعد البيت الحرام مع ولده اسماعيل (عليه السلام) في فضاء من ارض مكة ليس فيه بناء غيره ، وقد بناها بالحجارة[٢٢] ، الا ان الكعبة المشرفة قد تصدعت بعد بناء ابراهيم (عليه السلام) ، فبنيت مجددا على يد قبيلة جرهم[٢٣] ، وقصي بن كلاب[٢٤] ، وعبد المطلب[٢٥] ، ثم بناء قريش لها .

وقد اورد المؤرخ الازرقي خبر بناء قبيلة قريش للكعبة في عدة روايات مفصلة[٢٦] ، نورد ملخصها فيما يلي : كانت الكعبة مبنية برضم يابس بدر ، وكان بابها بالارض ، ولم يكن لها سقف ، وكانت الكسور عليها ركاما بعضها فوق تدلى على الجدر من خارج وتربط من أعلى الجدر من داخلها ، وقد اجمرت

---

(٢١) الازرقي ، اخبار مكة وما جاء فيها من الاثار ، الجزء الاول ، صفحات ٣١ـ ٣٢ ـ ٣٦ ـ ٣٧ .

(٢٢) الازرقي ، اخبار مكة وما جاء فيها من الاثار ، الجزء الاول ، صفحات ٣١ ـ ٥٧ .

(٢٣) الازرقي ، اخبار مكة وما جاء فيها من الاثار ، الجزء الاول ، صفحة ٥٧ وما بعدها ، ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، الجزء الثاني ، صفحة ٢٧ ، الفاسي، شفاء الغرام ، صفحة ٩٢ ، المسعودي ، مروج الذهب ، الجزء الثاني ، صفحة ٢٣٢ .

(٢٤) المسعودي ، مروج الذهب ، الجزء الثاني ، صفحة ٢٧٨ ، الفاسي ، شفاء الغرام ، الجزء الاول ، صفحة ٩٤ .

(٢٥) الفاسي ، شفاء الغرام ، الجزء الاول ، صفحات ٩٦ ـ ٩٧ .

(٢٦) الازرقي ، اخبار مكة ، وما جاء فيها من الاثار ، الجزء الاول ، الصفحات ١٥٧ ـ ١٧٤ .

امراة من قريش الكعبة ، فطارت من مجمرتها شرارة فأحرقت كسوتها وتوهنت جدرانها من كل جانب وتصدعت ، وكانت تأتي مكة سيول عظيمة ، فجاء سيل عظيم والكعبة على ذلك الحال ، فدخل الكعبة وصدع جدرانها ، ففزعت قريش من ذلك فزعا شديدا ، وهابوا هدمها وخشوا ان يمسوها ، وبينما هم يتشاورون في أمر هدمها أقبلت سفينة للروم حتى اذا كانت بالشعيبة(٢٧) ، وهي يومئذ ساحل مكة قبل ميناء جدة فأنكسرت ، فسمعت بها قريش فركبوا اليها واشتروا خشبها ، واذنوا لاهلها ان يدخلوا مكة فيبيعون ما معهم من متاعهم على ان لا يشعروهم ، وكان في السفينة نجار رومي يسمى باقوم قدموا بهمكة مع من قدم من أصحابه ، فجمعوا الحجارة من الضواحي ، وقد نقل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الحجارة معهم قبل ان يبلغ بالرسالة ، ولما اجتمع لهم ما يريدون من الحجارة والخشب هدموا الكعبة حتى بلغوا الاساس الاول الذي رفع عليه ابراهيم واسماعيل (عليهما السلام) القواعد من البيت وكان ارتفاعها قبل ذلك تسعة أذرع فزادت قريش في ارتفاعها في السماء تسع اذرع اخر وبنوها من اعلاها الى اسفلها بمدماك من حجارة ومدماك من خشب ، وكان الخشب خمسة عشر مدماكاً ، والحجارة ستة عشر مدماكا ، وجعلوا ميزابها يسكب في الحجر ، وجعلوا درجة من خشب في بطنها في الركن الشامي يصعد منها الى ظهرها ، وبنوا سقفها مسطحا وجعلوا منه ست دعائم في صفين في كل صف ثلاثة دعائم ، وزوقوا سقفها وجدرانها من بطنها ودعائمها ، وجعلوا في دعائمها صور الانبياء ، وصور الشجر وصور الملائكة فكان فيها صورة ابراهيم وصورة عيسى عليهما السلام وصورة السيدة العذراء .

بناء على ما تقدم من روايات ، في وسعنا ان نستخلص رأيا من مجموعها

---

(٢٧) الشعيبة تقع جنوب مدينة جدة الحالية ع(الساحل الشرقي للبحر الاحمر وهي قريبة من الرأس الاسود ، وموقعها معروف حتى اليوم .

كما نوضحه في ادناه : ان الذي قام ببناء وتجديد الكعبة بعد بناء ابراهيم وولده اسماعيل (عليهما السلام) أقوام من العرب ، ولـم تشر المراجـع والمصادر الى اشتراك غيرهم من الاجانب في البناء ، وعند تصدعها آخر مرة نتيجة تعرضها للحريق والسيل معا ، صممت قريش ، وهي قبيلة عربية ، على بنائها وكان الذي يؤخرهم عن البناء هو عدم توفر الخشب في مكة آنذاك ، وعندما سمعوا بالسفينة التي تحطمت على الساحل على مقربة من جدة ، اسرعوا لشراء حطام تلك السفينة من اصحابها دون ان يعرفوا ان من ركابهـا بنائين او نجارين . وقد سمح القرشيون لركاب السفينة الدخول الى مكة لبيع مـا يحملون من أمتعة بعد ان تحطمت سفينتهم . وكان من ضمن الذين سـمح لهم بالدخول الرجل المدعو « باقوم » الذي ذكر الازرقي انـــه نجار . وفي رأينا ان القرشيين اشركوه معهم في نقل الحجارةوالبناء كعامل أجير لا غير[٢٨].

ولابد لنا من الاشارة هنا بأن الكعبة المشرفة والمسجد الحرام بمكـة قد حظيا بأهتمام الخلفاء والحكام والولاة والقادة المسلمين منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، الذي تنسب له المراجع التأريخية اجراء أول زيادة على المسجد الحرام وتوالت بعده الزيادات فيه على يـــد الخليفـة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) في عام ٢٦ للهجرة ، وزيادة عبدالله بـن الزبير في عام ٦٤ هـ . وعمارة الخليفة عبدالملك بن مروان ، وزيادة الخليفة الوليد بن عبدالملك ، وزيادة الخليفة ابو جعفر المنصور ، وزيادة الخليفـــة محمد المهدي الاولى والثانية ، وعمارة الخليفة المعتمد على اللـه العباسي ، وزيادة الخليفة المقتدر بالله ، وعمارة المماليك والعثمانيين ، وعمارة السلطان قايتباي ، وعمارة السلطان سليمان وعمارة السلطان سليم وعمارة السـلطان

(٢٨) انظر العددالرابع لسنة ١٩٧٣ من مجلة « الاقلام » التي تصدرهـــا وزارة الاعلام العراقية ، بحث للدكتور طاهر مظفر العميد بعنوان « الفن العربي الاسلامي بين الاصالة والاقتباس » .

مراد خان هذا وقد قامت المملكة العربية السعودية بأجراء العمارة الحديثة وتوسعة المسجد الحرام ، وقد اشرفت الاعمال فيه على الانتهاء [٢٩] •

رأينا مما سبق ، وبعد ان تأكد لنا من النصوص التاريخية والآثرية ، بأنه كان للعرب معرفة في العمارة وتخطيط المدن ، قبل الاسلام ، وانهم خلفوا العديد من المباني والمدن حفظ التأريخ لنا بعض اخبارها ، كما لا زالت بعض نماذج منها قائمة في الجزيرة العربية وفي العراق والشام • وبهذا فأن ما كتبه كل من السيدة جروترودبل والاب لامانس وريتشموند وكريزويل بعيد عن الواقع وعن مستلزمات البحث الاثري والتأريخي القويم، ويكون بالتالي ضربا من الحدس والتخمين •

وانْ بحثنا في تراث العرب المعماري والخططي في العصر الاسلامي ، فاننا نلاحظ استمرار مؤلفات هؤلاء العلماء الغربيين وغيرهم في الحط من حجم مساهمة المسلمين في هذا التراث ، وفي رأينا ، أن اغلب بحوث هؤلاء المستشرقين يغلب عليها طابع التحيز لغير العرب والمسلمين وانكار فضل العرب في المساهمة بأشادة صرح عمائرهم وتخطيط مدنهم ، وانها كانت تهدف الى تكوين فكرة منظمة تتسرب الى جميع العاملين في تاريخ الحضارة الانسانية ، ويتلقفها طلاب الدراسات الاثرية ، تستهدف سلب العرب في العصر السابق الى الاسلام من الاسهام في العمارة والبناء ، وانهم لا يعرفون هذا الضرب من الفن ، واستمرار جهلهم في هذا المجال في العصر الاسلامي ، وعلى هذا الاساس ، وحسب هذه النظرية فأن كل ما بناه العرب من عمارة وما خططوه من مدن اسلامية استعادوا على تنفيذها بغيرهم من مهندسين وفنانين ومزوقين أجانب •

---

(٢٩) مجلة كلية الاداب ـ جامعة بغداد ، العدد ١٤ لسنة ١٩٧١ البحث للدكتور طاهر مظفر العميد بعنوان « التوسعات القديمة والحديثة في عمارة المسجد الحرام » صفحات ٥٠٨ ـ ٥٤٩ •

ومع الاسف الكبير ، فان فكرة المستشرقين هذه قد تفشت لدى بعض المؤرخين وعلماء الآثار العرب والمسلمين الذين انيطت لهم مهمات آكاديمية وجامعية وتدريسية وتثقيفية ، في مختلف الجامعات العربية والاسلامية ، وتتلمذ على ايديهم العديد من طلاب الدراسات التأريخية ، والحضارية ، والاثرية ، وتبنوا آراء اساتذتهم ، وآساتذة آساتذتهم ، وهكذا فأن ابحاث المستشرقين الغربيين المتحيزة قد أدت مهمتها واوصلت ما كانت تبشر به •

وفي المقابل ، ظهرت طبقة من العلماء العرب ، لم يتأثروا بالآراء المتحيزة لاولئك المستشرقين ، فتصدوا لابحاثهم يناقشون اصولها وقيمتها العلمية ، معتمدين على تحليل الاصول المعمارية والفنية ، مستعينين على تلك المناقشات بالنصوص التأريخية والمقارنات الاثرية ، وقد توصلوا الى نتائج تغاير تماما ما كان قد توصل اليه اولئك المستشرقين[٣٠] •

وقد عقد الدكتور احمد فكري فصلاً كبيراً عن المآخذ على بحوث المستشرقين وكتب في هذا الصدد « وتسلطت على علماء الآثار المستشرقين نظرية تجريد العرب من كل فضل في عمارتهم وفنونهم »[٣١] • كما ضمن الدكتور فريد الشافعي في مؤلفه الموسوم « العمارة العربية في مصر الاسلامية » آراء وافكار قد تدحض نظريات المستشرقين وافكارهم[٣٢] •

ومن الامثلة التي تؤيد تحيز المستشرقين ، إفتراء كريزويل على

---

(٣٠) انظر كتاب « المدخل الى مساجد القاهرة ومدارسها للدكتور احمد فكري صفحة ١٠ » •

(٣١) الدكتور احمد فكري ، المدخل ، صفحة ١٠ •

(٣٢) كتاب ضخم صدر منه المجلد الاول برعاية الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر طبع بالقاهرة عام ١٩٧٠ •

المقريزي ، فقد ذكر المقريزي ان « ثلاثة اخوة قدموا من الرها [٣٣] بنائين بنوا باب زويلة وباب النصر وباب الفتوح »[٣٤] وعندما ترجم كريزويل هذا النص الى اللغة الانكليزية ليستخدمه في كتابه آضاف من عنده كلمة مسيحيين فاصبح النص لديه « ثلاثة إخوة مسيحيين ... »[٣٥] .

ومثل آخر لتحيز المستشرقين هو ما ادعاه الآب منريك Manrique من آباء الطائفة الاغسطينية ان باني ومخطط الاثر الاسلامي الضخم والمعروف بتاج محل[٣٦] ، هو المهندس جيرومينو فيرونيو Geromino Veroneo ، غير انه ليس هناك من الاسانيد ما يعزز هذا الرأي سواء في سجل الحوادث

---

(٣٣) الرها ــ قال عنها ياقوت في معجمه،الجزء الثاني،صفحة ٨٧٦ « بأنها مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام ويقول بأنها سميت بالرها نسبة الى الذي استحدثها وهو الرها بن البلندي . وقيل الرها بالرومية « آذاسا » بنت في السنة السادسة من موت الاسكندر ــ بناها الملك سلوقس . وتسمى الان « اورفا » وهو اسم تركي .

(٣٤) دخل جوهر قائد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله الفسطاط في ١٧ شعبان عام ٣٥٨هـ . وفي مساء هذا اليوم اختط جوهر اساس اسوار القاهرة وكانت في تلك الاسوار ثمانية ابواب منها باب النصر وباب الفتوح في الجهة الشمالية وباب زويلة في الجنوب . وقد مرت اسوار القاهرة هذه في ثلاث مراحل ــ الاولى التي شيدها جوهر والثانية حيث شيدها الوزير بدر الجمالي في عام ٤٨٠ هـ ــ ١٠٨٧ م . اما الثالثة فقد كانت على يد صلاح الدين الايوبي حيث انتدب في عام ٥٦٩ هـ ــ ١١٧٦م بهاء الدين قرقوش الاسدي لعمل السور فبناه بالحجارة كما هو عليه اليوم .

(٣٥) Creswell, Muslim Architecture of Egypt, Vol. 1. P. 162.

(٣٦) تاج محل ، وهو ضريح ، بناه في اكرا الملك الهندي المغولي المسلم «شاه جهان » ليضم رفات زوجته « ارجمند بانوبيكم » وكلمة تاج محل محرفة عن الاسم الذي كانت تحمله هذه الاميرة وهو « ممتاز محل » وهي ابنة آصف خان وقد تزوج منها شاه جهان سنة ١٦١٢م وعمرها تسعة عشر عاما وولدت منه اربعة عشر طفلا ثم توفيت عام ١٦٣١ على اثر الوضع فدفنت مؤقتا في برين آباد وحيث اقيم هذا الاثر نقل جثمانها اليه .

المحليـة او فيما دونه كـل من الرحالـة تافرنييه Tavernier وبورنيـه Bornier وتيفنـو Thevenot في الرحلات التي صنفوها(٣٧) .

هذه أمثلة قليلة وواضحة ، من أمثلة كثيرة احتوتها مؤلفات وبحـوث المستشرقين تؤكد تحيز اولئك العلماء(٣٨) .

والذي نراه ان الذي شجع اولئك المستشرقين على القول بأن العرب ، سواء في العصر الاسلامي او العصر الذي سبقه لم يكونوا ذوي دراية بفن العمارة وتخطيط المدن ، لم يطلعوا على فنون الهندسة والبناء ، هو انفراد اولئك المستشرقين في خلال القرنين التاسـع عشر والعشرين بالاهتمام في دراسـة الآثار والمخلفات والمنشآت العربية والاسلامية ، اذ المعروف أن جملة مـن الرحالة والباحثين الغربيين بدؤا يومئذ زيارة المواقع الاسلامية أمثال ماكس فان برشم Max V. Berchem وهرتسفيلد Herzfeld والسيدة بل Bell وسارة Sarre وكريزويل Creswell وموزيل Musil وماسـينيون Massignon . وتتيجة لتلك الزيارات والدراسات صنفوا مؤلفاتهم وكتبوا بحوثهم ، ثم ان جهل الكثيرين منهم بفنون اللغة العربية وبيانها وعـدم استطاعتهـم فهـم النصوص اللغويـة والدينية ، ادى بهم الى الوقوع في الاخطاء .

---

(٣٧) دائرة المعارف الاسلامية ،مادة « تاج محل » الجزء الرابع ، صفحة ٤٥٢ .

(٣٨) انظر مؤلفات وابحاث المستشرقين التالية للتعرف على تحيز اصحابها :

Bell - Ukhaider, PP. 145 - 147.

Creswell - Early Muslim Architecture, Vol. 1. P. 6.

Gotheil - The Origin and the history of the Minaret, Vol. 30, P. 133.

والذي شجع هؤلاء العلماء على انكار فضل العرب ، هو ماذكره ابن خلدون في مقدمته من ان « العرب ايضا اعرق في البدو وابعد عن الضائع » وان « المباني والمصانع في الملة الاسلامية قليلة بالنسبة الى قدرتها والى من كان قبلها من الدول »(٣٩) .

والراجح أن ابن خلدون كان يقصد بلفظة « العرب » البدو ، ولقد أخذ المستشرقون ظاهر هذه اللفظة ليثبتوا ان العرب كانوا ابعد الناس عن البناء والصناعة ، من غير ان ينتبهوا الى الاستعمال الخاص لها في تأريخ ابن خلدون(٤٠) . وسوف نعود الى مناقشة آراء ابن خلدون هذه في الصفحات التالية .

والظاهر ان هذه الاسباب وتلك التي اشرت اليها ، ساعدت بل شجعت بعض الباحثين والمستشرقين ان يؤكدوا بان الاقاليم العربية في الجاهلية والاسلام كانت تفتقر الى فن البناء والعمارة وتخطيط المدن .

واذ اعدنا الى مناقشة ابن خلدون فيما كتبه في مقدمته حيث يقول في الفصل الذي عقده « في أن المباني التي كانت تختطها العرب يسرع اليها الخراب الا في الاقل » ويعلل سبب ذلك بقوله : « والسبب في ذلك شأن البداوة والبعد عن الضائع كما قدمناه فلا تكون المباني وثيقة في تشييدها وله ـ والله أعلم ـ وجه آخر وهو أمس به ، وذلك لقلة مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدن كما قلناه في المكان وطيب المياه والمزارع والمراعي فأنه بالتفاوت في هذه تتفاوت جودة المصر ورواءته من حيث العمران الطبيعي ، والعرب بمعزل عن هذا وانما يراعون مراعي إبلهم خاصة ولا يبالون بالماء طاب اوخبث ، ولاقل اوكثر ، ولا يسألون عن زكاء المزارع والمنابت

---

(٣٩) مقدمة ابن خلدون ، المجلد الاول ، الفصل الثامن ، صفحة ٦٤٥ .

(٤٠) ساطع الحصري ، دراسات عن مقدمة ابن خلدون ، الصفحات ١٥١ـ١٦٨ .

والاهوية بأنتقالهم في الارض ونقلهم الحبوب من البلد البعيد . فأما الرياح فالقفر مختلف للمهاب كلها . والظعن كفيل لهم بطيبها لان الرياح انما تنبت مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات . وانظر لما إختطفوا الكوفة والبصرة والقيروان ، كيف لم يراعوا في إختطاطها الا مراعي ابلهم ، وما يقرب من القفر ومسالك الظعن ، فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعي للمدن »[41] .

وقبل ان تناقش رأي ابن خلدون الذي اوردناه آنفا ، نحب ان نشير الى ان بعض الباحثين يعتبر الفصول التي عقدها ابن خلدون في مقدمته انما هي « تأملات فلسفية اجتماعيية » ولا تعتبر حجة تأريخية[42] . والعرب الذين قصدهم هم فئة العرب « البدو » في مراحل التأريخ المختلفة . ويؤكد ذلك « البارون دوسلان » الذي ترجم ابن خلدون في سنة ١٨٦٢ ، ويقرر في هذه الترجمة ان ابن خلدون استخدم « كلمة العرب بمعنى البدو »[43] .

ودراسة النصوص التي اوردها ابن خلدون في حديثه عن المباني التي كان العرب يشيدونها ، والمدن التي يختطونها ، تدعونا ان نؤكد ان ابن خلدون لم يكن منصفاً وعادلاً في حكمه على العرب ومبانيهم ، واذا لاحظنا النص الذي سبقت الاشارة اليه في رواية ابن خلدون نرى أنه يقول « وانظر لما إختطوا الكوفة والبصرة والقيروان كيف لم يراعوا في إختطاطها الا مراعي إبلهم وما يقرب من القفر ومسالك الظعن » .

واذا أمعنا النظر في النصوص التأريخية التي سجلت بناء هذه المدن الثلاث ، البصرة والكوفة والقيروان ، ندرك ان الذين إختطوها وتفذو بناءها كانوا من الصحابة المسلمين من أهل الحجاز واليمن وغيرهم بالنسبة لمدينتي

---

(٤١) مقدمة ابن خلدون ، الجزء الاول ، صفحات ٦٤٦ ــ ٦٤٧ .

(٤٢) احمد فكري ، مساجد القاهرة ومدارسها ، صفحة ١٠

(٤٣) انظر الحاشية رقم ٣٥٩ في صفحة ٤١١ من المجلد الثاني المقدمة ابن خلدون تعليق الدكتور علي عبدالواحد وافي .

البصرة والكوفة ، ومن التابعين من أهالي الحجاز واليمن وعرب شمالي افريقيا ، والمعروف عن اولئك وهؤلاء انهم من سكنة المدن وانهم عرب أقحاح ولم يكونوا بدواً البته ولا أعراباً •

وزيادة عن ذلك ، فان العرب والمسلمين حينما إختطوا تلك المدن ، فانهم لم يختطوها إعتباطاً او كيفما إتفق ، وأنما كانوا يتخيرون مواضع مدنهم ، ويتفحصون أمكنتها تفحصاً طوبوغرافياً لذلك وضعوا شروطا وقواعد لبناء المدن وتخطيطها نجملها فيما يأتي :

اولا ـ عنى العرب ببناء المدن في الفتح وفي اثناء تأسيس دولتهم لاتخاذها معسكرات وحصونا ، ولذلك بنوها على طرف البادية قريبة من الماء كالكوفة والبصرة والفسطاط ، لا يفصل بينهم بحرا او ماء وذلك كي يتمكنوا من ان يحموا ظهورهم بالصحراء ويتخذوا منها خطا لرجعتهم عند اشتباكهم مع الاعداء ، لذلك لم يعنوا بأحاطتها بالاسوار المنيعة وببناء القلاع الحصينة ، ولما توغل العرب في البلاد المجاورة لهم واستقروا بها عنوا بوجه خاص عند تخطيط المدن بأحاطتها بخنادق وتسويرها بالاسوار المتعددة وتحصينها بالابراج الكثيرة ، ويظهر ذلك واضحا في تحصينات بغداد ، أما في بناء سامراء فلم يعن العباسيون بالاسوار كثيرا وذلك لانهم أمنو شر اعدائهم بعد ان مضى على تأسيس دولتهم نحو قرن من الزمن •

ثانيا ـ وكانوا يعنون ايضا بتنظيم الاسواق وترتيبها داخل المدن وتصنيفها حسب ما يباع بها من السلع كما كانوا يعنون بأنشاء البرك والمنتزهات وحدائق الحيوانات وحلبات السباق •

ثالثا ـ كان العرب يحرصون في الوقت نفسه ان يكون المحل المختار لبناء

المدن صحيا خاليا من الحشرات غير موبوء ولا وخم الهواء وان تكون مناظره مما ترتاح له النفس[٤٤] .

وخلاصة ما نريد ان نشير اليه هو ان في قول ابن خلدون بعداً عن الحقيقة واغفالاً للنصوص التأريخية الموثوقة بها التي وردت في المراجع العربية ، ويبدو لنا ان العلامة ابن خلدون لم يطلع عليها ، او لم تتح له الفرصة في التعرف عليها ، والا لما كتب عن العرب في صدر الاسلام « قلة مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدن »[٤٥] ان في قوله هذا مخالفة تامة وصريحة لما سنورده من الروايات التأريخية التي تشير ان العرب المسلمين عند بناء مدينتي البصرة والكوفة تحولوا من موضع الى آخر ، بأرشاد الخليفة عمر بن الخطاب بحثا عن موقع افضل .

اختيار موضع البصرة :

تتفق المراجع التأريخية العربية في أن البصرة هي اول مدينة مصرت في الاسلام خارج الجزيرة العربية ، ان هذه المراجع تختلف في تأريخ تمصيرها ، فالبلاذري يشير انها بنيت سنة ١٤ للهجرة[٤٦] ، وكذلك الطبري[٤٧] . اما المسعودي فيذكر انها مصرت سنة ١٤ للهجرة في رواية بينما يشير انها مصرت في ربيع عام ١٦ هـ في رواية اخرى[٤٨] ، وابو الفدا يشير انها مصرت سنة ١٥[٤٩] ، ويميل معظم الباحثين المحدثين بأنها مصرت في عام ١٤ هجرية[٥٠] .

---

(٤٤) ناجي معروف ، عروبة المدن الاسلامية ، صفحات ٢٤ـ٢٩ .
(٤٥) مقدمة ابن خلدون ، الجزء الاول صفحة ٦٣٩ .
(٤٦) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٣٤٦ .
(٤٧) الطبري ، الجزء الثالث ، صفحة ٥٩٠ .
(٤٨) المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، الجزء الثاني ، صفحة ٢١١ .
(٤٩) ابو الفداء المختصر في اخبار البشر ، الجزء الاول صفحة ١٥٩ .
(٥٠) للاستزادة من التفاصيل يراجع بحثنا الموسوم « نشأة مدينة البصرة » مجلة كلية الاداب ، جامعة بغداد ، العدد ٢٢ شباط ١٩٧٨ ، صفحات ٢٤١ـ٢٦٨ .

ولقد كان الباعث الرئيسي الذي دفع الحيفه عمر بن الخطاب ، أن يأمر بتأسيسها هو الباعث العسكري ، نظرا للظروف العسكرية التي واكبت الفتوحات العربية الاسلامية في العراق ، ورغبة الخليفة في تركيز القوة العسكرية في جنوبي العراق لكي يتخذ منها المجاهدون العرب قاعدة لاسناد وجودهم في هذه المنطقة ، ثم الانطلاق منها الى المناطق الشرقية حيث توجد القوات الفارسية التي بدأ العرب المسلمون في مناهضتها ، وكسر شوكتها في مناطق متعددة من العراق تمهيدا لتفتيت قوتها وتصفية وجودها ، وتمكين القوات العربية الاسلامية ان تتخذ لها مواقع في هذا القطر تمهيدا لتحريره من السيطرة الفارسية . ونشر رسالة الاسلام التي حملها اولئك المجاهدون .

ومن المؤكد ان الخليفة عمر بن الخطاب كان يدرك كل الادراك اهمية موضع البصرة العسكري في امداد الجيش الفارسي بالاسلحة والمؤن والمقاتلين والحاجات الضرورية الاخرى الموجودة في المناطق الوسطى من العراق ، ويتبين هذا من روايتين الاولى رواها الطبري : قال عمر لعتبة بن غزوان[٥١] ، « قد فتح الله جل وعز على اخوانكم الحيرة وما حولها وقتل عظيم من عظمائها ، ولست آمن ان يمدهم اخوانهم من اهل الفرس ، فأني اريد ان اوجهك الى ارض الهند لتمنع ارض تلك الحيرة من امداد اخوانهم على اخوانكم وتقاتلهم ، لعل الله يفتح عليكم »[٥٢] . والرواية الثانية رواها ياقوت الحموي وهي قريبة المعنى من الرواية الاولى قال كتب عمر لعتبة بن

---

(٥١) عتبة بن غزوان : هو جابر بن وهيب بن نسيب احد بني مازن بن منصور بن عكرمه بن حفصه حليف بني نوفل بن عبدمناف ، كان ممن أسلم في مكة المكرمة ، ومن المهاجرين الاوائل ، وهو احد قادة فتح العراق وباني مدينة البصرة ، توفي عام ١٦ للهجرة وهو راجع من المدينة المنورة الى البصرة . (الزركلي ، الاعلام ، الجزء الثالث صفحة ٣٦٠ ، ابن عبدالبر ، الاستيعاب، الجزء الثالث ، صفحة ١٠٢٦) .

(٥٢) الطبري ، الجزء الثالث صفحات ٢٩٠ ــ ٢٩١ .

غزوان : « ان الحيرة قد فتحت فأت انت ناحية البصرة واشغل من هناك من أهل فارس والاهوار وميسان عن امداد اخوانهم »(٥٣) .

لذلك رغب الخليفة في اشغال القوات الفارسية المتمركزة عند جنـــوب العراق عن مساعدة بقايا القوات الفارسية التي انهكتها معارك القادسيـــة والحيرة .

ومن المفيد ان نوضح هنا ، بان الخليفة عمر بن الخطاب ، كان يواكب حركة تمصير المدن مواكبته للحركات العسكرية الجارية في العراق والشام ومصر ، وانه كما كان يمد قادة الفتوحات بالاوامر والتوجيهات ، فأنه كان يحرص ايضا على مدادهم بالمشورة في أمر تمصير المـــدن ، وكان يستشير بعض الصحابة ممن يعرفون تلك الاقاليم وخبروا مواضعها ، فأن لم يلق احدا على علم بموضع ما ، فانه كان يكتب الى قادته يطلب منهم وصف الموضع له ، وعلى ضوء ما يرده من وصف ، كان يحدد رأيه في الموافقة او عدمها ، وكان الخليفة عمر قد ابلغ قادة الفتح بان يمصروا المدن في طرف الباديـــة وان لا يفصل بينه وبينها نهر او ماء ، وقد التزم الخليفة بهذا النهج كما التّزم قادته بتنفيذه ، وما سنورده من نصوص تأريخية يوضح هذا النهج :

كتب ياقوت الحموي : « ان عتبة كتب الى عمر يستأذنـــه في تمصير البصرة وقال : لابد للمسلمين من منزل اذا اشتى شتوا فيـــه واذا رجعوا من غزوهم لجأوا اليه فكتب اليه عمر ان ارتد لهم منزلاً »(٥٤) .

وروى الطبري في حوادث سنة ١٤ هـ فقال : « بعث عمر بن الخطاب عتبة بن غزوان ، فقال له إنطلق انت ومن معك ، حتى اذ كنتم في اقصى ارض العرب وادنى ارض العجم فأقيموا »(٥٥) .

---

(٥٣) ياقوت ، معجم البلدان ، الجزء الاول صفحة ٤٣١ .

(٥٤) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، الجزء الاول ، صفحة ٤٣٣ .

(٥٥) الطبري ، الجزء الثالث ، صفحة ٥٩١ .

ويروي الطبري رواية اخرى فيقول : « قدم عتبة بن غزوان في ثلثمائة فلما رأى منبت القصب وسمع نقيق الضفادع قال : ان امير المؤمنين أمرني ان انزل اقصى البر من ارض العرب ، وادنى ارض الريف من ارض العجم »(٥٦)

والظاهر ان العرب قد عرفوا منطقة البصرة قبل تمصيرها اذ ان بعض الروايات التأريخية تشير الى تجريد حملات عسكرية اسلامية على منطقة الخريبة(٥٧) . قبل ان يشرع عتبة بن غزوان في تأسيسها . فقد روى الطبري ان قطبة بن قتادة كان يغير بناحية الخريبة ... فكتب الى عمر يعلمه مكانه وانه لو كان معه عدد يسير ظفر بمن قبله من العجم ونفاهم من بلادهم ، وكانت الاعاجم بتلك الناحية قد هابوه بعد وقعة خالد بنهر المرأة ، فكتب اليه عمر : انه آتاني كتابك انك تغير على من قبلك من الاعاجم وقد اصبت ووقفت ، أقم مكانك واحذر على من معك من اصحابك حتى يأتيك أمرى ، فوجه عمر شريح بن عامر احد بني سعد بن بكر الى البصرة ، فقال له : كن رداءً للمسلمين بهذه الجيزة ، فأقبل الى البصرة فترك بها قطبة ومضى الى الاهواز حتى انتهى الى دارس وفيها مسلحة للاعجام فقتلوه »(٥٨) .

والخريبة هي البلدة كان يسميها الفرس في السابق « وهشنا باذ

---

(٥٦) الطبري ، الجزء الثالث ، صفحة ٥٩٤ .

(٥٧) الخريبة : وهي كما ورد في معجم البلدان لياقوت ، الجزء الثاني ، صفحة ٣٦٢ ، تصغير خربة ، وسميت بذلك فيما ذكره الزجاجي لان المرزبان كان كان قد شيد عنده قصرا ثم خرب بعده ، وعندما نزل المسلمون منطقة البصرة واسسوا فيها مدينتهم كانت هناك تلك الخرائب فسموها الخريبة . وكان حمزة يقول ، كما ورد في نفس المصدر ، انه عندما بنيت البصرة اقيمت الى جانب مدينة عتيقة من مدن الفرس كانت تسمى « دهشتا باذ اردشير » فخربها المثنى بن حارثة الشيباني بشن الغارات عليها ، وحينما قدمت العرب البصرة سموها الخريبة .

(٥٨) الطبري ، الجزء الثالث ، صفحة ٥٩٣ .

أردشير » وتعني بالعربيـــة موطن فردوس اردشير[٥٩] . وكانـــت لهم فيها مسلحة مشحونة بالجند المقاتلين أثخن المســـلمون جراحها بتوالى الغارات عليها ، فأضعفوها وشـــلوا من مقدرتها الدفاعيـــة ، وتفيد بعض النصوص التأريخية ان خالداً مر بالخريبة سنة اثنى عشرة قادماً من اليمامة والبحرين في طريقه الى الحيرة ، وانه لم يرحل من منطقة البصرة حتى أتم فتح الخريبة[٦٠] .

وبعد ان استولى العرب المسلمون على مسلحة الخريبة إتخذوها قاعدة لهم للوثوب على مسالح الفرس الاخرى القريبة منهـــا بغية اضعاف قدرتها العسكرية الدفاعية[٦١] .

واذا اردنا تحديد الموضع الذي اختاره العرب المسلمون لاقامة مدينتهم الاولى ، فأن ما يتوفر من النصوص التأريخية لا يفيد في تحديد هذا الموضع على وجه الدقة . ومن المرجح ان الموضع الذي كانت تشغله مدينة البصرة ، التي وضع اسسها القائد عتبة بن غزوان يقع الى الشرق من مدينـــة الزبير الحالية ، والى الجنوب الغربي من مدينة البصرة الحالية مستندين في ذلك على نتائج التنقيبات الاثرية التي قامت بها مديرية الآثار العراقية وجامعة البصرة في مكان تلك البقعة حيث أظهرت تلك التنقيبات اسس مسجد البصرة ايام زياد بن أبيه ٤٥ـ٥٥ هجرية ، ولقد زرت هذه المنطقة في عام ١٩٧٤ وشاهدت هذه الاسس وفحصت المواد البنائية التي استخدمت فيها .

روى بعض المؤرخين انه حينما غزا المسلمون تـّوج ونوبندجان وطاسان

(٥٩) انستاس ماري الكرملي ، لغة العرب ، سنة ١٩٢٧ ، صفحات ٦١٠ ـ ٦١١ .

(٦٠) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، الجزء الاول صفحة ٤٣٠ ، ويضيف ياقوت أن خالدا خلف بها رجلا من بني عامر وانه قدم نهر المـــرأة ، وفتح القصر صلحا ومها يكن من امر فان الواقدي ينكر ان خالد مر بالبصرة فيقول انه حين فرغ من أمر اليمامة والبحرين قدم المدينة ثم سار الى العراق ع(طريق فيد والثعلبية .

(٦١) انظر ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، الجزء الاول ، صفحة ٤٣٠ .

وفتحوها كتبوا الى الخليفة عمر يستأذنونه في بناء مكان لهم : « إنا وجدنا بطاسان مكاناً لا بأس به » فكتب اليهم : ان بيني وبينكم دجلة ، لا حاجة في شيء بيني وبينه دجلة أن تتخذوه مصر » ثم قدم عليه رجل من سدوس يقال له ثابت فقال : « يا امير المؤمنين : اني مررت بمكان دون دجلة فيه قصر وفيه مسلح للعجم يقال له الخريبة ويسمى ايضا البصيرة ، وبين دجله اربعة فراسخ ، له خليج بحري فيه الماء الى أجمة قصب ، فأعجب ذلك عمر » (٦٢).

وهكذا فان المكان المختار قد وافق الخليفة عمر بن الخطاب ، اذ اشار عتبة بعد ان تفحص موضع الخريبة فقال : ان امير المؤمنين امرني ان انزل اقصى البر من ارض العرب ، وادنى ارض الريف من ارض العجم »(٦٣) .

وعندما اطمأن القائد عتبة بن غزوان الى صلاح المنطقة المختارة وملائمتها للشروط التي يرغب فيها الخليفة عمر بن الخطاب ، كتب الى الخليفة يستأذنه في تمصير البصرة فقال : لابد للمسلمين من منزل اذا اشتى شتوا فيه واذا رجعوا من غزوهم لجاؤا اليه . فكتب اليه الخليفة : ارتد لهم منزلا قريبا من المراعي والماء واكتب اليّ بصفته ، فكتب الى عمر : اني وجدت ارضا كثيرة القضّة(٦٤) ، في طرف البر الى الريف ودونها منافع ماء وفيها قصباء ، ولما وصلت الرسالة الى عمر قال : هذه ارض بصرة قريبة من المشارب والمراعي والمحتطب ، فكتب اليه أنزلها(٦٥) .

---

(٦٢) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، الجزء الاول صفحة ٤٣٠ .

(٦٣) الطبري ، حوادث سنة ١٤ هجرية ، الجزء الثالث ، صفحة ٥٩٤ .

(٦٤) القضه : تعني الحجارة المجتمعة المتشققة ، وقيل : أرض قضة ذات حصى ، واما القضة (بالكسر والتخفيض) ففي كتاب العين : انها ارض منخفضة ترابها رمل . وقال الازهري : الارض التي ترابها رمل يقال لها قضة . واما القضة (بالتخفيض) فهو شجر من شجر الحمص . وقال ابو نصر الجوهري (بكسر القاف والتشديد) الحصى الصغار . والقضة ايضا ارض ذات حصى . [انظر ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، الجزء الاول ، صفحة ٤٣٢] .

(٦٥) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، الجزء الاول صفحة ٤٣٢ .

مما تقدم يتوضح لنا بجلاء ان عتبة بن غزوان اختار موضع مدينة البصرة بناء على مواصفات خاصة الزمه بها الخليفة عمر بن الخطـــاب ، وان عتبة بن غزوان بعث وصف الموضع الى الخليفة مضمناً في رسالته ، توفر الشروط التي اشترطها الخليفة على قادته في توفير المياه للجند المجاهدين وتوفير المراعـــي لخيولهم ، وان ليس هناك من حواجز طبيعية ، او انهار تفصل اولئك الجند عن طرف الصحراء التي يلجأ اليها العرب اذا ما أفلح اعداؤهم من الساسانيين والروم في صدهم ومناجزتهم •

اختيار موضع الكوفة :

تتفق المراجع والمصادر العربية في ان الكوفة هي ثاني المدن التي أقامها العرب المسلمون خارج الجزيرة العربية[٦٦]• واذ كنا نعرف ـ كما سـبق واشرنا ـ ان الباعث العسكري كان المحفز لبناء مدينة البصرة ، فأن الباعث نفسه يصح ان يقال بشأن تمصير مدينة الكوفة •

وان كان بناء مدينة البصرة يخدم رغبة الخليفة عمر بن الخطاب في تركيز القوة العسكرية العربية الاسلامية في جنوب العراق لكي تكون قاعدة لتجمع القوات العسكرية ، ثم الانطلاق منها الى المناطق الشرقية حيث توجد القوات الفارسية التي قهر العرب المسلمون شوكتها في القادسية والمدائن والحيرة ، فأنحسرت عن هذه المواقع وبدأت تلملم شـــملها في شرقي دجلة لتثأر مـن المسلمين ، فان اتخاذ مركز عسكري اخر في وسط العراق يحقق هدف القوات الاسلامية الموجودة في هذه المنطقة لكي تجمع فصائلها في مكان أشبه بمعسكر ترحيل كما يطلق العسكريون عليه اليوم فتجعل من نفسها قوة ضاربة تنطلق من المركز لتقاتل الاعداء ثم تؤوب اليه عندما تحقق الغرض من انطلاقها •

---

(٦٦) مصرت الكوفة عام (١٧) للهجرة كما يشير البلاذري في فتوح البلدان صفحة ٣٣٨ • وهنـــاك من المؤرخين من يرى انها مصرت عام (١٥) للهجرة كما ذهب المسعودي في مروج الذهب صفحات ٢١١ ـ ٢١٢ •

لم يكن هذا التصور بعيدا عن الخليفة عمر بن الخطاب ، ولكي يحقق هذا التصور في المجال العملي امتداد رقعة المعركة كما حققه في البصرة ، كتب الى قائده سعد بن ابي وقاص يأمره ان يتخذ للجيش الاسلامي المحارب مركزا يقيمون فيه وقت السلم ، وينطلقون منه حين تأذن الحرب ، كما قال في رسالته الى قائده سعد : « ان يتخذ للمسلمين دار هجرة وقيرواناً »[٦٧] .

وكان القائد سعد ابن ابي وقاص ، يرى بعد انتصاره على الفرس في المدائن واستيلائه عنوة على إسباينر وكرد بنداد[٦٨] ، ان ينزل بجنده في مدينة المدائن الكبيرة[٦٩] . التي تتوافر فيها وسائل المتعة ، فضلا عن كونها مدينة متكاملة المرافق العمرانية والاجتماعية ، وانها لا تحتاج الى جهد من الجند الفاتحين لتكون محل سكناهم ، فأمر جنده نزول المدائن .

وقد درج قادة فتح العراق والشام ومصر ان يشعروا الخليفة عمر بكل ما يحدث من معارك وفتوحات واستيطان ، وكان الخليفة عمر قد ألزم قادة جيوشه بأن لايتخذوا اي قرار مهم الا بعد استشارته ، وانطلاقاً من هدا المبدأ كتب القائد سعد بن ابي وقاص بأخبار الفتح والاستيلاء على المدائن الى الخليفة معلماً إياه نزوله مع الجند المجاهدين في المدينة واتخاذها محلا لسكناهم .

واذا كان القائد سعد يميل الى سكنى المدائن ، فأنه كان يقدر هذا الميل بنظرة القائد الذي يحرص على توفير الوقت للجند ، ومنحهم الوقت الكافي للراحة ، بعد الانجاز الكبير الذي حققوه في جميع المعارك التي خاضوها مع الفرس ، فأن نظرة الخليفة في عاصمته بالمدينة المنورة كانت ابعد في تقديرها ، واشمل في قرارها ، اذ كما هو معروف عن الخليفة عمر انه كان شديد الحرص

---

(٦٧) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٧٥ .

(٦٨) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٧٥ .

(٦٩) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٧٥ .

في ان يترك للقادة العسكريين اتخاذ القرارات الآنية التي تتعلق بالمعارك ، وفق ما تتطلبه ظروف المعركة وزماتها ، أما تلك القرارات التي يتوقف عليها نضال العرب المسلمين وجهادهم ، وفي الدعوة الى الاسلام ونشر مبادئه ، وفي الحفاظ على مقومات الامة التي تصون لها كيانها ، وفي الالتزام الكامل بالابقاء على ارواح المجاهدين بعيدا عن خطر الاعداء جسدياً وفكرياً ، فأن البت فيها مرهون الى الخليفة .

ومن هذا المنطلق ، أقبل رسول الخليفة الى القائد سعد يبدي عدم موافقة الخليفة عمر في سكنى المدائن(٧٠) .ومن المؤكد ان الخليفة كان يدرك كل الادراك أن الجند المسلمين كانوا آنذاك جنوداً محاربين تحت السلاح ، وانهم سوف يبقون كذلك حتى تصل مبادىء الاسلام الى اوسع رقعة ممكنة ، وانه من الافضل ، الابقاء عليهم في آماكن عسكرية بحته لكي يشعروا دائماً ان المهمة التي قدموا لاجلها من الجزيرة العربية لم تنته بعد ، لذلك حظر عليهم الاشتغال بالزراعة لئلا يتقاعسوا عن الحرب ، ولئلا يميلوا الى الدعة والاسترخاء فيفقدوا صفتهم العسكرية وحماسهم الديني ، ومن اجل ذلك اعلن الخليفة فمر لجيوشه ان عطاءهم قائم وان رزق عيالهم جارٍ .

وسبب آخر دفع الخليفة الى تحويل المسلمين عن المدائن ، هو وخومةجو المدائن(٧١) ، الذي لا يلائم ما إعتاد عليه العرب في الحجاز من جفاف ونقاء الذي يوفره مناخ المناطق الصحراوية . وقد لاحظ الخليفة تغير ألوان وسحن الوافدين الى المدينة المنورة من المسلمين الذين نزلوا المدائن ، فاستفسر منهم عن سبب ما أصابهم من تغيير في صحتهم وألوانهم ، كما انه ارسل الى قائده سعد يستوضحه السبب في ذلك فكتب اليه قائده يقول : « إن العرب

---

(٧٠) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٧٥ .

(٧١) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٧٥ .

خددّهم وكفى ألوانهم وخومة المدائن ودجلة .. »[٧٢] .

وهناك سبب ثالث شجع الخليفة في الايعاز لقائده بضرورة ترك المدائن ، هو ان الخليفة لم يكن يأمن جانب الفرس من سكنى هذه المدينة ، إذ من المحتمل ان يتجمعوا من جديد ، وينقضوا على المسلمين في المدائن التي يعرفون مواطن القوة والضعف في قدراتها الدفاعية .

واستجاب القائد سعد الى رغبة الخليفة فأتجه صوب الغرب مسترشداً بتوجيه الخليفة الذي حدد له الاتجاه في رسالة بعث بها اليه فقال « أن تنزلهم منزلاً غربياً »[٧٣] . حتى وصل الانبار[٧٤] ، وبنى فيها مسجداً [٧٥] .

والظاهر ان الانبار لم تعجب القائد سعد فتحول عنها ، وتشير النصوص التأريخية ان سبب تحوله عنها هو كثرة الذباب[٧٦] . ويرى باحث عراقي ان

---

(٧٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٧٥ .

(٧٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٧٧ .

(٧٤) الانبار ، اطلال واسعة تقع ء(الضفة اليسر) او الشرقية من نهر الفرات ، فوق مدينة الفلوجة بالعراق . ويقال أن الذي اختط هذه المدينة في الاصل هو الملك الساساني سابور الثاني (٣١٠ ـ ٣٧٩ م) ، ومن المرجح ان هذه الرواية لم يقصد بها تخطيط مدينة جديدة وانما قد تشير الى اعادة بناء مدينة كانت قائمة في الموضع وتحصينها ، وبقيت الانبار يقطنها اناس مختلفون حتى احتوى سكانها العنصر العربي اثناء الفتح العربي الاسلامي . وجاء ذكر فتح الانبار ضمن الفتوحات التي تمت في العراق على يد الخليفة عمر بن الخطاب . وبعد مضي فترة من قيام الدولة العباسية ، انتقل ابو العباس السفاح مؤسس الدولة العباسية الى الانبار وبنى فيها مدينة اطلق عليها اسم الهاشمية في عام ١٣٤ هـ ، وتوفي فيها الخليفة ابو العباس عام ١٣٦ هـ ودفن فيها بقصره . ومر بها الرحالة ابن بطوطة في عام ٧٤٨ هجرية (١٣٤٧ م) . ويبدو ان الانبار بدأ خرابها بعد عام ٨٢٤ هجرية (١٤٢١ م) لكثرة ما اصابها من حروب فانتقل فوج من اهلها الى الكاظمية ولا تزال محلتهم تعرف باسم محلة الانباريين .

(٧٥) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٢٨ .

(٧٦) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٨٨ .

هذا لم يكن السبب الحقيقي لترك سعد مدينة الانبار ، ويشير ان السبب حربي بحث ، إذ أن الانبار لا تصلح من الناحية الحربية لوجود عائق طبيعي هو الفرات وما يتسبب عنه وعن بحيرة الحبانية من فيضانات ومستنقعات ، ولبعدها عن العاصمة المدينة ، مما يؤخر ويعرقل إرسال المدد إذا ما تجدد القتال بينهم وبين الفرس في المستقبل(٧٧) .

وتحول القائد سعد عن الانبار ، واقبل نحو « كويفه بن عمرو » ، والظاهر انها لم تعجبه لان الماء محيط بها فتركها(٧٨) . ثم توجه نحو موقع الكوفة فأنتهى الى الظهر وكان يدعى « خد العذراء » ينبت الخزامي والاقحوان والشيح والقيصوم والشقائق فأختطفها(٧٩) .

ويشير البلاذري ان ابن بقيلة أرشد سعداً على موضع الكوفة الحالي أذ قال له : « ادلك على ارض إرتفعت عن البق وانحدرت عن الفلاة »(٨٠) .

ان هذا الانتقال من مكان الى آخر يثبت من دون شك ان العرب كانوا يحرصون بأن يكون المحل المختار لبناء مدنهم صحياً خالياً من الحشرات غير موبوء ولا وخم الهواء ، وان تكون مناظره مما ترتاح له النفس ، وهذا ثابت ومؤيد بالنصوص التأريخية اوردها المؤرخون المسلمون مصنفاتهم ومؤلفاتهم .

ومن الاهمية بمكان ان نعرف موضع الكوفة قبل بناء المسلمين معسكرهم فيه ، ونرى هل ان الموضع كان معروفاً ومسكوناً قبل ان يختاره القائد سعد لانشاء مدينة عليه ام انه غير معروف ولا مسكون ذلك التاريخ .

---

(٧٧) الدكتور كاظم الجنابي ، تخطيط مدينة الكوفة ، صفحة ٢٥ .

(٧٨) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٧٧ .

(٧٩) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٧٧ .

(٨٠) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٧٦ الطبري ، الجزء الثالث صفحة ٩٥٨ .

واذا إستعنا ببعض الابحاث الحديثة ، فأنها تشير بأنه ليس في موضعها ما يثبت او يدل على انها كانت في يوم من الايام مستوطناً من المستوطنات الانسانية القديمة ، إذ لم يسبق ان عثر في التنقيبات او في ارضها على آثار او ابنية تعود الى عصور ما قبل التاريخ او بعده[٨١] .

وقبل تمصير الكوفة ، كان الموضع الذي اقيمت عليه المدينة جزء من الضفة اليمنى لنهر الفرات ، او ما كان يسمى بنهر العلقمي[٨٢] ، وهو اليوم على شاطىء شط الهندية القديم والى الشرق من مدينة النجف بنحو (١٦) كيلو متراً[٨٣] .

وارض الكوفة مرتفعة سهلة ، وصفها ابن الفقية فقال : « إن أرض الكوفة سفلت عن الشام وعملها ووباءها ، وارتفعت عن البصرة وحرها وعمقها ، وجاورها الفرات فعذب ماؤها وطاب ثمرها وهي مريئة مريعة »[٨٤]. لا تطالها مياه الفيضان ترتفع عن سطح البحر بنحو (٢٢) متراً ، بعيدة عن مناطق الاهوار والمستنقعات[٨٥] .

---

(٨١) الدكتور كاظم الجنابي ، تخطيط مدينة الكوفة ، صفحة ١١ ، ويضيف بأن المنقبين يعثرون بين الحين والاخر على آلات صوانية من الحجر كالفؤوس والمقاشط والسكاكين في بادية كربلاء قرب قصر الاخيضر يرتقي زمنها الى عصور ما قبل التاريخ .

(٨٢) قدامة بن جعفر ، الخراج ، صفحة ٢٣٤ .

(٨٣) يتفرع نهر الهندية بواسطة سدة الهندية الى فرعين الاول ويدعى نهر الهندية الذي يتفرع بدوره الى فرعين ، فرع الكوفة وتقع عليه مدينة الكوفة وابو صخير والثاني فرع الشامية ، أما الفرع الثاني لنهر الفرات فهو نهر الحلة الذي تقع عليه مدينة الحلة والهاشمية .
آ انظر جغرافية العراق الطبيعية ، للدكتور جاسم محمد الخلف ، صفحة ١٧٤] .

(٨٤) ابن الفقيه ، البلدان ، صفحة ١٦٤ .

(٨٥) الدكتور كاظم الجنابي ، تخطيط مدينة الكوفة ، صفحة ٣٢ .

وموضع الكوفة من الناحية الستراتيجية ، يوفر للمدينة المنشأة الحماية العسكرية الكافية ، إذ ان موقعها في طرف الصحراء العربية وعلى ضفاف أحد فروع نهر الفرات يشبع رغبة الخليفة عمر بن الخطاب في ان لا يفصل بين المدن المقامة وبين مركز الدولة في المدينة حاجز طبيعي ، كما ان وقوع المدينــة في مكان مرتفع يبعدها عن أخطار الفيضان ويسلم ارضها مـــن تجمـع المياه الآسنة التي تزيد في كثرة البعوض والحشرات والهوام .

هذا اضافة الى توفر المياه الجارية الكثيرة في المنطقة مما يجعل الارض صالحة للزراعة ، ويسهل على العرب الفاتحين استغلال الاراضي المحيطة بهم بكل يسر وسهولة .

تاسيس مدينة القيروان :

لاحظنا في بناء مدينتي البصرة والكوفـــة ان العديد مـــن النصوص التأريخية تشير الى تحريات واستطلاعات قام بها القائدان عتبة بن غـــزوان وسعد بن أبي وقاص بتوجيه من الخليفة عمر(٨٦) . أما في تأسيس القيروان ، فأننـا لا نلاحظ قيام عقبة بن نافع بمثل تلـك التحريـات الطوبوغرافيـــة ، والصحية ، والاقتصادية ، كما نلاحظ غياب توجيهات الخليفة الاموي ، وان الامر قد ترك الى تصور القائد عقبة وما يراه من خطوات .

ولئن إفتقدت القيروان عند تأسيسها الى توجيهات الخلافة المركزية والى التحريات الصحية ، ولم تتوفر فيها مثل هذه التوجيهات والتحريات توفرها

---

(٨٦) البلاذري ، فتـــوح البلـدان ، صفحـــات ٢٤٧ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٣٤١ ؛ اليعقوبي ، التأريخ الجزء الثاني ، صفحة ١٢٧ ، اليعقوبـــي ، البلدان ، صفحات ٢٥٦ ـ ٢٥٧ ؛ الطبري ، الجزء الثالث . صفحات ٥٩١ ـ ٥٩٣ ؛ الدينوري الاخبار الطوال ، صفحة ١٢٥ ، ياقوت ، معجم البلدان ، الجزء الاول صفحة ٤٣٢ .

في المدن الاسلامية السابقة لها ، فأن الجانب العسكري الامني ، والحفاظ على ارواح الجند والمجاهدين كانا اهم ما شغل بال القائد عقبة بن نافع •

وتتحدث النصوص التأريخية فتوضح ان عقبة أشار الى من معه من القادة والجند بضرورة اتخاذ مدينة بقوله « فأرى لكم يا معشر المسلمين ان تتخذوا بها مدينة تكون عزاً للاسلام الى آخر الدهر »[٨٧] •

فأتفق رأيهم جميعا على بناء المدينة ، واقترحوا عليه ان يكون موضعها على مقربة من البحر : « نقرب من البحر ليتم لنا الجهاد والرباط »[٨٨] • الا ان إقتراحهم هذا لم يوافق رأي القائد عقبة بن نافع ، فقد كان بعيد النظر ، حصيف الرأي ، يستشعر بالخطر المحدق قبل وقوعه ، ويحسب للعدو المتربص وراء البحر حسابه ، لذا لم يوافق على ما أشار عليه اصحابه من اتخاذ المدينة قريبا من البحر وانما اشار عليهم ان يقيموها على مسافة من البحر فقال : « اني أخاف ان يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة فيملكها ، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يدركها صاحب البحر الا وقد علم به ، واذا كان بينها وبين البحر ما لا يوجب فيه التقصير للصلاة فهم مرابطون »[٨٩] •

ويحدد القائد عقبة بن نافع الاتجاه الذي يمكن للعرب المسلمين ان يتوجهوا اليه في إقامة مدينتهم فيقول لهم : « قربوها من السبخة فان دوابكم الأبل ، وهي التي تحمل اثقالكم فأذا فرغنا منها ، لم يكن لنا بد من الغزو

---

(٨٧) ابن عذارى ، البيان المغرب ، صفحة ١٩ ؛ كتاب الاستبصار في عجائب الامصار ، صفحة ١١٢ •

(٨٨) ابن عذارى ، البيان المغرب ، صفحة ١٩ ؛ كتاب الاستبصار في عجائب الامصار ، صفحة ١١٢ •

(٨٩) ابن عذاري ، البيان المغرب ، صفحة ١٩ ، كتاب الاستبصار في عجائب الابصار صفحة ١١٢ •

والجهاد حتى يفتح الله لنا منها الاول فالاول توقعون إبلنا على باب قصرنا في مراعيها آمنة من عادية البربر والنصارى »[٩٠] .

وتؤكد النصوص التأريخية المتوفرة ان المكان الذي بنيت عليه مدينة القيروان قد إختاره عقبة بن نافع بنفسه ، وحاز موافقة اصحابه من القادة والجند . فقد روي ياقوت على لسان عقبة قوله : « وقد رأيت ان ابني ها هنا مدينة يسكنها المسلمون ، فأستصوبوا رأيه ، فجاؤوا موضع القيروان »[٩١] .

وقد اوضح عقبة السبب الذي حدا به الى اختيار موضع القيروان هذا دون غيره فقال : « لقد اخترت هذا الموضع لبعده من البحر لئلا تطرقها مراكب الروم فتهلكها وهي في وسط البناء »[٩٢] .

واذا اردنا دراسة موضع مدينة القيروان الطوبوغرافي في عهد التأسيس ، فأننا لا نجد في المراجع التي تناولت بناء المدينة نصوصا تعيننا على مثل هذه الدراسة ، سوى بعض النصوص المقتضبة ، ويشير البكري الى المناطق التي كانت تحيط بالمدينة فيذكر ان القيروان تقع « في بساط من الارض مديد من الجنوب منها بحر تونس ، وفي الشرق بحر سوسه والمهدية وفي القبلة بحر اسفاقس وقابس وأقربها منها البحر الشرقي بينها وبينه مسيرة يوم وبينها وبين الجبل مسيرة يوم وبينها وبين سواد الزيتون المعروف بالساحل مسيرة يوم وشرقها سبخة ملح عظيم طيب نظيف »[٩٣] .

ويبدو ان الاراضي المحيطة بموضع القيروان كانت تشمل على اراضي

---

(٩٠) ابن عذارى ، البيان المغرب ، صفحة ١٩ ـ ٢٠ ؛ كتاب الاستبصار في عجائب الابصار ، صفحات ١١٢ ـ ١١٣ .

(٩١) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، الجزء الرابع ، صفحة ٤٢١ .

(٩٢) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، الجزء الرابع صفحة ٤٢١ .

(٩٣) البكري ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، صفحة ٢٤ .

طيبة كريمة ، وافضلها كما يشير البكري ، الجانب الغربي ، وهو المعروف بفحص الدّرارة (٩٤) .

أما طبيعة المكان الذي اقيمت عليه المدينة ، فكان يشتمل على غياض كثيرة لاترام من السباع والهوام والحيوانات تتشابك فيها الاشجار(٩٥) . وليس في المنطقة نهر جار او عين وفيرة المياه ، وانما كان مصدر الشرب لدى الناس فيها هو مياه الامطار التي تهطل في الشتاء فتجمع في برك كبيرة تدعى المواحل ، وكان هناك وادٍ في قبلة المدينة يجري فيه ماء مالح يستعمله الناس فيما يحتاجون اليه لاعمالهم دون الشرب(٩٦) .

مما تقدم ، يتوضح لنا استناداً الى النصوص التأريخية الكثيرة التي اوردناها في ثنايا البحث ، ان العرب والمسلمين الذين نفذوا بناء المدينتين الاسلاميتين البصرة والكوفة ، قد التزموا في البحث عن الموضع وفق المواصفات التي فرضها الخليفة عمر واشترط تنفيذها ، كما ان القائد عقبة بن نافع قد التزم في تحقيق الجانب الامني لمدينة القيروان .

---

(٩٤) البكري ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، صفحة ٢٤ .

(٩٥) ابن عبدالحكم ، فتوح مصر ، صفحة ١٩٦ ، البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢٦٩ ؛ الطبري ، الجزء الرابع ، صفحة ١٧٨ ؛ القزويني ، آثار البلاد واخبار العباد ، صفحة ٢٤٢ ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، الجزء الرابع ، صفحة ٤٢١ ؛ كتاب الاستبصار في عجائب الامصار ، صفحة ١١٣ .

(٩٦) ابو الفدا ، تقويم البلدان ، صفحة ١٤٥ ، وللاستزادة عن تأسيس مدينة القيروان يراجع بحثنا في المجلد الاول ، العدد (٢١) بمجلة كلية الاداب ـ جامعة بغداد لعام ١٩٧٧ ، صفحات ٣٣٧ ـ ٣٥٢ .

السبحة عند العرب

الدكتور عبدالعزيز حميد
كليـة الاداب ـ جامعة بغـداد

التسبيح هو تعظيم الله وتنزيهه من كل سوء(١) قال الله تعالى فسبح باسم ربك واستغفره انه كان توابا(٢) وقال سبحانه وتعالى ايضا « فسبح باسم ربك العظيم »(٣) أي سبحه باسمائه ونزهه عن التسمية بغير ما سمى به نفسه(٤) ويذكر لنا البخارى بان لفظة التسبيح اسـم مصدر من قـول (سبحان الله)(٥) .

وفي حديث عن ابي هريرة ان رسول الله قال : « من قال سبحان الله وبحمده في اليوم مائة مرة حطت خطاياه وان كانت مثـل زبد البحر »(٦) .

لقد سمّت العرب السبّابة هو الاصبع الذي يلي الابهـام ، بمسبحة لانه يشار بها عند التسبيح(٧) فقد كان المسلم يستعين باصابع يديـه في التسبيح . وقد روى عن عبدالله بن عمرو انه قال : « رأيت رسول الله يعقد التسبيح بيمينه » .وهو قول رواه لنا ابو داود والترمذى وغيرهم(٨) وفي

---

(١) ابن منظور ، لسان العرب جـ ٢٠ ، ص ٤٧٣ (طبعة بيروت ١٩٥٥) .
(٢) سورة النصر آيـة ٣
(٣) سورة الواقعة آية ٧٤
(٤) ابن منظور ، المصدر السابق ، جـ ٢٠ ص ٤٧٤
(٥) البخاري ، الجامع ، جـ ٢٣ ، ص ٢٥
(٦) المصدر السابق ، جـ ٢٣ ، ص ٢٥
(٧) ابن منظور ـ المصدر السابق ، جـ ٢٠ ص ٤٧٤
(٨) محمد ناصر الدين الالباني ، سلسلة الاحاديث الضعيفة والموضوعة . المجلد الاول ، الجزء الاول ، ص ١١٢ (طبعة دمشق) ١٣٨٤ هـ .

حديث رسول الله (ص) انه قال لبعض النسوة : « عليكن بالتسبيح والتهليل والتقديس ولا تغفلن فتنسين التوحيد واعقدن بالانامل فأنهن مسؤولات ومستنطقات » • وهو حديث اخرجه ابو داود وغيره وصححه الحاكم الذهبي وحسنه النووي العسقلاني[٩] •

واذا انتقلنا الى الخطوة الثانية في التسبيح وهي الاستعانة بالنوى أو الحصى في عد ما يروم المرء قوله في التسبيح فهناك حديثين اوردهما السيوطي في هذا الباب •

اولهما : عن صفية زوج الرسول وهو قولها « دخل عليّ رسول الله (ص) وبين يدى اربعة آلاف نواة اسبح بهن فقال ما هذا يا بنت حبي ؟ قلت : اسبح بهن قال سبحت منذ قمت على رأسك اكثر من هذا قلت علمني يا رسول الله • قال : قولي سبحان الله عدد ما خلق من شيء[١٠] •

وثانيهما عن سعد ابن ابي وقاص (ر) انه دخل مع النبي (ص) على امرأة وبين يديها نوى او حصا تسبح • فقال : اخبرك بما هو ايسر عليك من هذا وافضل قولي سبحان الله عدد ما خلق في السماء[١١] ••

فقد ذكر ان كلا الحديثين موضوعين في وقت لاحق او انهما ضعيفي الاسناد[١٢] كذلك فقد شككَ فيما رواه لنا السيوطي ايضا من ان كلا من سعد بن ابي وقاص(ر) وابا صفية مولى رسول الله (ص) كانا يسبحان بالحصى او النوى[١٣] •

---

(٩) المصدر السابق : نفس الجزء والصفحة •

(١٠) جلال الدين السيوطي الحاوي للفتاوي جـ ٢ ، ص ١٣٩ـ١٤٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢

(١١) السيوطي ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١٤٠

(١٢) محمد ناصر الدين الالباني ، المصدر السابق ، المجلد الاول ، الجزء الاول ص ١١٢ •

(١٣) السيوطي ، جـ ٢ ، ص ١٤٠

ومهما يكن من امر قد تحول الكثير من المسلمين الى الاستعانة بالحصى او النوى في الذكر رغم مايبدو من كراهية عند الصحابةوالتابعين حتى انه روى لنا عن الصحابى عبدالله بن مسعود المتوفى في سنة ٣٢ هجرية انه مر « بامرأة معها تسبيح تسبح به فقطعه والقاه ، مر برجل يسبح بحصا ، فضربه برجله ، ثم قال : لقد سبقتم ! ركبتم بدعه ظلما ، ولقد غلبتم اصحـاب محمد (ص) علما »[١٤] . كما روى ايضا ان عمر بن عبدالعزيز (ر) مر « يوما برجل يسبح بالحصا فاذا بلغ المائة عـزل حصاة ، فقال له عمـر : الق الحصا واخلص الدعـاء »[١٥] .

ومن طريف ما يرويه الجاحظ بشأن استخدام الحصى في التسبيح « ان عبدالملك بن هلال الهنائي[١٦] كان عنده زنبيل ملأى من حصى فكان يسبح بواحدة واحدة فاذا ضجر فبأثنين اثنين ثم ثلاثة ثلاثة ، فاذا مل قبض قبضة وقال سبحان الله بعدد هذا الحصى واذا بكر لحاجة وكان مستعجلا لحظ الزنبيل وقال سبحان الله بعدد ما فيه »[١٧] .

وعلى الرغم مما يبدو ان الاستعانة بالنوى او الحصى بالتسبيح كان الى حد ما مكروها عند المسلمين في الايام الاولى ، فان مثله مثل غيره من الامور التي لم يجد له بعض المؤرخين العرب تفسيرا واضحا فحدا بالبعض منهم ان يعزوه لاسباب غيبية . من ذلك ما يرويه الجاحظ انه لما وقع النبي يونس في الجب وابتلعه الحوت « هوى الى قرار الارض فسمع تسبيح الحصى[١٨] —

---

(١٤) الالباني ، ص ١١٢

(١٥) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ٢٨١ (طبعة مصر ١٩٤٨) .

(١٦) الهنائي ، بضم الهاء ، نسبة الى هناء بن مالك بن جهم والخبر في عيون الاخبار مع خلاف في اللفظ (ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، ج ٢ ، ص ٥٩) .

(١٧) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٣ ص ٢٨٣

(١٨) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٨١

فنادى في الظلمات : « ان لا اله الا انت سبحانك اني كنت من الظالمين »[١٩].

ومهما يكن من امر فربما الذي ساعد على الاستعانة بالحصى ان التسبيح كان يتم في اغلب الاحيان بعد الفراغ من اداء فريضة الصلاة ، ولما كانت الصلوات تتم في المساجد ، والمساجد الاسلامية الاولى كانت مفروشة بالحصى مثل مسجد الكوفة والبصرة في العراق ، فقد اصبح هذا التحول امرا معقولا .

ومع كل ما تقدم فيبدو ان العرب لم يكونوا اول من استخدم الحص في التسبيح فقد ذكر ان بعض القديسيين الاوائل من النصارى قد استعانوا بالحصى في ضبط عدد الصلواة ، منهم القديس بولس الاسكندراني المتوفى سنة ٣٤١ ميلادية الذي كان يضع ثلثمائة حصوة في حجرة يسقط واحدة منها كلما فرغ من اداة صلاة ومجموع الحصى كان يوازي مجموع ما كان يصليه في اليوم الواحد[٢٠] . ومع ذلك فنحن لا نرى بوجود علاقة اقتباس حتمية بين استخدام الحصى عند بعض العرب المسلمين في التسبيح وبين اتخاذها كوسيلة في ضبط عدد الصلواة عند بعض قديسي النصارى . ويبدو ان الاستعانة تلك قد جاءت تطورا طبيعيا ومنطقيا عند كلا الجانبين . وربما ان مثل ذلك الاستخدام للحصى قد عرف ايضا عند شعوب واصحاب ديانات اخرى كالهنود والبوذيين او غيرهم . فالواقع انه لو العرب المسلمين قد اخذوا تلك الفكرة عن النصارى او غيرهم لما سكتت المدونات التاريخية العربية القديمة ولا المصادر المسيحية عن الاشارة ، او على الاقل عن التلميح الى ذلك .

والخطوة التالية في التسبيح هو استخدام خيط ذو عقد كثيرة بدلا عن

---

(١٩) سورة الانبياء ، آية ٨٧

(٢٠) The Catholic Encyclopedia, Vol. 2 P. 360.

الحصى او النوى ولا شك ان مثل هذا الخيط ذو العقد اسهل في عد التسابيح وفي غير شك اخف وزنا من الحصى او النوى • ويذكر لنا السيوطي ان فاطمة بنت الحسن بن علي بن ابي طالب (ر) كانت تسبح به[٢١] كما ذكر لنا ايضا ان ابا هريرة كان له خيط فيه الفا عقد فلا ينام حتى يسبح به »[٢٢]•

اما السبحة (والمسبحة) ، وهي الخرزات المنضودة بسلك ، خطوة اخرى في سلم تطور الاستعانة بالوسائل في عد ما يرومون عده من التسابيح او ذكر ما يريدون ذكره من اسماء الله الحسنى •

يقول الزبيدي في السبحة « انها ليست من اللغة في شيء ولا تعرفها العرب ، وانما احدثت في الصدر الاول اعانة على الذكر وتذكيرا وتنشيطا[٢٣] ويكتب ابن منظور بانها « الخرزات التي يعد المسبح بها تسبيحه وهي كلمة مولده[٢٤] اى انها اشتقت من كلمة عربية اصيلة في وقت متأخر نسبيا » •

وتتيجة لذلك فلا شك ان الحديث الذي ساقه لنا السيوطي عن الديلمي في (مسند الفردوس) عن علي بن ابي طالب (ر) عن النبي (ص) « نعم المذكر السبحة » • هو حديث موضوع[٢٥] وقد رفض هذا الحديث الالباني ليس فقط لان جل رواته مجهولون وبعضهم متهم ، لان السبحة في حد ذاتها « بدعة لم تكن في عهد النبي (ص) وانما حدثت بعده فكيف يعقل ان يحضى عليه الصلاة والسلام اصحابه على امر لا يعرفونه » ؟[٢٦]•

---

(٢١) السيوطي ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١٤٠

(٢٢) نفس المصدر والصفحة نفسها

(٢٣) الزبيدي تاج العروس ، جـ١ ، ص ٤٤٢ـ٤٤٥

(٢٤) ابن منظور ، لسان العرب ، جـ٢٠ ، ص ٤٧٣

(٢٥) السيوطي ،جـ ٢ ، ص ١٤١

(٢٦) الالباني ، مجلد ، ١ حـ١ ص ١٣٢

وتيجة لذلك يبدو ان كثير من الفقهاء قد اعتبروا السبحة امرا مكروها في صدر الاسلام . والسبب في ذلك كما يظهر يعود بالدرجة الاولى الى ان استعالها كان بدعة كما ان استعمالها قضت او كادت « على سنة العد بالاصابع[٢٧] . وحتى لنجد بين الفقهاء المحدثين من يعتبر استعماله السبحة في التسبيح امرا مكروها »[٢٨] .

ومع كل ذلك فيظهر لنا من تمحيص النصوص التاريخية ان تلك الكراهية لم تكن مطلقة او شديدة فقد ذكر لنا البعض بان عقد التسبيح بالانامل افضل من السبحة ان آمن من الخلط في العد ولا فالسبحة اولى[٢٩] .

ومهما يكن من امر فنحن لا ندري ان كان العرب المسلمين قد اقتبسوا فكرة استخدام السبحة عن غيرهم من اصحاب الحضارات القديمة الاخرى . غير انه اذا حصل ووقع مثل ذلك الاقتباس فلا يمكن ان يكون قد تم عن طريق النصارى . اذ ليس هناك ما يدل انهم قد عرفوها قبل القرن التاسع الميلادي وكثر استخدامها عندهم في القرنين الحادي عشر والثاني عشر حيث وجدت ضروب منها في قبور بعض من اوليائهم مثل القديس

---

(٢٧) نفس المصدر ١٣٣

(٢٨) وقد كتب الشيخ محمد ناصر الدين الالباني في ذلك « ولو لم تكن للسبحة الا سيئة واحده وهي انها قضت على سنة العد بالاصابع او كادت، مع اتفاقهم على انها افضل لكفى ، فاني قلما ارى شيخا يعقد التسبيح بالانامل ثم ان الناس قد تفننوا في الابتداع بهذه البدعة ، فنرى بعض المنتمين لاحدى الطرق يطوق عنقه بالسبحه ! وبعضهم يعد بها وهو يحدثك او يستمع لحديثك ... وكثيرا ما تكون هذه البدعة سببا لاضاعة ما هو واجب ، فقد اتفق لي مرارا — وكذا لغيري — اني سلمت على احدهم فرد علي السلام بالتلويح ! دون ان يتلفظ بالسلام ! ومفاسد هذه البدعة لا تحصى ... »

(الالباني ، سلسلة الاحاديث الضعيفة والموضوعة ، المجلد الاول ، جـ ١ ، ص ١٣٣) .

(٢٩) السيوطي ، المصدر السابق ، ص ١٤١ .

نروجرت والقديس روزالي المتوفيان في القرن الثاني عشر الميلادي[٣٠] بينما نجد ان استخدام السبحة عند العرب المسلمين هي اقدم عهدا من استخدامها عند النصارى ، اذ ذهب بعض المصادر العربية القديمة ، كما مر بنا ، قد عرفت منذ العصر الراشدي ، اي في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي[٣١] .

كذلك هناك اشارات الى استخدامها في العصر الاموي وذلك ايام ولاية عثمان بن حيان المولى على المدينة المنورة من قبل الخليفة الوليد بن عبدالملك (٨٦–٩٦ هـ / ٧٠٥–٧١٥ م) . فقد وردت تلك الاشارة بمناسبة تحريم هذا الوالي الغناء والملاهي في المدينة المنورة في حدود سنة ٩٢ هجرية (٧١١ م)[٣٢] ، وتتيجة لذلك فقد ذهب غالبية الباحثين من علماء اللاهوت الى ان بلاد المشرق هذا الموطن الاصلي للسبحة[٣٣] .

لا شك ان استعمال السبحة قد ازداد الى درجة كبيرة في العصر العباسي حيث اخذت ترد كثيرا في المصادر التاريخية التي تناولت تلك الحقبة الزمنية من تاريخ العرب والاسلام . ومن تفحص النصوص التاريخية التي لها علاقة بالسبحة في العصر العباسي يتبين لنا ان كراهية استخدام السبحة في التسبيح قد خفيت الى درجة كبيرة . ومن الادلة التي يمكن ان نسوقها على ذلك ان الخليفة الهادى (١٦٩–١٧٠ هـ / ٧٨٥–٧٨٦ م) عندما امر أمه الخيزران بالكف عن التدخل في شؤون المملكة قال لها من جملة ما قال :

---

(٣١) المصدر السابق ، ص ١١٢

(٣٢) The Catholic Encyclopedia, Vol. 2. P. 362.

(٣٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ ٦ ، ص ٥٠ (طبعة مصر ١٩٤٨) .

(٣٣) The Catholic Encyclopedia, Vol. 2, P. 363.

« ... وعليك بصلاتك وسبحتك وتبتلك ... الخ »[٣٤] كما ان الكثير من الفقهاء والشيوخ في ذلك العصر كانوا يستخدمونها في التسبيح منهم علي بن محمد السلمي والمقرى وسرى بن مغلس السقطي ومعروف الكرخي وعمر المالكي وغيرهم[٣٥] ،والمتوفي في بغداد سنة ٢٩٧ هـ وفي يده سبحة ، « فقيل له : انت مع شرفك تأخذ في يدك سبحة ؟ فقال : طريق وصلت به الى ربي لا افارقه »[٣٦]. وروى انه كان قد سئل قبله الحسن البصرى السؤال نفسه فاجاب : « شيء كنا استعملناه في البدايات ما كنا نتركه في النهايات ، احب ان اذكر الله بقلبي وفي يدي ولساني »[٣٧] .. هذا وقد قال عنها بعض المتصوفة « بانها مذكرة الله تعالى لان الانسان قل ان يراها الا وبعضهم (رابطة القلوب)[٣٨] .

والواقع ان هذا الضرب من الاستخدام للسبحة في العصر العباسي قد كان هو الغالب حتى نهاية العصر ذلك العصر الطويل الحافل بالاحداث[٣٩].

---

(٣٤) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٨ ، ص ٢٠٥

(٣٥) السيوطي ، جـ ٢ ، ص ١٤٣

(٣٦) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ ١ ، ص ٣٢٣-٣٢٤ (طبعة مصر ١٩٤٨)

(٣٧) السيوطي ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٤٣

(٣٨) نفس المصدر والصفحة .

(٣٩) والنصوص التاريخية في ذلك كثيرة ، منها ما ذكر من ان السبب في عدم تحرك المأمون لبيت من الشعر قيل في مدحه وهو :

اضحى امام الهدى المأمون منشغل
بالدين والناس بالدنيا مشاغيل

ان الشاعر لم يرده على « ان جعله عجوزا في محرابها في يده سبحة » (ابن الجوزي ، الاذكياء ، ص ١٠٧ ، طبعة مصر ١٩٥٨) .

ومنها ايضا ما يرويه لنا الصابي في انه في اليوم الذي قبض فيه الحسن بن الفرات في نهاية وزارته الثانية « دعا بالطعام فاكل ثم مال الى بيت منامه وانتبه وقت العصر ، وجدد الوضوء وصلى في الدار المعروفة بدار الصلاة ، وجلس على مصلاه يسبح ... »

(الصابي ، الوزراء ، ص ٢٦٤ - طبعة مصر ١٩٥٨) وغيرها من النصوص الكثيرة التي لا مجال لسردها او الاشارة اليها جميعا في هذا البحث .

ولا شك ان السبح التي كان يستعملها المتصوفة والمتمثلون كان حباتها اما من ضروب الخشب او من البذور الصلبة او من الطين المصبوغ او المفخور . وقد ذهب بعض المحدثين من الباحثين الى ان تلك السبح ربما كانت تجبل من تراب مكة المكرمة او المدينة المنورة لما لهاتين البقعتين الشريفتين من احترام عميق لدى المسلمين جميعا . ففي اولاها بيت الله الحرام وفي ثانيهما قبر الرسول الاعظم[٤٠] . غير انه ليس بين ايدينا من النصوص التاريخية ما يؤيد او ينفي هذا الاعتقاد .

ويبدو ان استخدام السبحة عند العرب في العصر العباسي لم يقتصر على الذكر والتسبيح . فقد اتخذ بعضها للتسلية كما هي الآن . ونجد ان الاشارات التاريخية تكثر حول استعمال الاحجار الكريمة والاخشاب الجيدة في صناعة حباتها ابان ذلك العصر . ويذكر كثير من المؤرخين القدامى ان بعض تلك السبح كانت تنضد حباتها من الدر الكبار ، وذكر ان الخليفة المأمون (١٩٦ ــ ٢١٨ هـ/ ٨١٣ ــ ٨٣٣ م) كان عنده واحدة منها[٤١] .

كما ذكرت سبحة در اخرى كانت قد بعثت بها قبيحة زوجة المتوكل على الله (٢٣٢-٢٤٧ هـ / ٨٤٧-٨٦١ م) الى ضرتها ام المؤيد اخ ابنها المعتز[٤٢] . والدر كما يصفه الجاحظ لآلىء كبار لا يقل وزن الواحدة منها عن نصف المثقال[٤٣] ويكتب التيافشي بان الدر هو لؤلوء زاد وزنها عن « وزن درهمين ولو حبة واحدة »[٤٤].

---

(٤٠) The Catholic Encyclopedia, Vol. 2, P. 363.

(٤١) الغزالي : الجماهير في معرفة الجواهر ص ١٥٦ (طبعة حيدر اباد ، ١٣٥٥هـ)

(٤٢) المصدر السابق ، ص ١٥٨ .

(٤٣) واذا زاد الدرة على ثلاثة مثاقيل فتسمى عندئذ بالدرة اليتيمه (الجاحظ) ، التبصر بالتجارة ، ص ١٩ ، طبعة مصر ، ١٩٦٦ .

(٤٤) احمد بن يوسف التيفاشي ، ازهار الافكار في جواهر الاحجار ، ص ٥٥

ووردت اشارة الى سبحة قوامها لاآلىء كبار مثمنة ارسلتها ارسلان خاتون ابنة السلطان طغرل بك الى زوجها القائم بامر الله (٤٢٢-٤٦٧ هـ / ١٠٣١-١٠٧٥ م) اثر عودته من منفاه في مدينة حديثة الى بغداد بعد القضاء على حركة البساسيري الشهيرة(٤٥) . ويبدو ان المقصود بالمثمنه غلاء ثمنها(٤٦).

ومن ضروب السبح التي وصلتنا اشارة اليها سبحة حباتها يواقيت رمانية حجم الواحدة منها حجم البندقه ، كانت السيدة زبيدة زوج هرون الرشيد قد ابتاعتها بخمسين الف دينار(٤٧) .

ومن انواع السبح ايضا سبحة كتب لنا عنها القاضي الرشيد بن الزبير المتوفي في القرن الخامس الهجري بانها من (سبح) . والسبح حجر اسود اللون . يقول عنه التيفاشي المتوفي في سنة ٦٥١ هـ (١٢٥١ م) بانه من الاحجار الرصاصية ويؤتي به من موضعين احدهما الهند والاخر بلاد فارس ، اجوده ، الهندي وهو حجر اسود شديد السواد وانه يُرى فيه الوجه كالمرآة(٤٨) .

---

(٤٥) على اثر مغادرة طغرل بك الى الموصل ثم نصيبين لقمع حركة قام بها اخوه ابراهيم دخل البساسيري بغداد في سنة ٤٥٠ هـ ومعه الرايات المصرية « وعلى رأسه اعلام مكتوب عليها الامام المستنصر بالله ابو تميم معد امير المؤمنين وقد نفي الخليفة القائم بالله الى حديثة بعد ان دخل بذمة الامير قراوش بن بدران . وكان البساسيري قد احتل بغداد في ٦ ذي القعده وخرج منها في ٦ ذي القعده من السنة التالية وقد قتل في معركة قرب واسط وعاد الخليفة الى بغداد (ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ٨ ص ١٩٣-٢١١)

(٤٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ٨ ، ص ٢٠٧

(٤٧) الغزالي ، المصدر السابق ، ص ٥٨

(٤٨) ويكتب التيفاشي عن هذا الحجر ايضا « ان من خواصه انه اذا اخذ فص منه وادمن النظر اليه احد البصر واعاد قواه » التيفاشي ، أزهار الافكار في جواهر الاحجار ص ١٨٦-١٨٧) .

ويقول الجواليقي في المعرب ان السبح خرز اسود(٤٩) • وقال عنه البيروني بانه حجر اسود حالك صقيل رخو جدا خفيف تأخذ فيه النار ربما يشتعل اذا احمته الشمس(٥٠) • لم يورد التيفاشي او غيره من القدماء من الصفات التي تساعد على تحديد الاسم العلمي الصحيح لهذا المعدن • وربما هو حجر الجيت jet وهو من ضروب الفحم الحجري الصلب(٥١) • لقد اهديت تلك السبحة الى القاضي ابي علي المحسن بن علي التنوخي مع ابيات طريفة من الشعر هي :

بعثت يا بدر بني يعرب بسبحة من سبح معجب
يقول من ابصرها طرفة نعم عتاد الخائف المذنب
لم تحظ ان فكرت في نظمها ولونها من حمة العقرب(٥٢)

هذا وقد وردت كثير من الاشارات لسبح لم يحدد نوع الحجر الكريم الذي يشكل حباتها واقتصر الرواة على القول بانها سبح جوهر • والجوهر هو الحجر الكريم بشكل مطلق ، اي اسم عام لجميع الاحجار النفسية • وقد حدده الجواليقي بانه يطلق على ما يخرج من البحر وما يحويه مجراه من النفاسة مثل الياقوت والزبرجد واللؤلؤ(٥٣) •وقد خص به التيفاشي اللؤلؤ بالذات(٥٤) •

---

(٤٩) الجواليقي ، المعرب ، ص ٢٣

(٥٠) البيروني ، الجماهر في معرفة الجواهر ، ص ١٩٩ •

(٥١) التيفاشي ، التعليقات ، ص ٢٨٧

(٥٢) ابن الزبير ، الهدايا والتحف ، ص ٢٣ (طبعة الكويت ١٩٥٩)

(٥٣) الجواليقي ، المعرب •

(٥٤) وقد كتب في ذلك : « كما ان الورد اسم عام لكل زهر ثم خص به الورد المعروف بفضله ، كذلك القافية زهرة لكل نبات ثم خص بها فاقية الحناء • (التيفاشي ، ص ٤١) •

ومن سبح الجوهر تلك واحدة اهدتها قبيحة ام المعتز الى زوجها المتوكل على الله بمناسبة عودته من دمشق الى سامراء ، قيل انها سبحة « لا يعرف لجوهرها قيمة »[٥٥] ومنها ايضا واحدة للمقتدر على الله (٢٩٥ ـ ٣٢١هـ / ٩٠٨ ـ ١٦٣٢ م) كانت من جملة ما صودر عليه التاجر البغدادي بن الجصاص بعد ان ثبت عليه تستره واخفاؤه في منزله عبدالله بن المعتز[٥٦] . وكان والاخير قد فشل في محاولة قام بها انصاره لعزل الخليفة المقتدر على الله في سنة ٢٩٦ هجرية وتنصيب عبدالله بن المعتز خليفة بدلا عنه[٥٧] . لقد قومت تلك السبحة بثلاثين الف دينار[٥٨] وقومها البعض من المؤرخين بثلثمائة الف دينار[٥٩] . حتى اصبحت مضرب المثل عند البغداديين في الندرة والنفاسة . وقد اتهمت بسرقتها فيما بعد قهرمانة المقتدر (زيدان) ، وان كان قد ذهب بعض من المؤرخين الى ان تلك السبحة لم تسرق وانما اهديت اليها من قبل الخليفة نفسه[٦٠] وقد عرفت السبحة تلك منذ ذلك الوقت بسبحة زيدان رغم انها قد اعيدت الى خزانة دار الخلافة على يد الوزير علي بن عيسى كما يبدو[٦١] .

---

(٥٥) ابن الزبير ، المصدر السابق ، ص ٣٢

(٥٦) لقد كان الحسين بن عبدالله الجصاص من اغنى اغنياء العراق في القرن الرابع الهجري كان جوهريا بدأ في جمع ثروته في مصر ببلاط احمد ابن طولون ثم انتقل الى بغداد . قبض عليه في سنة ٢٩٦ هـ على اثر تستره على ابن المعتز ، فانفذ الى داره من يحص) ثروته ويحملها فارتفعت قيمة ما صودر منه الى ستة ملايين دينار . ومع ذلك فقد بقيت عنده ثروة من مال وعقار تزيد في قيمتها على المليون دينار . توفي ببغداد سنة ٣١٥ هجرية .
(ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ ٦ ، ص ٢٦١)

(٥٧) ابن الجوزي ، المصدر السابق جـ ٦ ، ص ٢١١

(٥٨) الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص ١٩٥

(٩٤) ابن الجوزي ، المصدر السابق ، جـ ٦ ، ص ٧٠

(٦٠) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ص ٤١٥ (طبعة بيروت ١٩٧٠)

(٦١) ابن الجوزي ، المصدر السابق ، جـ ٦ ، ص ٧٠

ومن سبح المقتدر النفيسة الاخرى سبحة جوهر عدد حباتها مائة ، يقال انها عرضت على الجوهريين ببغداد « فقوموا » كل حبة منها بالـف دينـار واكثر ، فكان اذا اراد (المقتدر) ان يسبح استدعى بها ثم يردها لتعلـق في الخزانة في خريطة[٦٢] . والخريطة هي غلاف من جلد كانت تحفظ بها .

واذا انتقلنا الى شكل السبحة عند العرب وطريقة نظمها وعدد خرزاتها نجد ما يشير الى ان السبحة كانت تنتهي بخاتمة . والخاتمة هي رأسها[٦٣] واكبر الظن ان خرزة الخاتمة ، هي كما عليه في السبح المستعملة في الوقـت الحاضر ، اكبر حجما واكثر طولا من بقية الخرزات . وقد تكون من ضرب مغاير . فيكتب لنا المسعودي المتوفي في سنة ٣٤٦ هجرية (٩٥٧ م) بانه نقل اليه من شاهد عند الحسين بن الجصاص التاجر العراقي المعروف الذي سبقت الاشارة اليه عشرين سبحة جوهر « عدد حبات كل منها مائة ، ختمت كـل سبحة منها بياقوتة حمراء قال عنها ابن الجصاص » « لعل قيمتها اكثر ممـا تحتها» .[٦٤]

ومن غربلة النصوص التاريخية التي بين ايدينا يظهر ان عـدد حبـات السبحة بشكل عام كان مائة حبة . ولا شك ان الخاتمة هي ضمن المائـة . فيكون الرقم الحقيقي لعدد الحبات في السبحة العربية الاسلاميـة تسـع وتسعون حبة ، وهو عدد مساو لاسماء الله الحسنى . ولذلك فلا نجد علاقة بين عدد الحبات في السبحة العربية الاسلامية والسبح المستعملة في الصلاة عنـد النصارى في القرون الوسطى وما تلته من العصور . فالسبحة الكاملة العدد عند الكاثوليك مثلا (Full Rosary) يزيد غدد حباتها على المائة والستين ، وهي في العادة لا تستعمل الا من قبل رجال الدين ، اما الاخـرون

---

(٦٢) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ج ٧ ص ٢٥٥

(٦٣) وتسمى محليا في العراق اليوم (الشاهول) .

(٦٤) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٤ ص ٢٣٤ـ٢٣٥

فيستعملون سبح عدد حباتها ثلث السبحة الكاملة • كما ان هناك سبح يبلغ حباتها الثلاثة والستين وهو عدد مساو لعدد سنين حياة العذراء • اما عند الفئة التي تعتمد بان عمر العذراء كان ٧٢ سنة فنجدهم يتخذون سبحا ذات اثنين وسبعين حبة • من سبح النصارى ايضا واحدة مجموع حباتها ثمان وثلاثين حبة ، ثلاثة وثلاثون حبة منها تمثل عمر السيد المسيح عليه السلام والخمسة الاخرى تمثل عدد جراحات المسيح المقدسة[٦٥] • وعلى ذلك فلا علاقة بين هذه السبحة وبين ثلث السبحة العربية الاسلامية كما يظن البعض والبالغ عدد حباتها ثلاثة وثلاثون حبة •

ومن الجدير بالذكر ان بعض اصحاب الديانات الوثنية في جنوب آسيا استعملوا ايضا السبحة في الذكر والصلاة • وقد يكون هؤلاء اقدم عهدا بها من النصارى في استعمالها ، ولا يعني هذا ان العرب المسلمين او النصارى قد اقتبسوها منهم •

ومن السبح التي عرفت عند الهنود القدامى سبحة عدد حباتها ١٠٨ حبة مصنوعة من جذع او اغصان شجرة مقدسة هي شجرة التلسي كانت تكرس لترداد اسم الاله فشنو Fishnu كما كانت عندهم سبحة ثانية لتقديس الاله سيبوا Siva حباتها اثنان وثلاثون او اربعة وستون حبة كانت تصنع من بذور شجرة الردراكشه Rudrahsha .

وهناك اشارات الى سبح لها مدلولات دينية خاصة منها واحدة كانت تنضد من اسنان الموتى من البشر[٦٦] •

واذا انتقلنا الى الاماكن التي كانت تحفظ فيها السبح عند العرب فلا شك ان الثمينة منها كانت تحفظ في اماكن خاصة • فسبحة المقتدر التى مر

---

(٦٥) The Catholic Encyclopedia, P. 362.

(٦٦) Ibid., P. 362.

ذكرها كانت تحفظ في خريطة خاصة بها . ولا شك ان البعض منها كان يعلق كما مرّ بنا .

اما بالنسبة الى سبح المتصوفة والشيوخ قد وردت اشارات الى ان البعض كان يضعها في العمامة(٦٧) . او تعلق عند عدم الاستعمال حول العنق(٦٨) او تلف حول الذراع ففي قصيدة مدح فيها ابو النواس الوزير الفضل الربيع الذي توسط لدى الامين باطلاق سراحه من السجن قال :

انت يا ابن الربيع الهمتني	وعودتنيه والخير عادة
فارعوى با طلي واقصر جهلي	وتبدلت عفه وزهاده
والمسابيح في ذراعي والمصحف	في لبتي مكان القلادة

واذا تركنا النصوص التاريخية ودراستها وانتقلنا الى البحث عن السبحة في المخلفات الاثرية التي ترجع الى العصر العباسي ، فلا شك ان المتاحف العالمية والمجاميع الخاصة زاخرة بالاف الخرز التي قد يكون الكثير منها في الاصل حبات سبح . غير انه لا يمكن اطلاقا البت في ان تلك الخرزات او بعضها هي هبات سبح وليست خرزات قلائد . ولهذا اتجهنا نحو التفتيش عن مصورات اشخاص ممسكين بايديهم سبحة . وعلى الرغم من التفتيش الدقيق بين رسوم المنمنمات الخاصة بالمخطوطات الموضحة بالصور ، او في الرسوم الجدارية او في الرسوم المحفورة على الاخشاب او رسوم التحف الخزفية وغيرها ، فاننا لم نحظ الا بمصورة واحدة فيها رجل بيده سبحة ، تعود الى اواخر العصر العباسي وذلك في منمنمة من منمنمات مخطوطة مقامات الحريرى محفوظة اليوم في المتحف البريطاني في لندن(٦٩).

---

(٦٧) السيوطي ، الحاوى ، جـ٢ ، ص ١٤٣

(٦٨) الالباني ، ص ١١٣

(٦٩) Or. 1200 - 177 .

والسبحة مثار البحث طويلة نسبيا رغم ان عدد الحبات الظاهر فيها هو ست وثلاثين حبة . واذا اضفنا الى هذا العدد ست او سبع حبات وهو العدد التقديري الذي يقع ضمن الجزء المحصور في يد الشخص المسك بها ، فيكون المجموع هو اثنان واربعون او ثلاثة واربعون حبة تقريبا ، بما في ذلك خاتمة السبحة الظاهرة في جهتها السفلية . ومن الطبيعي اننا لا نستطيع ان نعتبر هذا العدد من الحبات دليلا او قياسا للعدد الحقيقي الصحيح في السبحة العربية الاسلامية في العصر العباسي اذ ان رسوم المنمنمات وغيرها الممثلة في الاثار الاسلامية المختلفة خاصة في العصر العباسي لا يمكن ان اعتبارها الا تمثيلا رمزيا غير دقيق للمصورات المراد توضيحها . وفي الحقيقة لو اخذنا طول السبحة بالنسبة الى الشخص الذي يحملها او بقية الاشخاص الممثلين في المنمنمة (شكل ١ و ٢) بنظر الاعتبار ، لوجدنا انها لا تقل في الطول باي حال من الاحوال عن ٦٠ سم وهو طول يكفي لنضد ما لا يقل عن ١٨٠ الى ٢٠٠ حبة من الحجم المتوسط .

ومن الملاحظات الاخرى التي لدينا على هذه السبحة العباسية ان خاتمتها تنتهي بخصلة خيوط على نفس الشاكلة المعروفة اليوم في السبح بشكل عام . ولا ندري ان كانت عامة بالنسبة الى السبح جميعا . لان السبحة الظاهرة في المنمنمة هي ، كما جاء في النص ، من ضروب السبح النسائية . فقد ذكر في المقامة ، وهي المقامة الدمشقية بان ابا زيد السروجي (حامل المسبحة) : « شخص ميسمه ميسم الشبان ولبوسه لبوس الرهبان وبيده سبحة النسوان وفي عينه ترجمة النشوان ... »(٧٠) .

ومهما يكن من امر فلا شك ان ندرة تمثيل اشخاص بيدهم سبحة في العصر العباسي يعود الى سببين . السبب الاول هو ان النظرة العامة الى السبحة في ذلك العصر هو نظرة يعوزها الاحترام الكبير ، ويعتريها شيء من

---

(٧٠) ابو القاسم الحريري ، المقامات ، ص ١١٣ (طبعة مصر ١٨٧٤) .



شكل رقم (١)



شكل رقم (٢)

الكراهية • وعلى ذلك فان استخدام السبحة بين الناس كان نسبيا قليل جدا • والسبب الثاني هو ان مصوري وفناني ذلك العصر لم يولـوا المتصوفـة والدراويش شيء من الاهتمام في مصوراتهم • فنحن نعلم علـم اليقين ان الموضوعات التي صورت لنا في المخطوطات في العصر العباسـي كانـت ـ موضوعات علمية وطبية وادبية والقليل منها تاريخية • ولم يبدأ الرسامون في تصوير الموضوعات الدينية لا في العصور التي تلت العصر العباسي فكثرت عندئذ رسوم اشخاص يحملون بايديهم او يعلقون في اعناقهم سبح لا مجال للتطرق اليها في هذا البحث •

المدن التاريخية والحصون الاثرية
ـ في الشعر قبل الاسلام ـ

الدكتور عادل جاسم البياتي
استاذ مساعد
كلية الاداب ـ جامعة بغداد

سعى الانسان منذ وعى واقعه وتحسس وجوده على ظهر هذا الكوكب ، نحـو تثبيت ذاته وتأكيد وجوده ، متجاوزا ذلك الى مبالغة في الحرص على الخلود .

وقبل ان تظهر هذه الابعاد في ذهن الانسان متحولة الى غريزة ، لم يكن له تاريخ . فلما خرج من طور وحشيته الى مجال انسانيته بدأ التاريخ ، وبـدأ الاحساس بوطأة الزمن ، والعمل من اجل التحرر من شدة هذه الوطأة . فكان الصراع المرير بين الانسان وبين فنائه المحتوم ، سواء أكان هذا الفناء نازلا في الافراد أم الجماعات بالموت الفردي نتيجة الهرم او المرض ، أم بالموت الجماعي نتيجة عارض او من صنع البشر كالحروب ، او بسببهم كالمجاعات والطواعين .

وقبل ان يستقر العقل الانساني ناضجا في الجمجمة ، كان الانسـان مثل بقية الوحش ، لم يعرف ليخطط لنفسه كيف يتشبث بالبقاء والخلود ، وانمـا كـان اعتماد البشرية عـلى ما تمدهم بـه الطبيعة من مخلب وناب وقرن وقوة جسمانية هائلة ، ثم الاحتماء بالمسارب والمسالك والانفاق والكهوف التي تقدمها الطبيعة للبشر عن طيب خاطر من جراء ركام بركاني او قصـف سماوي او خسف زلزالي . فلما كبر عقل الانسان ضعف جسمه ، فاحتمى بالسلاح وبالقلاع والحصون والأطم والقصور ، واهتدى الى بناء المدن العامرة الحصينة . كل ذلك ليزيد في فترة عمره ويطيل من بقائه ويمـدد في رحلته الدنيوية ابعد مدى يقدر عليه . قال الجاحظ[1] « وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد ذلك على الشعر الموزون ، والكـلام

المقفى ، وكان ذلك هو ديوانها • ثم ان العرب احبت ان تشارك العجم في البناء ، وتنفرد بالشعر فبنوا « غمْدان » وكعبة « نجران » وقصر « مارد » وسد « مأرب » وقصر « شَعوب » و « الابلق الفرد » • وفيه وفي مارد قالوا : تمرّدَ مارد وعزّ الابلق ، وغير ذلك من البنيان » • ويؤكد الجاحظ فكرة الخلود ، لكنه ينطلق من فكرة العالم الذي يولي الفكر والروح العلمية عنايته اكثر من نشدان المظاهر المادية ، فيعطي للكتب اهمية لما لها من كبير الشأن في تخليد الذكرى فيقول : « والكتب بذلك اولى من بنيان الحجارة وحيطان المدر ، لان من شأن الملوك ان يطمسوا على اثار من قبلهم ، وان يجنبوا ذكر اعدائهم • فقد هدموا بذلك السبب اكثر المدن واكثر الحصون ، كذلك كانوا ايام العجم وايام الجاهلية ، وعلى ذلك هم في أيام الاسلام ، كما هدم عثمان صومعة غمدان ، وكما هدم الاطام التي كانت بالمدينة ، وكما هدم زياد كل قصر ومصنع كان لابن عامر ، وكما هدم أصحابنا بناء مدن الشامات لبني مروان »(٣) • وبذلك ارسل الجاحظ حكما صائبا عندما قرر بأن الاعمال الفكرية في العلوم والاداب والفنون والثقافة تبقى ، بينما تندثر الحصون ويزول العمران • لكن الفكرة التي يضغط عليها الجاحظ هي فكرة احتيال الانسان لتخليد نفسه ، سواء أكان بالشعر أم بالعمران • وقد حاول ابطال القصص والاساطير امثال گلگامش والاسكندر ان ينالوا الخلود المادي ، أي الجسدي ، فلم يوفقوا ، فاتجه الانسان الى الخلود المعنوي في الاعمال العمرانية والنتاجات العلمية والمفاخر والامجاد والبطولات والفروسية ومناشط الحياة الدنيا • لكي يذكر الانسان بعد موته ، وتكون هذه الذكرى امتدادا لسيرته ، ومن ثم يخالجه شعور بانه سيكون موجودا مع ان القبر سيغيبه • وهو نفس الشعور الانساني في امتداد حياة الرجل بعد موته في حياة ولده • ومن هنا يأتي قول الشاعر احمد شوقي في رثاء مصطفى كامل(٤) •

دقات قلب المــــرء قائلة لــه ان الحيـــاة دقائــق وثوانــــي
فارفعْ لنفسك بعد موتك ذكرها فالذكـر للانســـان عمـر ثان

وكشفت تنقيبات علماء الاثار في القصور المنتشرة في أماكن متباينة من بلاد العرب ، بان القدماء كانوا لا يكتفون بما يشيدون ليذكروا به ، بل كانوا ايضا يدفنون في اساس حصونهم وقصورهم رقعاً تحمل اسم العظيم الذي شاد البناء في عصره . وذلك زيادة في خلود الذكر[٥] . وقد يعمدون الى اكثر من ذلك فيدفنون في اسس البناء ، الاشعار التي كان الشعراء قد مدحوهم بها .

فذكرت كتب الثقافة العربية القديمة ، بأن المختار الثقفي عندما قاد حركته المشهورة في التاريخ مرّ بالقصر الابيض الذي شاده النعمان بن المنذر بالحيرة ، فقيل للمختار ، ان تحت القصر كنزاً ، فعمد اليه فاحتفره ، فاذا هي اشعار مكتوبة في طنوج - كراريس - كان الشعراء قد مدحــوا النعمان واهل بيته بها . ثم يستمر الخبر فيقول : فمن ذلك ، اهل الكوفة أعلم بالشعر من البصرة ، بسبب ما بأيديهم من هذه الاشعار[٦] . ومع ذلك فجميع الحصون والقصور والقلاع القائمة في بلاد العرب الى اليوم لم تتضمن بين كتاباتها ونقوشها واثارها بيت شعر واحد من العصر السابق للاسلام . ولاغرابة في ذلك ، فلم يكن هذا دأبهم في الجاهلية ولا في الاسلام . فان جميع الصروح والابنية العربية لم تتخذ من الشعر حلية تزين بها واجهاتها ، فلم ينقش على واجهة قصر عباسي او غيره بيت شعر واحد لاحد المشاهير مثل حسان او جرير او أبي تمام او ابي الطيب . فاذا كان هـذا شأنهم فـي اسلامهم ، فأحرى بهم الا يفعلوه في جاهليتهم . اما اذا كانت المباني لـم تتزين بالاشعار ولم تتخذها حلية ونقشا لها ، فانّ العكس منه قد حصل فعلا . فقد جاءت الاشعار حافلة بذكر الابنية والمدن وما يتعلق ببنائها ، وما رافقها من الاحداث وهكذا يظل الشعر على الدوام وفيا للحضارة والتمدن ،

ولا تقدم الحضارة للشعر شيئا مقابل هذا الوفاء ، بل يحاول عصر التكنولوجيا « التقنية » ان يلغي عالم المحسوسات ، ويخلق عالما ماديا ملموسا بلا شعر • على انني قبل ان ادخل في اعماق المدن والحصون اود ان اوضح بأني لم اذكر المواضع الواردة في الشعر الجاهلي بكثرة ، فهي مواضع قبائل او مياه او جبال او وديان • ولم اتطرق الى المدن التي لم تزل قائمة الى اليوم ، بـل توخيت ذكر المدن الداثرة والحصون الشاخصة • وسأذكر الحصون ضمن القصور ، لانها اتخذت لنفس اغراضها • فاذا كانت هذه تقي الانسان من الحرب والغزوة والغارة ، فتلك يتخذها الانسان ، يتحصن بها ايضا ضـد البرد والحر وضد حيوان الجو والبر • ويتقى بها اللصوص والعابثين ، ويتجنب بها هتك الاستار والاعراض واعين الفضول • ومتى وقعت عيوننا على المعابد والهياكل والكعبات في الشعر تجاوزناها ، وان كانت تؤدي مهمة الحصن والقصر في الحماية والدفاع فضلا عن العبادة • وقد كانت في الحصون والقصور عبادة ايضا ، فكان الاله يوضع في ركن منها •

واما مقدمات القصائد الطللية ، فهي عندي تدخل في باب رثاء المدن ، والفرق بينها وبين ما نحن بصدده ، انها مدن الشاعر نفسه • اما المـدن التاريخية ، فهي لم تحتفظ لنفسها من مخيلة الشاعر بمثل هذه القدسية •

واول ما يستنتجه الباحث من ظاهرة المدن والقصور والحصون ، ان ذكرها يرتبط لدى الشاعر بنزعة غيبية مغرقة ، حتى انه ليعزو كل ظواهـر العمران من مدن او قصور او حصون الى جهود غير بشرية • وستلقانا مدينة « تدمر » تبنى بأيدي الجن بأمر من سليمان الملك • وكذلك قصر غمدان وغيرهما • وهذه الظاهرة ليست غريبة على العرب القدماء ، ولاعلى غيرهم ، فجميع شعوب الارض تعتقد ان موطنها كان قبلها مسكونا من اناس عماليق، وان الاثار الشاخصة والمباني الشامخة لم تشيدها ايدي البشر ، بل كائنات

قادمة من الغيب • حتى ظن المصريون واهل المكسيك ان اهراماتهم بنتها مخلوقات ذكية قادمة من الكواكب •

ان مرد هذا الاعتقاد هو تقديس الماضي ، ونظرة الانسان بعين التعظيم الى الاباء والاجداد ، والنظرة الوثنية في تكريم التراث ، وهو الذي جعل الوقوف على الاطلال وبكاء الديار عادة او سنة تتبع لدى شعراء العصر الجاهلي ، حيث يقفون في استغراق تام ، كأنه نسك وثني قديم ، يؤديه الشاعر الجاهلي عن طريق الوراثة والتقليد • وقد يعي بعض معطياته ، وقد يجهل الجانب المهم منه • اذ كل شيء لدى الوثني كائن ينبض بالروح والحياة ، حتى حجر الطلل واثافي القدر ، فكان يعبدها •

والملاحظة الثانية التي سجلناها على هذا الشعر ، ان الشعراء لم يكونوا قد استوفوا الظاهرة الاثرية بكامل تفاصيلها ، بل ذهبوا الى معاني الاثر اكثر من مادياته • وهي نظرة اخذ بها العلم الحديث ، فلم تعد « العادية » ولا التحفه الاثرية ذات قيمة مادية فحسب ، بل اصبحت قيمتها فيما تعطى من معاني وما يستنبط منها في مجال الثقافة والعلم والقيم الانسانية الكبيرة • لذلك لم يدخل الشاعر العربي في دقائق الاثار ، بل اكتفى بالنظر الى واجهة القصر مثلا فوصف الكتابات والنقوش ، وشبه بها ما تقع عينه عليه في الحياة اليومية ، مثل تشبيه بقايا الديار ببقايا الاثار والكتابات القديمة على الجدران، لان الشاعر العربي القديم كان كثير الطواف في البلاد ، فكان يمر بالصحارى فيرى الحصون فينيخ راحلته ويتأمل الكتابات القديمة على واجهة القصور والحصون وشواهد القبور ، ثم يشبه بها اثار السيول وبقايا الغدران واثار القبيلة الراحلة • والامثلة بهذا الصدد اعظم من ان تحصى وتعد • وما اكثر ما يتخذ الشاعر موقفا عاطفيا او حماسيا او مدحيا ، فيستعين بهذه الحصون والمدن ، تمده بالقصص والاخبار والاساطير الغزيرة •

والملاحظة الاخرى التي اخرجناها من هذا الشعر ، انه لم يكن يذكر

المدن والحصون لذاتها هي ، ولم يكن يقصد لها لغرض الحكاية والقصة ولا التاريخ والوثيقة والتدوين ، وانما رمى من وراء ذلك الى العبرة والموعظة. فكل ذكر لمدينة او وصف لحصن او قصر ان لم يكن لموقف مدحي او حماسي او غزلي ، انما جاء ليؤكد به الشاعر معنى كان قد ألمح به ثم اراد ان يثبته في ذهن السامع او القارىء .فضرب المثل بان الحياة زائلة ، وبعبارة ادق ان الثراء والنعيم والملك لا يدوم ، وان الموت او الفناء هو الخاتمة الطبيعية والنهاية المأسوية لكل الاشياء ، بشر او حيوان او مادة . وانه ما من عظيم مهما بنى وشيد واعتصم وتحصن ، فان الموت يدركه ولو كان ، كما ذكر القران الكريم (في بروج مشيدة) . وهذا نابع من طبيعة الفكر المرتبط بالحكمة نتيجة لما ذكرنا انفا من انه بعد ان خاب سعي الانسان الاول من تحقيق طموحه في خلود مادي جسدي ، أخذ طريق الحكمة في تأكيد فكرة الفناء ، وان خلود الانسان في اعماله وافعاله وفق قيم العصر ومثله . وهي نتيجة آل اليها الفكر السامي عموما في جميع نتاجاته الفكرية . وهي بداية ادب المرحلة الواقعية التي لم تنفصل نهائيا من جذورها المثالية واصولها الغيبية . وغالبا ما يردد الشاعر بعد ان يورد خبر المدينة او وصف الحصن ، بأن كل شيء يصير الى الزوال، وانه لانجاة لاحد من الموت ، مثل قول عدي بن زيد العبادي(٧) :

لا ارى حصناً ينجّي أهلــه   كــل حــي لفنــاءٍ ونَفَــدْ

فلما تحدث عدي عن مدينة صنعاء وقصورها وحصونها الزائلة ، ظل على نفس اتجاهه في عدم جدوى الحياة ، وانه لا مفر من مأساة النهايــة الحزينة(٨) :

مابعد صنعاء كــان يعمرهــا   سادات ملــك جزل مواهبها
يرفعهــا من بنــي لــدى قــزع المزن وتنــدى مسكا محاربها
محفوفة بالجبــال دون عــرى الكيد فيهــا ترقى غواربهــا
يأنس فيها صوت النهــام اذا   جاوبهــا بالعشــيّ صاقبهــا

ساقت اليهـا الاسباب جند بني الاحرار فرسانها مواكبهـا
وفوّزت بالبغـال توسق بالخيـف وتسـعى بهـا توالبهـا
حتى رآها الاقوال من طـرف المنقل مخضرّةً كتائبهـا

واخرج العرب في كتبهم ، ان اسم صنعاء في سالف الدهر ، هـو (اوال) فبنتها الحبش واتقنتها ، فلما هزمهم وهرز الفارسي وجاء يدخلها قال :

ـ صنعة ! صنعة !! ..

مندهشا . فسميت صنعاء[9] .

وعند مناقشة هذا الخبر ، نخرج بنتيجة هي ان العرب كانوا يعزون فاخر البنيان وعجيبه الى غيرهم ، كما فعلوا في عزوه الى الجن ، وهو منطلق اخر ، مؤاده بقايا الصراع القديم في الذهنية السامية لمرحلة الانتقال من المجتمعات الرعوية المتحركة الى المجتمعات الزراعية ذات المستوطنات المستقرة ، ثم ظهور المدن . وهي ظاهرة احتقار الانسان البدوي يومئذ للمهنة مهما كانت ، والتي امتد تأثيرها في شعرهم ، لدرجة انهم فضلوا ظهور ابلهم وخيولهم وسيوفهم على اللجوء الى المدن والحصون والقلاع والجدران العالية . قال امية بن ابي الصلت يؤكد ان العرب حصونها خيولها[10] :

وارصدنا لريب الدهـر جرداً تكون متونهـا حصنـاً حصينـا
وخطيـاً كأشـطان الركايـا واسيافـاً يقمـن وينحنينـا
وشباناً يرون القتـل مجـداً وشيباً فـي الحروب مجربينـا

وذكر المتلمس في شعر له جملة من الحصون نوردها فيما بعد ، ثم عقب عليها بان العرب حصونها سيوفها[11] :

أبقـتْ لنـا الايـام واللزبـات والعانـي المرهّق
جرداً بأطناب البيـوت تـعـلُّ مـن حلـب وتغبق
ومثقفـاتٍ ذُبَّـلاً حصـداً اسـنتها تألّـق

والبيـــض والزعف المضاعـــف نســـجه حلـــق موثـــق
وصوارمـــاً نعصي بهـــا فيهـــا لنـــا حصـــن وملـــزق
ومحلـــة زوراء فـــي حافاتها العقبـــان تخفـــق

وقال حاتم الطائي يؤكد بان ساكن العلياء مثل ساكن الصحراء في نظر الموت(١٢) :

وما اهل طود مكفهر حصونـه — من الموت الا مثل من حل في الصحر
ومـــا دارع الا كاخـــر حاسرٍ — وما مقتر الا كآخر ذي وفـــر
تنوط لنا حب الحياة نفوســـنا — شقاء ويأتي الموت من حيث لا ندري

وقد يقف السيد العظيم عندهم في منزلة الحصن ، يلوذ به الناس ، فان مات او هوى ، تقوض ذلك الحصن وانهدم ، واصبح الناس في العراء غرضاً يرمى • وهي فكرة تؤكد ان العرب حصونها رجالها • قال مهلهل بن ربيعة يرثي اخاه كليباً(١٣) :

هدت حصون كن قبـــل ملاوذاً — لذوي الكهول معـــاً وللشـــبان
اضحت واضحى سورها من بعده — متهـــــدم الاركان والبنيان
فابكينَ سـيد قومـه واندبنـه — شدت عليه قباطي الاكفـــان

وقد جسد هذه المعاني حصن بن حذيفة الغزاري سيد غطفـان في الجاهلية ، حين أرسل الى عمرو بن هند واخيه النعمان يقـول : ما كنت قط افرغ لحربك مني الان ولا اكثر عدة ، فان كنت لا يكفيك ما جرّب ابوكـ قدوتك لا تعتلل ، فانه ليس لي حصن الا السيوف والرماح ، وأنـا لك بالفضاء » • وهذا يدلنا على أن العرب حصونها صحراؤها • قال زهير بن ابي سلمى يمدح حصنا هذا ويؤكد بان العرب معاقلها سيوفها :

ومن مثل حصن في الحروب ومثله لانكار ضيم او لأمر يحاوله أبى الضيم والنعمان بحرق نابه عليه فأفضى والسيوف معاقله وقد روى الخبر والابيات الامام ثعلب في شرحه لديوان زهير •

بعد هذه المناقشة لفكرة بناء الاجانب والجن للمدن والحصون نعود الى (أول) الاسم القديم لصنعاء . فلو شئنا أن نراعي الدقة في تسميته (لأوال) فانها في الحقيقة تطلق على ما صارت تعرف اليوم بالبحرين .

وقد اكد ذلك البكري[١٤] حيث قال بانها قرية كانت بالبحرين من قرى السِّيف . ويقال جزيرة ، يدل على ذلك قول ابن مقبل[١٥] :

عمد الحداة بها لعارض قرية ... وكأنها سفن بسيف أوال

وحذا حذوه جرير[١٦] :

وشبهت الحدوج غداة قَوٍّ ... سفين الهند روّح من أوالا

والاخطل[١٧] :

خوص كأنّ شكيمهن معلق ... بقنا ردينة أو جذوع أوال

وهو تشبيه أخذ من قول عدي بن زيد في فرسه[١٨] :

له كتفان علاويتان ... كصنع أوالية من أرم

وانشد سيبويه للنابغه[١٩] .

ملكَ الخورنق والسدير ودانه ... ما بين حمير كلها وأوال

وقصبة صنعاء هي غمدان ، ذكرها ابو الصلت الثقفي يمدح ابن ذي يزن[٢٠] :

فاشرب هنيئا عليك التاج متكئاً ... في رأس غمدان داراً منك محلالا

وكان قصر غمدان عشرين سقفا طباقا ، بين كل سقفين عشرة أذرع ، فكان ارتفاع بنائها مئتي ذراع . قال الهمداني[٢١] :

مازال سام يزور الارض مطلباً ... للطيب خير بقاع الارض يبنيها

وهذا البيت يؤكد ما ذكرناه بان الساميين كانوا قوماً بنائيين . وإنما احتقار المهن من أوليات البدو فحسب .

وذكر الأعشى حصن ذي يزن هذا فقال[٢٢] :

فهل يمنعني ارتيادي البلاد ... من حذر الموت أن يأتينْ

ازال اذينة من ملكه ... واخرج من حصنه ذايزن

وخـــان النعيـــم ابـــا مالـــك　　واي امـــرىء لم يخنـــه الزمـــن

وقال ايضاً في قصر غُمدان[٢٣] :

واهـــل غمـــدان جمعـــوا　　للدهـــر مـــا يجمـــع الخيـــار

فصبحتهـــم مـــن الدواهـــي　　جائحـــة عقبهـــا الـــدمـــار

وقـــد غنوا في ظـــلال ملـــكٍ　　مـــؤيد عقلهـــم جفـــار

وقصر المملكة بظَفَار هو قصر ذي ريدان ، ذكـــره امرؤ القيس في شعر[٢٤]:

وابرهـــة الـــذي زالـــت قـــواه　　عـــلى ريدان اذحـــان الـــزوال

ويقال ان الجن بنت قصر غمدان ومدينة ظفـــار وقصر ســـلحين وقصر بيتون وقصر صرواح • وظفار من مدن اليمن ايضا قال تبع[٢٥] :

ظفرنـــا بمنزلنـــا مـــن ظفـــار　　ومـــا زال ســـاكنها يظفـــر

وسلحين قصر بلقيس المشهور بقصتها مع سليمان الملك • وهـــو مـــن قصور مأرب ، ينضم اليه قصر القشيب وقصر الهجر • قال الشاعر[٢٦] :

بـــل أيـــن مـــن قبلهُم لمن ذكر　　اهل القشيب ذي البهاء والهجـــر

واهـــل صرواح وضهر وهكـــر　　بددهم ريب الزمـــان عـــن قـــدر

ومأرب معروفة بسدها ، وهو الذي عصف به السيل العرم الذي ذكره الله تعالى في تنزيله[٢٧] •

وقال فيه الأعشى[٢٨] :

من ســـبأ الحاضرين مـــأرب اذ يبنـــون مـــن دون ســـيله العرمـــا

ويروي لنا الأعشى في قصيدة أخرى قصة العرم والسد[٢٩] :

وفي ذاك للمؤتســـي أســـوة　　ومـــأرب عفـــى عليها العـــرم

رخـــام بنتـــه لهـــم حميـــر　　اذا جـــاءه ماؤهـــم لـــم يـــرم

فـــأروى الـــزروع واعنابهـــا　　عـــلى ســـعة ماؤهـــم اذ قســـم

فعاشـــوا بذلـــك في غبطـــة　　فجـــار بهـــم جـــارف منهـــزم

فطـــاروا ســـراعا وما يقـــدرون منه لشـــرب صبـــي فطـــم

وتذكر معجمات البلدان ان مأرب اسم قبيلة من عاد ، سمي به هـذا الموضع • وذكرت هذه المعجمات أيضاً ان الذي بنى السد لقمان بن عاد ، ويقال لقمان بن الكير ، صاحب النسور • واقتـران لقمان بمأرب أمـر مشهور • وذكر صاحب كتاب الأكليل[٣٠] ، انه رأى العرم بمأرب • ووصفه مما يدل على انه كان الى عصر الهمداني يبدو في حالة عمرانية جيدة •

ويتصل قصر ريمان بقصور اليمن ، كان بظفـار أيضا ، ولعله القصـر الـذي ورد اسمه عنـد الهمدانـي باسـم (غيمان)[٣١] • وقـال الاعشى فيه[٣٢] :

يـا مـن رأى ريمـان أمسـى خاويـا خربـا كعابـه
أمسـى الثعالـب اهلـه بعـد الـذين همـو مآبه
مـن سـوقة حكـم ومـن ملك يعد لـه ثوابـه
بكـرت عليـه الفـرس بعـد الحُبش حتـى هُدّ بابـه
فتـراه مهـدوم الاعـالي وهـو مسـحول ترابـه
ولقـد اراه بغبطـة في العيشـ مخضراً جنابـه
فخـوى ومـا مـن ذي شـباب دائـم أبـداً شبابـه

وكعاب المذكورة في البيت الاول جمع كعبة ، مما يوضح لنا بان هذه الحصون لم تكن للحرب فقط ، بل كانت تحمي الاله الـذي فيها • ويقول البكري أن ريمان هذا كان حصناً حصيناً لـه باب واحِـد قال عنها أوس بن حجر[٣٣] •

ولو كنت في ريمان يحرس بابه أراجيـل احبوش واغضف الف

وقال ابن مقبل[٣٤] :

وما طويت ابنة البكري من أمم من اهـل ريمـان الاحاجة فينا

ومن قصور البحرين المشقر . قال فيه طرفة بن العبد منطلقاً من نفس المبدأ في ان المنية تدرك الانسان وان كان في حصن المشقر(٣٥) :

وتقــول عاذلتــي وليس لها بغــد ولا ما بعــده علـمُ
إن الثــراء هــو الخلــود وان المــرء يكــرب يومــه العــدم
ولئـــن بنيـــت لــي المشــقر في هضب تقصّر دونـــه العصم
لتنقبـــن عنـــى المنيـــة ان اللـــه ليس كحكمـــه حكـــم

وقال الأعشى(٣٦) :

فان تمنعوا منا المشــقر فالصفا فانا وجدنــا الخط جماً نخيلها
وان لنــا درنى فكـــل عشـــية يحط الينـــا خمرها وخميلهـا

ومدح الاعشى هوذة بن علي الحنفي فجاء بخبر المشقر وقد حبست فيه بنو تميم وذلك في يوم الصفقة(٣٧) :

سائل تميماً بـــه ايام صفقتهم لما راهــم اســـارى كلهم ضرعا
وســـط المشقر في عيطاء مظلمة لا يستطيعون فيها ثـــم ممتنعا

وقال بشامة بن الغدير(٣٨) :

كـــأن ظعنهـم والآل يرفعهـــا نخـل المشقر أو ما ربيت هجــر

وقال ابن مفرغ(٣٩) :

وشـــريت بـــرداً ليتنـــي مـــن بعـــد برد كنـــت هامة
او بومـــة تدعـــو صـــدى بـــين المشـــقر واليمامـــة

قال ياقوت : هو حصن كان بين نجران والبحرين ، يقال أنه من بنـاء طسم ، كانت تسكنه عبد القيس . واليمامة من منازل طسم معدودة مـن نجد ، بينها وبين البحرين عشرة ايام . قال ابن مفرغ(٤٠) :

تركـــت قريشاً ان اجـاور فيهم وجاورت عبدالقيس أهل المشقر

وذكر البكري ان المشقر قصر بالبحرين او هي مدينة هجر • وبنى المشقر معاوية بن الحارث بن معاوية الملك الكندي • وكانت منازلهم ضرّية فانتقل الحارث الى الغمر ، ثم بنى ابنه المشقر • قال امرؤ القيس الكندي :

او المكرعات من نخيل ابن يا من   دوين الصفا اللائي يلين المشقرا

واما ابن الاعرابي فيقول : المشقر مدينة عظيمة قديمة في وسطها قلعة على قارة تسمى عطالة • قال المخبل(٤١) :

لعمري لقد خارت خفاجة عامراً   كما خيربيت في العراق المشقر

وقد ورد ذكر اليمامة قبل سطور ، وهي مدينة ذكرها ياقوت الحموي في معجمه ، وقد كانت تعرف بجو ايضاً ، وقاعدتها حجر ، كان فيها مدن وقرى عامرة عند ظهور الاسلام • ومن قراها « منفوحة » مسقط رأس الشاعر الأعشى ، احد عمالقة الشعر الجاهلي • وكان فيها قبره أيضا • وقد عدها ياقوت من نجد(٤٢) • قال عبيد بن ثعلبة ، وقد دخل اليمامة فرأى قصورها ونخيلها(٤٣) :

حللنا بدار كان فيها انيسها   فبادوا وخلوا ذات‌شيد حصونها
فصاروا قطيناً للفلاة بغربة   رميماً وصرنا في الديار قطينها
فسوف يلينا بعدنا من يحلها   ويسكن عوض سهلها وحزونها

وعوض صنم ، وكان يرمز للدهر ، لان عوضاً من اسماء الدهر • وفيه شعر لرشيد بن رميض العنزي(٤٤) • وقال رجل قديم من عنزة بخبر ان عوضاً والسعير صنمان(٤٥) :

حلفت بما ئرات حول عوض   وانصاب تركن لدى السعير
اجوب الدهر ارضاً شطر عمرو   ولا يلقى بساحتها بعيري

و (جو) هي اليمامة ، وان ذكروا أن (جوف) هو اليمامة وقصبتها أيضا(٤٦) ، لكن الشائع ان (جو) هو الاسم القديم لليمامة ، فلما قتل

حسان بن تبع زرقاء اليمامة في خبر طويل ، ابدل اسم (جو) باليمامة وقال[٤٧] :

وقلنا فسموها اليمامة باسمها
وسرنا فقلنا لانريد اقامه

وذكر النابغة شعراً عن زرقاء اليمامة وكيف عندت اليمام الطائر . ولعل اسمها جاء من هذه الحسبة التي حسبتها في الجو[٤٨] . وقال الأعشى في قصة زرقاء اليمامة ومدينة (جو)[٤٨] :

مانظرت ذات اشفار كنظرتها — حقاً كما صدق الذئبي اذ سجعا
اذ نظرت نظرة ليست بكاذبة — انسان عين وموقاً لم يكن قمعا
قالت ارى رجلاً في كفه كتف — او يخصف النعل لهفي اية صنعا
فكذبوها بما قالت فصبحهم — ذوال حسان يزجي الموت والشرعا
واستنزلوا اهل جو من مساكنهم — وهدموا شاخص البنيان فاتضعا

يشير بذلك الى قصة مقدم حسان بن التبع والخدعة العسكرية التي لجأ اليها عندما اقتلع جيشه اشجار غابة قريبة اختفى خلفها وسار ، فابصرتهم اليمامة من بعيد فانذرتهم فلم يصدقوها ، فغزاهم حسان في قعر دارهم وقتل الزرقاء وابدل اسم جو باليمامة .

وقال الاعشى ايضاً[٤٩] :

تجانف عن جو اليمامة ناقتي — وما عدلت عن اهلها لسوائكا

وقال ايضاً[٥٠] :

وان امرءاً قد زرته قبل هذه — بجو لخير منك نفساً ووالدا

يعني هوذه بن علي الحنفي صاحب اليمامة ويذم الحارث بن وعلة . ويوجد موضع في بلاد طي يقال له (جو) ذكره امرؤ القيس في شعره[٥١] .

فجاد قسيساً فالصهاء فمسطحاً   وجوّاً فروّى نخل قيس بن شمرا

قال الهمداني : هو قسيس بن عبد جذيمة الطائي • وشمر في حمير وطيء ولعل الطائيين اطلقوا على مواطنهم الجديدة بعد خروجهم من اليمامة بعد العرم اسماء الوطن الاول الذي نزحوا منه • وذكر الأعشى من بلدان اليمامة اسم «يترب» وبلاد بفتح الباء وهما بلدتان معروفتان بصنع السهام[٥٠]:

ولقد أتاك الوصل في متمنع   صعب بناه الاولون مصاد
أنّى تذكرودها وصفاءها   سفهاً وانت بصوّة الأثماد
منعت قياس الماسخية رأسه   بسهام يترب او سهام بلاد

ولعل تسميته مدينة الرسول بيثرب في الجاهلية ، كان متأتياً من هذه البلدة بعد نزول اليثربيين بها احياء لذكرى مدينتهم القديمة ، لا سيما اذا لاحظنا صيغة الاعلام المشابهة لصيغة (يثرب) مثل يشكر ويرعش ويكرب ويكسم وغيرها من صيغ العربية الجنوبية •

وقال امرؤ القيس ايضا[٥١] •

تظل لبوني بين جو ومسطح   تراعي الفراخ الدارجات من الحجل

وجو ايضا موضع في ديار بني أسد ، أرشدنا اليه شعر زهير بن أبي سلمى[٥٢] :

لئن حللت بجو في بني أسد   في دين عمرو وحالت بيننا فدك
ليأتينك مني منطق قذع   باق كما دنس القبطية الودك

ولعلهم تأثرو بجيرانهم الطائيين ، او ان الموضعين يتفقان في طبيعتها او ان (جو) الاسدية لها ملامح (جو) اليمامة •

وتعد الحجر قصبة اليمامة او قاعدتها، وهي حجر ثمود[٥٣] • وكان يقال ان ثمود بقية من عاد الاول الذين كانت (ارم ذات العماد المذكور في القرآن

الكريم ارضهم او مدينتهم . قال عبدالله بن همام وهو اسلامي متقدم(٥٤) :

وكـان قاتلـه منكـم لمصرعـه ... مثل الاحيمر اذ قفـى على ارم

والأحيمر أحمر ثمود ، وهو لقب قدار بن سالف ، عاقـر ناقة صالح لذلك لا يعد غلطاً ، كما وهم العلماء القدمـاء ـ من زهير بن ابي سـلمى قوله(٥٥) :

فتنتج لكـم غلمان اشـأم كلهم ... كأحمر عاد ثم ترضع فتفطـم

فنسب أحمر ثمود الى اصلهم عاد الأولى .

قال الاعشى في ارم وعاد وطسم وجديس وقصر غمدان ووبار(٥٦) :

ألـم تـروا ارمـاً وعـادا ... اودى بهـا الليـل والنهـار
بـادوا فلمـا أن تـآدوا ... قفـى عـلى اثرهـم قـُدار
وقبلهـم غالـت المنايـا ... طسـماً ولم ينجهـا الحـذار
وحـلَّ بالحيّ مـن جديس ... يـوم مـن الشر مسـتطار
واهـل غمـدان جمعـوا ... للـدهر مـا يجمـع الخيـار
فصبحتهـم مـن الدواهـي ... جائحـة عقبهـا الدمـار
وقـد غنوا في ظـلال ملـك ... مؤيـد عقلهـم جفـار
واهـل جـوّ اتـت عليهم ... فأفسـدت عيشـهم فبـاروا
ومـرَّ حـد عـلى وبـار ... فهلكـت جهـرة وبـار
ان لقيمـاً وان قيـلاً ... وان لقمـان حيث سـاروا
لم يدعـوا بعدهـم عريبـاً ... ففنيـت بعدهـم نـزار

وقال عدي بن زيد العبادي(٥٧) :

اين اهل الديار من قوم نـوح ... ثـم عاد مـن بعدهم وثمـود

ويجد الأعشى في جوّ مناخاً ملائماً لخياله الخصب ، فيتخـذ منهـا مطلعا غزليا لشعره في محبوبته(٥٨) :

عرفـــت اليوم مـــن تيا مقاما   بجـــو أو عرفـــت لها خيامل
ثـــم يتخـــذ مـــن اثـــار مدينـــة الحجـــر موضوعاً وصفياً :
أوَ لـــم تـــرى حجراً ـ وأنت حكيمـــة ـ ولمـــا بهـــا
ان الثعالـــب في الضحـــى يلعبـــن في محرابهـــا
والجـــن تعـــزف حولهـــا   كالحبُشـــس في محرابهـــا
فخـــلا لذلـــك ما خـــلا   مـــن وقتهـــا وحســـابها

وتدخل حجر في شعر المخبل ايضاً في موضوع غزلي(٦٠) :

وما ذكره سلمى وقد حال دونها   مصانـــع حجر دوره ومجادلـه

والمجادل هنا : القصور الشاهقة .

ويجري في نفس اتجاه الحكمة الجاهلية العريقة قول الأفوه الأودي في هلاك عاد وقدار وكيف بادت قبائلهم(٦١) :

أضحوا كقيل بن عمرو في عشيرته   اذ اهلكت بالذي سدى لها عاد
او بعـــده كقـــدار حين تابعـــه   على الغواية اقـــوام فقـــد بـــادوا

وفي اليمامة حصن غير الحجر ، هو حصن (الجون) يقال انه مصانع طسم وجديس أيضا . قال فيه المتلمس(٦٢) :

الـــم تـــر أن الجون اصبح راسياً   تطيـــف بـــه الايـــام مـــا يتاييّـــس
عصى تبعاً أيام أهلكت القـــرى   يطـــان عليـــه بالصفيـــح ويكلس

وبعضهم يقول بان تبع لما غـــزا القرى والمـــدن لم يصـــل الى اليمامـــة لحصنها المنيع : الجون . لكننا لاحظنا قبل قليل بان حسان تبع هـــو الـــذي اطلق اسم اليمامة على (جو)وقضى على الجد يسيين بعد أن كانوا قد قضوا على الطسميين . قال المسيب بن علس يذكر قصة زرقاء اليمامة وجيش حسان الذي يشبه الموج المتلاطم(٦٣) :

لقد نظرت عين الى الجزع نظرة — الى مثل موج المفعم المتلاطم
الى حمير اذ وجهوا من بلادهم — تضيق بهم لأياً فروج المخارم

وبعد اليمامة تتناول بالبحث مباني تهامة • وهي من اقسام بلاد العرب المعروفة • ومدّ البكري حدودها من مداخل مكة حتى تبلغ البحر ، وتنحصر بين هذين الحدين ، المواضع الاتية : الاثاية وعتيقة وبلاد عك وثنا العرج واقصى بلاد فزارة(٦٤) • وبعبارة اخرى تبدأ تهامة من بحر القلزم مكونة المنطقة الساحلية الضيقة الموازية لامتداد البحر الاحمر • ويقال لارضها في اليمن [تهامة اليمن] • وللعرب في اسم تهامة اقوال لغوية(٦٥) • الا ان الكشوفات العلمية قالت بأن لفظة Tiomtu البابلية التي تعني البحر لها علاقة بلفظة تهامة و Tchom العبرانية(٦٦) •

وورد ذكر لحصن تهامة المصنوع من القرميد (الآجر) والكلس والجير في شعر الأعشى(٦٧) متخذاً منها موضوعاً تشبيهياً لناقته :

قطعت بصحراء السراة شملة — صروح السرى والقب من كل مسأد
بناها السوادي الرضيخ مع الخلى — وسقيي واطعامي الشعير بجحفد
لدى ابن يزيد او لدى ابن معرف — يفتّ لها طوراً وطوراً بمقلد
فاضحت كبنيان التهامي شاده — بطين وجيار وكلس وقرمد
شددت عليها كورها فتشددت — تجور على ظهر الطريق وتهتدي

وبعد تهامة تتناول مباني تيماء ، ونخص بالذكر حصنها الحصين المعروف بالأبلق ، والموصوف بالفرد ، فكان يقال له : الابلق الفرد • وتيماء موطن قبيلة طيء ، والابلق حصن نزله الشاعر السموأل بن عادياء • وذكر المعجميون العرب بان تيماء على طريق المسافر من المدينة حيث تمر بالصهباء واشمذين لبني أشجع والعين وسلاح لبني عذرة ، ثم مسيرة ثلاث ليال في الجناب ثم تيماء لطي • وكان حمل بن مالك بن النابغة ، يسكن الجناب ،

وبينه وبين تيماء حصن الابلق الفرد الذي كان ينزله السموأل[٦٨] • ورسم البكري طريقا اخر يمر بمدينة الحجر المذكورة في اليمامة وطرقا أخرى في الفلوات تصل الى تيماء •

وقال عنها انها مدينة لها سور على شاطىء بحر طوله فرسخ ، وبها بحيرة يقال لها العقيرة ، ونهر يقال له فيحاء وهي كثيرة النخل والتين والعنب • ولها طريق الى الشام يمر بحوران • اما الابلق حصن السمؤأل فيضرب به المثل في الحصانة والمنعة ، فقيل في المثل : تمرد مارد وعز الابلق •

ومارد حصن معروف نأتي على ذكره • ويعزى المثل الى الزباء ملكة تدمر، وكانت تقتحم الحصون ، فامتنع عليها هذان الحصنان • وزعموا ان الملك سليمان بن داود هو الذي بنى الابلق ، وقد ذكره الاعشى في شعره عندما روى قصة وفاء السموأل لدى مهاجمة الملك الغساني او الحارث بن ظالم المري ، وذلك بعد سفر الشاعر امرىء القيس الى قيصر روما ، فحاول الحارث ان ينتزع الأمانة التي استودعها امرؤ القيس لدى السموأل ، وهي عبارة عن دروع واسلحة ، فرفض السموأل تسليمها واغلق باب الحصن • وصادف ان كان أحد اولاد السموأل خارج الحصن ، فلما عاد امسك به الجيش واخذه رهينة ليساوم به اباه السموأل ، الا انه أبى وامتنع عن تسليم السلاح فذبحوا ولده امام عينيه[٦٩] • وعندما مدح الاعشى احد احفاد السموأل ذكره بملحمة الوفاء هذه فقال[٧٠] :

كن كالسموأل اذ طاف الهام بـه ... في جحفل كسواد الليـل جـرار
جـار ابن حيا لمن نالته ذمتـه ... أو فى وامنع من جار ابن عمار
بالابلق الفرد من تيماء منزلـه ... حصن حصين وجـار غير غدار
اذ سامه خطتي خسف فقال لـه ... مهما تقلـه فأنـي سامع حـار
فقال : ثكل وغدر أنت بينهمـا ... فاختـر وما فيهمـا حظ المختار
أ أقتل ابنك صبراً أو تجيء به ... طوعاً فأنكـر هـذا أي انكـار

فشك غير قليل ثم قال لـه ... اذبح هديك اني مانع جاري
ان لـه خلفاً ان كنت قاتله ... وان قتلت كريماً غير عوار
مالاً كثيراً وعرضاً غير ذي دنس ... واخوة مثله ليسوا باشرار
جـروا على ادب مني بلا نـزق ... ولا اذا شمرت حرب بأغمار
وسوف يعقبنيه إن ظفرت بـه ... رب كريم وبيض ذات أطهار
لا سرهن لدينا ضائع مـذق ... وكاتمات اذا استودعن اسراري
فقال تقدمة اذ قـام يقتله ... اشرف سموأل فانظر للدم الجاري
فشك اوداجه، والصدر في مضض ... عليه منطوياً كاللذع بالنار
واختار ادراعه الا يسبّ بها ... ولم يكن عهده فيها بختار
وقال لا اشتري عاراً بمكرمة ... فاختار مكرمة الدنيا على العار
والصبر منه قديماً شيمة خلـق ... وزنده في الوفاء الثاقب الواري

وتعد محاولة الاعشى هذه فريدة في الادب العربي القديم ويتيمة في الشعر الملحمي فلو حذا الشعراء حذوها وطوروها لوقفت مع (ايام العرب) مثلاً صارخاً في الشعر الملحمي ، وبقيت (الايام) بنثرها نموذجاً فريداً ايضاً ، يضاف اليها الملاحم الشعبية المتطورة عن الايام • وجرت محاولة من H. Winckleer في عزو قصة الوفاء هذه الى اسفار صمويل.

الاول ، مع ان قصة الوفاء موروثة في القيم العربية ، ومعدودة ضمن اخلاق العرب • ولا داعي لاعادة الكلام بان التوراة تتأثر باساطير العرب المسلمين(٧١) •

ويعود الاعشى الى هذا الحصن في قصيدة اخرى يصفه ويتحدث عن بنائه والمواد التي بني بها والحياة الصاخبة والحركة المستمرة التي كانت تدور في رحابه ، والمغنيات الجميلات اللواتي يشبهن (الحور) أو (الدمى) يملأن القصر ، وغير ذلك • ومع ذلك فالموت قهرهم جميعاً وترك الحصن بلا اهله اثراً من الاثار(٧٢) :

ولا عاديا لم يمنع الموت ماله ... وورد بتيماء اليهودي أبلق
بناه سليمان بن داود حقبة ... له ازج عال وطيّ موثق
يوازي كبيداء السماء ودونه ... بلاط ودارات وكلس وخندق
له درمك من رأسه ومشارب ... ومسك وريحان وراح تصفّق
وحور كامثال الدمى ومناصف ... وقدر وطباخ وصاع وديسق
فذاك ولم يعجز عن الموت ربه ... ولكن اتاه الموت لا يتأبق

وذكر الزبيدي انه سمي بالابلق بسبب لونه ، فقد كان فيه بياض وحمرة ، فقد بني بحجارة مختلفة اللون[٧٣] .. وقال السموأل في حصنه[٧٤] :

وفيت بأدرع الكندي اني ... اذا ما عق اقوام وفيت
بنى لي عاديا حصناً حصيناً ... وعيناً كلما شئت استقيت
وأطماً تزلق العقبان عنه ... اذا ما ضامني أمر ابيت

وقال فيه ايضا [٧٥] :

آبا لأبلق الفرد بيتي به ... وبيت المصير سوى الأبلق
بيلقعةٍ اثبتت حفرة ... ذراعين في اربع خيسف

وقال ايضا[٧٥] :

فلا أدفع الضيف عن رزقه ... لديَّ اذا قيل لم يرزق

وقال :

هو الابلق الفرد الذي سار ذكره ... يعز على من رامه ويطول

وسبق ان نوهنا بان الزباء ملكة تدمر قد رامته فعجزت عنه ، ورامه الملك الحارث الغساني ، فامتنع عليه ايضا . ولم يستبعد الباحثون ان يكون الحصن مبنياً على الطرز البابلية لان (نبونيد) قصد تيماء واتخذها عاصمة له[٧٦] . وجاء ذكر السموأل في بعض الموارد الاسلامية المتقدمة بانه كان ملك تيماء[٧٧] :

ويقرن بالابلق حصن اخر هو (مارد) ويمنح نفس صفات ذلك الحصن

في المنعة والصمود في وجه الاعداء والمهاجمين الغزاة • وان تسميته بـ (بمارد) فيها دلالة عن انه كان حصناً عملاقاً ، والا لما تمرد على الزباء فقالت فيه قولتها التي سارت مثلاً •

ويقترب الحصنان من بعضهما في الموضع ايضا ، فضلاً عن السمات والصفات • فقد جعل البلدانيون العرب المسافة بين الحصنين مسيرة ليلة واحدة(٧٨) • قال الاعشى (٧٩) :

ساقتك من قتلة أطلالها بالشط فالوتر الى حاجر
فركن مهراس الى مارد فقاع منفوحة بالحائر

ومهراس قصر فيه ركن للعبادة •

وقال الأعشى ايضاً(٨٠) :

وما خلت ابتاع جهلاً بحكمة وما خلت مهراساً بلادي وماردا

ويقع حصن مارد في « دُومة الجندل » بضم دال دومة ، بين الحجاز والشام على عشر مراحل من المدينة وعشر من الكوفة وثمان من دمشق واثنتي عشرة من مصر ، وسميت بدومان بن اسماعيل عليه السلام ، وكان ينزلها • وبعث رسول الله جيشاً الى دومة تحت قيادة عبدالرحمن بن عوف ، وعممه بيده ، واوصاه أن يتزوج من ابنة ملك « دومة » فولدت له ابا سلمة الفقيه فهي اول كلبية يتزوجها قرشي • وكانت اخت النعمان بن المنذر الملك ، من جهة أمه(٨١) ، والنعمان صاحب القصرين العظمين : الخورنق والسدير • وكانت عاصمته الحيرة وهي معسكر كبير تنطلق منه الكتائب المسلحة الى قلب الجزيرة واطرافها • وكانت تقع قرب الكوفة الحالية ، بل تعد الكوفة وريثتها الشرعية في الحضارة الثقافية ، حتى انها ورثت قصورها فبنت بحجارتها دورها ، والت اليها سجلاتها ومأثورها ، كما كانت الحيرة نفسها وريثة شرعية لمدينة بابل عاصمة البلاد يومئذ• فهذه

العواصم الثلاث : بابل والحيرة والكوفة ، كانت مراكز اشعاع العالم القديم والوسيط ، تلتحم مع بعضها بصلة رحم وباكثر من سبب • وقد ظهرت الحيرة ، مملكة للخميين ، والشام مملكة الجفنيين بعد سقوط (تدمر) وهو رأي موسل Muse [٨٢] •

واما الخورنق فهو قصر النعمان بظهر الحيرة • وتروى في اسباب بنائه نفس روايات الاخباريين العرب في عزو مهنة الاعمار والبناء الى غير العرب • فقيل ان يزدجرد سابور هو الذي أمر النعمان بن المنذر ببنائه ، فاودع النعمان المهمة الى مهندس معماري روماني يقال له « سنّمار » • فلما فرغ من بنائه عجبوا من حسنه واتقان صنعته فقال سنمار :

ـ لو علمت أنكم تؤتوني أجري ، وتصنعون بي ما أنا أهله لبنيته بناء يدور مع الشمس حيث دارت •

فقال الملك النعمان :

ـ وانك لقادر على ان تبني افضل ولم تبنه ! ؟ ••

فأمر ، فطرح من أعلى الخورنق ، فضرب به المثل[٨٣] • قال عبدالعزى ابن امرىء القيس الكلبي[٨٥] :

جزاني جزاه الله شر جزائه   جزاء سنمار وما كان ذا ذنب
سوى رصه البنيان عشرين حجة   يعالي عليه بالقراميد والسكب

وقال سليط بن أسعد[٨٥] :

جزى بنوه أبا غيلان عن كبر   وحسن فعل كما يجزى سنمار

وتروى عن حادثة سنمار قصص اخرى يقول بعضها ، ان سنمار بعد ان فرغ من بناء القصر أخبر الملك بانه يعرف موضع اجرة فيه ان سحبت من البنيان انهار كله بما فيه • فقال له الملك النعمان :

ـ وهل يعلم غيرك بسرك هذا ؟

قال سنمار :

ـ كلا .

ـ قال النعمان

ـ لا جَرَمَ سأجعله سراً لا يعلم به أحد غيرك .

وأمر فرمي به من أعلى الجوسق ، فمات . والجوسق : القصر .
وتحليلنا لجميع القصص ، هو ان شخصية سنمار تظهر هنا في صورة رجل ساحر من ابطال القصص الاسطوري . وهي تتمة لمعتقداتهم حول بناء المدن على ايدي الجن . وتوجد للسحرة علاقة متينة مع الجن في نظر العالم القديم . اذ انهم يستطيعون تسخيرهم بما يملكون من قوى وتعويذات ورقى سحرية يتلونها فيستحضرونهم . وعلى هذا كان الخورنق قد بنى بأيدي السحرة ، وان كان ، وفق معتقدات العالم ، مبنيا بأيدي الجن . ولا نستطيع ان ننظر الى سنمار على انه شخصية تلمودية ، كما اخرج بعض الباحثين من الاوربيين ، عندما قارن موضع [حرتت دار جيز] المذكورة في التوراة بموضع [حيرة النعمان] وكان (ارجيز) ساحر تلك المدينة هو الذي بناها. ولم تؤيد الكتابات والنقوش القديمة الواردة عن الحيرة هذا التوجه حتى الان . خصوصا ان سنمار ليس فارسياً ولا عبرانياً بل هو أقرب الى الرومية ، وان الحيرة الواردة في الكتابات ، كان فيها اسقف يقال له : هوشع Hosha اشترك في توقيع قرارات المجمع الكنسي عام ٤١٠ باسم (هوشع اسقف حيرتا)[٨٦] . وأما قصة دوران القصر مع الشمس فلم يكن الساحر يريدان يخبر بانه يستطيع ان يحول الخورنق الى جرم سماوي مضيء ، يرافق الشمس حيث دارت . بل قد يكون متأثرا بمشهد نبات [عباد الشمس] الذي ينظر دائما نحو قرص الشمس من الطلوع الى المغيب. وهذا لا يجعلنا نستنتج بأنه كان سنمار من تلك القبيلة العربية التي عبدت

الشمس ، واتخذت لها الهاً منها بل قد تكون الفرضية ممكنة واكثر احتمالا لو تأكدنا من معرفة سنمار للطاقة الضوئية الخارجة من الشمس والتي يمكن تحويلها الى طاقة كهربائية كما يحاول عصرنا الحديث وهو ما لا يعقل يومئذ. واذن فما هو الرمز الذي تقصده الاسطورة ؟!..

والخورنق هو القصر الذي عناه الاسود بن يعفر بقوله(٨٧) :

ماذا أؤمل بعد ال محرق ... تركوا منازلهم وبعد إياد
اهل الخورنق والسدير وبارق ... والقصر ذي الشرفات من سنداد
حلوا بانقرة يسيل عليهم ... ماء الفرات يجيء من أطواد

قال البكري :

وانقرة المذكورة هنا غير التي في بلاد الروم والتي مات فيها امرؤ القيس ، منصرفه عن قيصر فقال(٨٨) :

رب جفنة متعنجره
وقافية مسحنجره
تدفن غداً بانقره

واتخذت الروم صورة امرىء القيس بانقرة كما يفعلون بمن يعظمونه . ووصفه المأمون حين رأى الصورة بانه رجل مكلثم الوجه ، اى مستديره . وانقرة المذكورة في شعر الاسود (بفتح وسكون وكسر القاف) موضع بظهر الكوفة ، اسفل الخورنق ، كانت اياد تنزله في الدهر الاول . ويؤيد صحة كلامه أنه ذكر الفرات ، يمر بها ، واما انقرة بلاد الروم فهي تبعد عن منابع الفرات بمسافة كبيرة ، تصل في تقدير البكري الى عشر ليال . وقالوا عن انقرة انها موضع بالحيرة ، وقيل في بلاد بني ذبيان وقال الخليل : انقرة موضع بالشام .

قال المنخل اليشكري[٨٩] :

فاذا سكرت فانني رب الخورنق والسدير
واذا صحوت فانني رب الشويهة والبعير

وقال الاعشى[٩٠] :

ولا الملك النعمان يوم لقيته بأمته يعطي القطوط ويأفق
ويجبى اليه السيلحون ودونها صريفون في انهارها والخورنق
ويقسم أمر الناس يوماً وليلة وهم ساكتون والمنية تنطق
ويأمر لليحموم كل عشية بقتّ وتعليق وقد كاد يسنق
يوالي عليه الجل كل عشية ويُرفع نُقلاً بالضحى ويعرّف
فذاك وما انجى من الموت ربه بساباط حتى مات وهو محرزق

وورد ذكر الخورنق في شعر عدي بن زيد في موضعين ، الاول متخذاً منه موقفاً غزلياً حيث حلّ هو وأهله بالحيرة قرب الخورنق ، واحتلت الحبيبة واهلها في موضع يقال له : ذو خشب ، موضع قرب المدينة على طريق الشام[٩١] :

واحتل اهلي بالخورنق فالحيرة واحتلوا بذي خشب

واما الموضع الثاني ، فقد اتخذ من الخورنق موقفاً وعظياً[٩٢] :

وتأمل رب الخورنق اذ أشرف يوماً وللهدى تفكير
سره ما له وكثرة ما يملك والبحر معرضا والسدير
فارعوى قلبه وقال وما غبطة حي الى الممات يصير
ثم بعد الفلاح والملك والأمة وارتهم هناك القبور
ثم اضحوا كأنهم ورق جف فألوت به الصبا والدبور

والشاعر يتحدث هنا عن ازمة نسكية اصابت الملك النعمان ، فانتهزها عدي بن زيد الشاعر النصراني فحوّله من وثنيته الى النصرانية :

وهجا المتلمس عمرو بن هند ملك الحيرة فقال(٩٣) :

الـك السـدير وبـارق ومـرابض ولـك الخورنـق
وتظـل في دوامـة المولـود يظلمهـا تحـرّق
فلئـن تعش فلتبلغـن أرماحنـا منـك المخنّـق

يقول : ملكت كل هذه القصور ، ومع ذلك اذا اخذوا لعبة من يد طفلك تتحرق غيظا وغضبا عليها ؛ فان مكثت ، فان فناءك برماحنا .

والسدير المذكور في جميع الاشعار المتقدمـة ، هو قصـر يقـرن بالخورنق دائماً ويذكر معه ، وله ثلاثة أبطن . ويقال نهر بالحيرة ، وقـد ذكره عدي بن زيد في الابيات المتقدمة مع ذكر البحر في بيت واحد . وجاء ذكر السدير في موضع ذم لدى احد الشعراء الجاهليين(٩٤) :

أبى القلب انيهوى السديرواهله وان قيل عيش بالسدير غريـر
به البق والحمى وأسـد شريّة وعمرو بـن هند يعتدي ويجور

وأما سنداد ، فهو قصر ايضا لبني المنذر ، ورد ذكره قبل قليل .

ويأتي الان دور (تدمر) وحصون ملكتها الزباء . وكان من حق هذه المملكة ان تتقدم في هذه الدراسة ، لكننا لم نسلك في البحث على تاريخ الممالك والحصون ، وانما قمنا بمسح المنطقة العربية جغرافياً ، فبدأنا باليمن لعراقة مدنها وكثرة حصونها وقصورها .

وان موطن تدمر هو بادية الشام ، ويؤلف الفرات الحدود الشرقيـة لها ، وتدخل ضمنها بادية السماوة وخليج ميسان الذي يعد امتـدادا للخليج العربي(٩٥) . واطلق عليها الغربيون اسم بالميرا Palmyra

وكان ملوكها وامراؤهـــا يتخـذون لانفسهم القابـــاً مثل التـــي يتخذها اليونانيون . واشهر ملوك تدمر « أذينة » وزوجته الزباء . وهو الذي هاجم طيسفون عاصمة الساسانيين وحاصرها[٩٦] . وتعرف لدى العبرانيين باسـم تمر Tamar ومنه اشتق اليونانيون اسم بالميرا Palmyra الذي يعني الجزء الاول منه Palm (نخلة) . ولها علاقة ببلدة عين تمر العربية الاثرية[٩٧] . وقد عزا العرب في اشعارهم بناء هذه المدينـة الى الجن ايضا بتسخير من الملك سليمان بن داود . قال النابغة الذبياني [٩٨] :

ولا ارى فاعلاً في الناس يشبهه ولا أحاشي من الاقوام من أحد
الا سليمان اذ قـال الالـــه له قُم في البرية فاحددها عن الفند
وخيّس الجن اني قد اذنت لهم يبنون تدمر بالصفـــاح والعمد

وهكذا يتخذ النابغة من تدمر موضوعاً مدحياً يقدمه للملك النعمان يصف فيه بناء مدينة تدمر على يد سليمان بأمر من الاله فيسخر الجن لهذا الغرض ، فاستخدموا اجود الخامات لبنائها من احجار عـــراض واسـاطين الرخام . لكن رواية اخرى تزعم ان التي بنتها هي تدمر بنت حسان بن اذينة واطلقت عليها اسمها ، وفيها قبرها ، ثم جاء سليمان وسكنها من بعدها[٩٩] . ونقل البكري عن كتاب الاكليل [١٠٠] ، ان مروان بن محمد هدم ناحية من تدمر فاذا في اساس الحائط رف من رخام طويل ، فاجتمع قوم فقلبوا عنه الطبق ، وظن مروان ان فيه كنزاً ، فاذا فيه امرأة على قفاها قـد القيت عليها تسعون حلة منسوجة بالذهب ، جرباتها (فتحتها) واحد ، ولها غدائر سابغة قد ردت الى صدرها وفي بعضها صفيحة ذهب مكتوب فيها : أنا تدمر بنت حسان بن اذينة الملك . خرب الله بيت من خرب بيتي . قال راوية الخبر : فما لبثنا الا قليلاً حتى جاء عبدالله بن علي فقتل مروان .

أما حصن الزباء ، فقد شيد على الفرات ، وعرفـت المدينة التـــي قام الحصن فيها باسم (زنوبيا) وهو اسمها باليونانية ، ويقال انه منسوب الى

زبيبة اخت الزباء . فكان في الحصن انفاق تمر من تحت الفرات ليصل الحصن ومدينة زبيبة بمدينة تدمر ، ويقال ينتهي النفق الى ما تحت سرير الزباء . لذلك قال القدماء انها هربت من نفق سري عندما ظفر بها ابن أخت جذيمة الوضاح ووزيره قصير(١٠١) . وورد في الشعر الجاهلي ذكر هذا الحصن وانفاقه السرية او مساربه التي تتصل بالفرات ، فقال المخبل في الدهر وما يفعل في الناس(١٠٢) :

طلب ابنة الزبا وقد جعلت له ... دوراً ومسربة لها انفاق
حملت لها اجلاً ولا يخشونه ... من اهل دومة رسلة معناق
حتى تفرعها بابيض صارم ... عصب يلوح كأنه مخراق

وذكر ياقوت (١٠٣) ، ان (بقة) حصن قريب من هيت يعود الى جذيمة الوضاح الذي غلبته الزباء بخدعة عسكرية فاخذته اسيرا وقتلته . فقال عدي بن زيد في قصته وقصة مطالبة قصير لثأره(١٠٤) :

الا يا ايها المثري المزجي ... الم تسمع بخطب الاولينا
دعا بالبقة الامرار يوماً ... جذيمة عصر ينجوهم بثينا ـ

واما حصن الحضر ، فهو عربي يقع بين دجلة والفرات ، حدد البكري موقعه في جبال تكريت(١٠٥) . ذكره المسيب بن علس فقال(١٠٦) :

واليك أعملنا المطية من ... سفل العراق وانت بالحضر

ويروى بالقهر . وقال ايضا(١٠٧) :

وجناه من افق فاورده ... سهل العراق وكان بالحضر

وذكر أبو داود الايادي صاحب الحضر فقال(١٠٨) :

وأرى الموت قد تدلى من الحضر ... على رب اهله الساطرون

وساطرون هنا يعيد الى اذهاننا اسم الملك العربي سنطروق صاحب الحضر في النقوش المكتشفة .

وقال عدي بن زيد [109] :

واخو الحضر اذ بناه واذ دجلة تجبى اليه والخابور
شاده مرمراً وخلله كلساً فللطير في ذراه وكور
لم يهبه ريب المنون فباد الملك منه فبابه مهجور

وقال ايضا [111] :

اقفر الحضر من نضيرة فالمرباع منها فجانب الثرثار
اذا تواصلوا بالكبش لما احسوه وقالوا مع الحذار حذار

واورد صاحب الاغاني [112] قصة الحضر ، وقال : اخو الحضر هو الضيزن بن معاوية ، واورد له نسبا طويلا ، رده الى قبيلة قضاعة . ثم اورد نسبه من جهة أمه . وذكر قصة ابنته نضيرة . وكان الملك الفارسي سابور ذو الاكتاف قد عسكر حول الحصن اربع سنين ، فلم يستطع شيئاً ، فلما كبرت الضيزن عركت ، اي ادركتها العادة الحيضية ، فأخرجوها الى الربض ، اي خارج الحصن وهي عقيدة دينية اصبحت عادة متبعة . فرأها الملك الفارسي ورأته فعشقها فأرسلت اليه ودلته على السر السحري (الطلسم) الذي يهدم القصر كما سبق ان رأيناه في الخورنق . فدخل سابور واحتل الحصن وقتل اباها وقومها ، وتزوجها في (عين تمر) ـ وهذا يذكرنا بتدمر قبل قليل ـ ثم ما لبث ان قتلها . فقال شاعر يقال له عمرو بن آلة ، وكان مع الضيزن [113] :

الم يحزنك والانباء تنمي بما لاقت سراة بني العبيد
ومصرع ضيزن وبني ابيه واحلاس الكتائب من تزيد
اتاهم بالفيول مجللات وبالابطال سابور الجنود
فهدم من اواسي القصر صخراً كأن ثقاله زبر الحديد

وقال الاعشى[114] :

الـم تـرى الحضـر اذ اهلـه	بنعمى وهـل خالـد مـن نعم
اقـام بـه سـاهبور الجنـود حولـين يضـرب فيـه القـدم
فمـا زاده ربـه قـوة	ومثـل مجـاوره لم يقـم
فلمـا رأى ربـه فعلـه	أتـاه طروقا فلـم ينتقـم
وكـان دعـا ربـه دعـوة	هلم الى امركـم قـد صـرم
فموتـوا كرامـاً باسيافكـم	وللمـوت يجشمـه من جشـم
وللمـوت خيـر لمـن نالـه	اذا المـرء أمتـه لم تـدم

وقال عدي بن زيد :

والحضـر صابت عليه آسية	مـن ثغـرة أيـدٍ مناكبهـا
ربيـة لم تـوقّ والدهـا	لحبهـا اذ يضـاع راقبهـا
أجشمها حبهـا لمـا فعلت	اذ نـام عنهـا للفىّ حاجبها
اذ غبقتهـا حمـراءَ صافيـةً	والخمـر وهـلٌ يهيـم شاربها
وأسـلمت ربهـا بليلتهـا	تظـن أن الرئيس خاطبهـا
فكـان حظ العـروس اذ بـرق الصبح دمـاء تجـري سبائبهـا
وحوّر الحضر واستبيح وقـد	أحـرق في خدرهـا مشاجبهـا
لم يبق فيـه الا مراوح طايات	وبـورٌ تصفـو ثعالبهـا

وذكرت في الشعر الجاهلي مدائـن لوط ، وورد اسم سدوم في شعر لأمية بن ابي الصلت[115] :

ثـم لوط اخـو سـدوم اتاها	اذ اتاهـا برشـدها وهـواها
راوده عـن ضيفـه ثم قالـوا	قـد نهيناك ان تقيـم قـراها
عرض الشـيخ عند ذاك بنـات	كظبـاء باجـرع فرعاهـا
غضب القوم عند ذاك وقالـوا	ايها الشـيخ خطبـة تأباهـا
اجمع القـوم امرهم وعجـوز	خيـب الله سـعيها ورجاهـا

ارســـل الله عنـــد ذاك عذابـا   جعـــل الارض سفلها اعـــلاها
ورماهـــا بحاصب ثـــم طـــين   ذي حروف ســوم اذرماهـــا

وهلاك مدينة سدوم في التوراة ليست كما هي في هذا الشعر الذي يقترب في احداثه من القصة الواردة في القرآن الكريم •

والبلدانيون العرب يلفظون سدوم فالذال ايضا ، وضربوا المثل بجورها فقيل : اجور من سدوم[116] •والحقيقة انها كان فيها قاض جائـر ، وكـان المثل في الاصل : اجور من قاضي سدوم • وجاء في شعر لعدي بن زيـــد قوله[117] :

مـــوازي القـــارة اودوهـــا   غير بعيد عـــن عُمير اللصوص

ويروى غمير اللصوص ايضا • وهو قصر مقابل الحيرة • فان لم يكن الاخيضر نفسه ، فهو من هذا القبيل ، لانني اعتقد بان امثال هذه القصور الحصينة التي شيدت لمواجهة البادية الصحراويـــة وذكـــرت في المعجمات العربية ، يجب دراستها والبحث عن اثارها • وان تنائج باهرة من الكشوف العلمية لعصور ما قبل الاسلام تنتظرنا وراء اسرار هـــذه المدن التاريخيـة والحصون والقصور والقلاع والاديرة الاثرية •

الهوامش :

(١) الحيوان ١ / ٧٢ ـ ٧٣
(٢) المصدر السابق •
(٣) مقدمة عن ادب العراق القديم ـ طه باقر ص ٩٩ وما بعدها ومقدمة ملحمة جلجامش نشر وزارة الاعلام العراقية •
(٤) الشوقيات ٣/١٥٨ •
(٥) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام • د • جواد علي ٨/٨
(٦) ابن جني ـ الخصائص ١/٣٩٢ (ط • الهلال ١٩١٣) •
(٧) ديوانه ص ٤٣
(٨) نفسه ص ٤٦
(٩) معجم ما استعجم ٢٠٨ (أوال)

(١٠) شيخو ١/٢٣٣ وتراجع حول مهنة البناء وغيرها مقالة لنا بعنوان : الفرات وأثره في تراثنا الحضاري والشعري ٠
(١١) نفسه ١/٤٦
(١٢) المصدر السابق ١/١٣٢ ويراجع الديوان ص ٦٤
(١٣) نفسه ١/١٦٢
(١٤) معجم ما استعجم ٠ مادة (أوال)
(١٥) ديوانه ص ٢٥٦ (مال بدلا من عن) والرواية هناك للبكري ص ٦٦٨٠
(١٦) ديوانه ٤١٢ وصرف اوال ضرورة ٠
(١٧) ديوانه ص ٣٢٥
(١٨) ديوانه ص ١٦٩ وذكر محقق الديوان في الهامش ان كلمة (أوالية) لعلها مصحفة من (ازالية) نسبة الى (ازال) قرية قرب صنعاء ٠ وافاد المحقق ان المرحوم مصطفى جواد قال به ٠ وهو وهم ٠ ويراجع ايضا طبقات فحول الشعراء ١/٢٧١ هامش المحقق العلامة الاستاذ محمود محمد شاكر ٠
(١٩) اللسان مادة (أوال)
(٢٠) الشعر والشعراء ١/٤٦٢ ومعجم ما استعجم ١٠٠٢ (غمدان) وشيخو ١/٢٣٢
(٢١) معجم ما استعجم (غمدان) ٠
(٢٢) ديوانه ص ١٥
(٢٣) معجم ديوانه ٢٨١
(٢٤) معجم ما استعجم ٩٠٤ (ظفار) ديوان امرىء القيس ص
(٢٥) المصدر السابق .
(٢٦) المصدر السابق ١١٧٠ (مأرب)
(٢٧) الاية ١٥ من سورة سبأ ٠
(٢٨) معجم ما استعجم ١١٧٠ (مأرب) ولم يرد البيت في ديوانه ٠
(٢٩) الديوان ٤٣ وشيخو ١/٣٧٤
(٣٠) معجم ما استعجم (مأارب)
(٣١) الاكليل ٨/٧٨
(٣٢) الديوان ٢٨٩
(٣٣) معجم ما استعجم (يمان) ٦٨٩
(٣٤) ديوانه ٣١٦ ورواية الصدر (لم تسر ليلى ولم تعرف بحاجتها) والرواية هناك للبكري ص ٦٨٩ ٠
(٣٥) شيخو ١/٣١٩
(٣٦) الديوان ١١٧
(٣٧) يراجع خبر هذا اليوم في كتاب ايام العرب وتراجع القصيدة في ديوان الاعشى ص ١٠٩

(١٠٠) الهمداني ص ١٢ طبعة برتستون ومعجم ما استعجم (تدمر) ٠
(١٠١) لزيادة المعلومات يراجع المفصل ٣/٦٣١ وايام العرب ص ٨٠ــ٩٠ وامثال المفضل الضبي ص ٦
(١٠٢) معجم ما استعجم ٥٦١ (دومة) منازل جذيمة بن الابرش ٠
(١٠٣) البلدان (بقة) ٠
(١٠٤) الديوان ١٨١١ وتراجع القصيدة هناك كاملة وانظر القصة من كتاب ايام العرب ص ٨٠ وما بعدها ٠
(١٠٥) معجم ما استعجم ٤٥٣ (الحضر) ٠
(١٠٦) المصدر السابق ٠
(١٠٧) المصدر نفسه ٠
(١٠٨) يروى البيت لعدى بن زيد ايضا يراجع الديوان ٢٠٥ وينظر كتاب الحضر مدينة الشمس لمؤلفه فؤاد سفر ومحمد علي مصطفى ص ٣٧ جدول يثبت الملوك
(١٠٩) ديوانه ص ٨٨
(١١٠) ديوانه ص ١٣٥
(١١١) ابو الفرج ٢/١٤٥
(١١٢) الاغاني ٢/١٤٢ ونسبها ياقوت والطبري الى شاعره سمياه الجدي بن الدلهات
(١١٣) نفسه
(١١٤) الديوان ٤٣
(١١٥) شعراء النصرانية ١/٢٢٩
(١١٦) معجم ما استعجم ٧٢٩
(١١٧) الديوان ٦٨ ومعجم ما استعجم ١٠٠٤ (غميرة اللصوص) وتنظر مقالة للدكتور صلاح العبيدين واللواء الركن المتقاعد صبيح رؤوف حول المظاهر العسكرية في حصن الاخيضر مجلة سومر العدد /

المصادر والمراجع بحسب تسلسل ورودها في البحث

(١) الحيوان ــ للجاحظ
(٢) مقدمة ادب العراق القديم
(٣) ديوان الشوقيات ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت
(٤) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ــ د ٠ جواد علي ــ دار العلم للملايين عشرة اجزاء ١٩٦٨ ــ٩٧٣
(٥) الخصائص ــ ابن جني (الهلال ١٩١٣) ٠

(٦) ديوان عدي بن زيد العبادي ـ ت محمد جبار المعيبد • نشر وزارة الثقافة والارشاد العراقية ١٩٦٥
(٧) ديوان حاتم الطائي ـ ت : كرم إلبستاني • بيروت ١٩٥٣
(٨) معجم ما استعجم ـ البكري ت : السقا • القاهرة ١٩٤٩
(٩) الشعر والشعراء ـ لويس شيخو • بيروت ١٩٢٦ أو ما يذكر في الهامش
(١٠) ديوان ابن مقبل • وزارة الثقافة ـ دمشق ١٩٦٢ •
(١١) ديوان جرير • نشر محمد اسماعيل عبدالله الصاوي مصر ١٣٥٣ هجرية •
(١٢) ديوان الاخطل ـ نشر الاب انطوان صالحاني السيوعي • بيروت ١٨٩١
(١٣) لسان العرب ـ ابن منظور • بيروت
(١٤) تاج العروس ـ الزبيدي • ط • الكويت
(١٥) الشعر والشعراء ـ احمد محمد شاكر • دار المعارف ١٩٦٦
(١٦) ديوان الاعشى • نشر الدكتور م • محمد حسين مصر ١٩٥٠
(١٧) الاكليل للمهداني الجزء الثامن • طبعة برتستون •
(١٨) طبقات فحول الشعراء • محمود محمد شاكر • مطبعة المدني مصر ١٩٧٤
(١٩) الاغاني ـ ابو الفرج • دار الكتب المصرية
(٢٠) الحضر مدينة الشمس • فؤاد سفر ومحمد علي مصطفى • وزارة الاعلام العراقية ومؤسسة كولبكيان •
(٢١) الكامل في التاريخ • ابن الاثير • الطبعة المنيرية •
(٢٢) ديوان زهير بن ابي سلمى • طبعة دار الكتب المصرية
(٢٣) ديوان امرىء القيس • نشر حسن ن السندوبي •
(٢٤) معجم البلدان ـ ياقوت
(٢٥) ديوان السموأل ـ صنعة ابي عبدالله تغطوية • ت محمد حسين ال ياسين •
(٢٦) ديوان الاسود شن يعفر • ت : د • نوري حمودي القيسي •
(٢٧) الامثال للمفضل الضبي ـ نشر الجوائب ١٨٠٠
(٢٨) مجلة سومر العدد

تاريخ الابل في ضوء المخلفات الآثارية والكتابات القديمة

رضا جواد الهاشمي
كلية الاداب ـ جامعة بغداد

مقدمــة

تشير بدايات تدجين الابل وأستخدامها في حركة المواصلات البريه الى تغير نوعي كبير في حياة شعب ومنطقة معينين في الشرق الادنى القديم ، فالمنطقة هي جزيرة العرب ، والشعب هم العرب ضمن آفاق تاريخهم القديم ٠

لذلك ، فنحن عندما نؤرخ للابل ، انما نؤرخ لمنطقة وشعب يفتقران المعلومات التفصيلية المتكاملة في تاريخهما البعيد ، ولربما كان هـــذا السبب بالذات ، بالاضافة الى ما للابل نفسها من أهمية ، أن أخترناها من بين الحيوانات الكثيرة التي عرفتها مراكز الحضارات القديمة عامة ، والعربية منها بوجه خاص٠

فالابل حيوانات العرب الاولى « يأكلون لحومها ويشربون من ألبانها ويكتسون من اوبارها ويقومون بها ثروتهم ، ويفتقدون بها أسرارهم ويمهرون بها في الزواج ، ولجميع هذه الاسباب أهتموا بتربية الابل وكيفوا حياتهـم وفاقا لحياتها ، ورحلوا من مكان لآخر من أجلها ، وبنوا كثيرا من لغتهم عليها ، وضربوا فيها الامثال الكثيرة ، وتغنى الشعراء في وصفها وحدائها ، وكـــان للعرب أيضا الخيل يعنون بها ، ولكنها كانت متاع المترفين ، بينما كانت الابل متاع العرب جميعا »[١] ٠ فلا عجب ، وعلاقة الابل بالعرب بهذا الشـــكل الوثيق ، أن نجد الاطناب في الحديث عنها وعن صفاتها واسمائها ونعوتها في كل ما نمى الينا من تراث العرب المدون شعرا كان أم انثرا ٠

وسيتضح لنا من سياق هذه الدراسة ، أن هذه الصلة الوثيقة بين العرب

---

(١) علي حسني الخربوطلي : العرب والحضارة ص ٢٩ ٠

وهذا الحيوان أنما ترجع في قدمها الى بدايات تدجينه واستخدامه على نطاق واسع في حركة المواصلات البرية في طول وعرض الجزيرة العربية من جانب ، وبين مراكز الحضارات الشرقية عبر اراضي الجزيرة العربية من جانب آخر •

ان العرب أمة قديمة في وطنها الاصلي الجزيرة العربية ، واذا كانت الدلائل اللغوية التي تعتمد مدونات اللغة العربية لا تساعدنا بالتوغل بعيدا لمعرفة أصول العرب القديمة أكثر من الحدود التاريخية لنقش النماره الذي يعد النص العربي الاقدم الذي وصل أيدي الباحثين لحد الان ، ويرجع زمنه لحدود عام ٣٢٨ م[٢] ، فان الكتابات المسمارية من العهد الاشوري ترجع بنا في أصل العرب الى فترة أبعد بكثير من تاريخ نقش النماره وذلك لحدود القرن التاسع ق • م • وهي الاشارة الاولى صراحة الى العرب كقوم متميزين من شعوب الشرق الادنى القديم ، في نص للملك الاشوري شلمنصر الثالث يؤرخ بعام ٨٥٣ ق•م[٣] ، ثم تتوالى الاشارات في النصوص الاشورية الى العرب وأسماء قبائلهم وآلهتم ومدنهم وملكاتهم وتصف لنا بلادهم وخيراتها وثرواتها وحيواناتها ، وبالتالي ، فان معلومات الكتابات الاشورية تشير الى العرب بشكل لا يرقى اليه الشك ، ولكن ليس بدليل اللغة ، وأنما بدليل الاسم والمقومات الحياتية التي بقي جانب منها ملازم لحياة العرب حتى الوقت الحاضر ، ونقصد بها الاشارة الى الابل وعلاقة العرب اللصيقة بهذا الحيوان •

لذلك سنجد في دراسة تاريخ الابل ـ حيوانات العرب الاولى ـ والتي أرتبط ذكرها وأستخدامها وأنتشارها في الارضين بالعرب وحدهم دون سواهم

---

(٢) د . هاشم سعدون الطعان : الادب الجاهلي بين لهجات القبائل واللغة الموحدة (أطروحة دكتوراه غير مطبوعة قدمت الى مجلس كلية الاداب بجامعة بغداد سنة ١٩٧٦) ص ١٢٣ ـ ١٢٤ •

(٣) رضا جواد الهاشمي : « العرب في ضوء المصادر المسمارية » مجلة كلية الاداب ـ جامعة بغداد العدد/٢٢ السنة ١٩٧٨ ص ٦٣٩ ـ ٦٨٣ •

من شعوب الشرق الادنى القدماء ، أنما نعتمد بذلك على دليل داخلي قوي يمكنه ان يصل بنا مع تاريخ العرب لبضعة قرون تسبق أقدم الاشارات في النصوص الاشورية ، فان أعتماد ظهور الابل كحيوانات مدجنة : أشـارة صريحه الى العرب بأنهم كانوا وراء تدجينه ، سيكون قياسا منطقيا مقبولا ، واذا كان افتراضنا هذا واردا ومقبولا ، فيعني أننا نستطيع أن نؤرخ لبدايات العرب التاريخية الاولى على مسرح الاحداث الانسانية لعالم الشرق الادنى القديم بحدود الالف الثانية ق • م • وهو تاريخ يسبق ما درجنا عليه باعتماد النصوص الاشورية ، بألف سنة •

ان قوما ـ ونقصد بهم العرب ـ بقوا محافظين على خصائصهم اللغوية والاجتماعية والثقافية ، وكثيرا من طباعهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وقوما توارثوا تراث حضارات الشرق الادنى القديم ، وبخاصة جانبها اللغوي ، ان شعبا بهذه الخصائص والمواصفات لا يمكن عدّه من الشعوب المتأخرة زمنيا في معاصرتها للاحداث وأنما يجب السعي بكل الوسائل العلمية الممكنه للتفتيش عن جذور هذا الشعب الدفينة بين طيات الماضي القديم •

لذلك أعتمدنا تقديم هذه الدراسة التاريخية الآثاريـة عن الابـل ، والتفتيش عن أثر هذا الحيوان في المظآن المختلفة من مصادر لغوية ورسـوم وأعمال نحت ، لنصل الى صورة واضحة قدر الامكان عن هذا الحيوان من حيث تاريخه وتدجينه واستخدامه وانتشاره وعلاقته بالشعوب القديمة المختلفة، كما أننا نعتقد من أهمية هذه الدراسة ، أنها سوف لا تكشف عن أصـول تاريخية قديمة للعرب فحسب • وأنما يمكنها أن تكون توطئه لدراسة أوسع لتاريخ العرب القديم في مجمـل نشاطهـم الحضاري ، وبخاصـة نشاطاتهم الاقتصادية والتجارية ، وما يستتبع هذه النشاطات بالضرورة من صـلات

ومؤثرات حضارية • فقد كان العرب وبسبب اعتمادهم الابل محور هـذه النشاطات لفترة زمنية طويلة من تاريخ منطقة الشرق الادنى القديم[٤] •

اصل الابل وموطنها الاول :

الابل من الحيوانات الثديية المجترة ، وتشكل مع حيوان اللاما الاميركي (الجمل الامريكي Auchenia Llama) الجنوبي عائلة تعرف باسـم Camelidoe • وهناك نوعان رئيسيان من الابل ، أحدهما ذو سـنام واحد وهو الجمـل العربي (Dromedry, Camelus Dromedarius) والاخر ذو سنامين ويعرف بالجمل البكتري* (Bactrian Camel, Camelus Bactrianus)

وقد ثبت علميا بعد كشف متحجرات كلا الصنفين ، أن لكل منهما أصولـه الوحشية الخاصة به[٥] ، ومما يؤيد ذلك معرفة العرب ببعض الابل الوحشية التي أسموها بأبل الوحش يقولون عنها أنها من بقايا ابل عاد وثمود[٦] ، كما لا تزال بعض الجمال من النوع البكتري بحالتها الوحشية في مناطق جنوب غرب منغوليا لحد وقتنا الحاضر[٧] •

ان الجمل العربي هو الصنف الاكثر شيوعا ، وتمتد مناطق أستخدامه من

---

(٤) رضا جواد الهاشمي : نفس المصدر •

(*) ومن الاسماء التي أطلقها العرب على الجمل ذي السنامين ، العصفوري والفلج واليعلول (حسين يوسف موه) وعبدالفتاح الصعيدي : الافصاح في فقه اللغة : ج٢ دار الفكر العربي باب الابل ص ٧٠٦ ــ ٧٧٤) •

(٥) R. J. Forbes, Studies in Ancient Technology, Vol. II, Brill, Leiden 1955 P. 187.

(٦) الشيخ كمال الدين الدميري : حياة الحيوان الكبرى ج١ ص ١٥ القاهرة ١٩٥٨ •

(٧) الانسكلوبيديا السوفيتية الكبرى ، الطبعة الثالثة ، المجلد الرابع موسكو ١٩٧١ ص ٥٢٤ •

منغوليا وشمال غرب الهند وخلال جنوب أواسط اسيا واسيا الصغرى والجزيرة العربية وشمال وشرق أفريقيا وفي بعض مناطق اسبانيا •

أما الوطن الاصلي للجمل العربي فأمر غير مؤكد ، ولكن نظرا لكونه أكثر ملائمة للمناطق الرملية من الجمل البكتري ، فهو يتواجد بكثرة في المناطق الصحراوية ، وكأن الجمل في وطنه الاصلي في بلاد العرب(٨) •

أما عن موطن الاصول الاولى للابل والتي أنحدرت منها بعدئذ الجمال العربية والبكترية فهو شمال أمريكا • فبسبب القدرات العالية لهذا الحيوان على التكيف للاحوال المناخية ، لذلك نجحت الاصول القديمة للابل من عبور مضايق بورنغ خلال فترات الزحفات الجليدية ، حيث كانت المضايق وقتها مغطاة بالجليد الذي سمح بالاتصال بين قارتي أمريكا واسيا • فهاجرت الجمال لتنتشر في مناطق واسعة من اسيا • ومما يؤكد تطبع هذا الحيوان لدرجات حرارة متفاوتة ، تكيف الجمل البكتري للمناطق الباردة والثلجية بينما تكيف الجمل العربي للمناطق الحارة والجافة(٩) وان معظم متحجرات هذا الحيوان تشير الى أنه لم يتحول بعد الى حيوان صحراوي • بدليل اكتشافها بمعية متحجرات لحيوانات مثل الفيل والجاموس والبيزون والحصان والغزال(١٠) •

وتشير المعلومات العلمية المتيسرة عن هذا الحيوان ، الى انفصال بعيد زمنيا بين النوعين المعروفين ، العربية منها والبكترية ، وان تطورهما اللاحق واكتسابهما صفات جسمية وبايلوجية نمت من تواجدهما في بيئات مختلفة(١١) وذلك يسمح لنا بالافتراض بقدم أستيطان الجمل العربي في جزيرة العرب •

---

(٨) Forbes, op. cit. p. 188.

(٩) Robert Raikes: Water, Weathe and Prehistory, London 1967 P. 101 ff.

(١٠) A. E. Robinson: "The Camel in Antiquity" in Sudan Notes and Records, 19 Part I (1936) P. 50.

(١١) R. Raikes: ibid.

ومهما يكن من أمر الوطن الاصلي للابل ، وكذلك من أمر هجرته وطرقها التي أفضت بالنوع العربي منه أخيرا الى جزيرة العرب كموطن ملائم لنموه وتطوره[١٢] • فان أقدم أثار للابل في المنطقة العربية ترجع الى اواخر العصر الحجري الوسيط وبداية العصر الحجري الحديث كما سنتطرق الى ذلك تفصيلا عند الحديث عن الابل في الآثار •

أن الامر الاخر المهم عند الحديث عن الابل هو موضوع ارتباطها بالانسان ، أي عملية تدجينها وأستئناسها ، وعند هذه النقطة الجوهرية من دراسة تاريخ الابل ، يبرز دور العرب ودور بلادهم كأقدم ما هو متوفر لدينا في هذا الموضوع • لذلك يكون الحديث عن الجمال الوحشية لا يعنينا قدر أهمية الحديث عن الابل المدجنة ، لانه مع تدجين الابل وضمن الواقع البيئي والجغرافي الذي يعيشه العرب ، تتفتح افاق جديدة اقتصادية واجتماعية وحضارية بالنسبة لسكان الجزيرة من العرب القدماء •

خصائص ومواصفات الجمل العربي :

الجمل حيوان فريد الخلقه والخلق ، يتميز بسرعة عن سائر الحيوانات ، أضافة لكونه من الحيوانات النادرة له كثير من الخصائص والمميزات التي يندر اجتماعها في حيوان خدم الانسان مثلما تقدمه الابل من خدمات ، ولربما أكتسب بعض خصائصه المتميزة من الارض العربية التي عايشها منذ فترات زمنية بعيدة ، وربما أيضا ، بسبب هذه الخصائص ، قامت العلاقة الفريدة من نوعها بين العرب والابل ، والتي لا تدانيها ولا تشبهها علاقتهم ببقية الحيوانات فلم تعرف حياة العرب حيوانا نال تلك الشهرة والاهمية عندهم مثلما نالها الجمل •

---

(١٢) Robinson: op. cit. P. 49 ff.

فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج١ ترجمة جورج حداد بيروت ١٩٥٨ ص ٥٥ •

واذا كانت الخيل قد أفادت العرب في النقل القريب والصيد والحرب ، وتفعهم الحمار في النقل ، ففائدة الابل لهم في النقل والحرب والاكل والشرب والسكن . واذا كانت حيوانات العرب الاخرى تحتاج الى رعاية وحماية وطعام وشراب وخدمة يقدمها العربي لقاء أتعابها ، فالجمل هو ذلك الحيوان الصبور الخدوم الذي يقدم للعربي كافة أشكال المنفعة المرجوه من سائر **الحيوانات دون مقابل . فطعامه مما تعافه سائر الانعام ، ويسعى اليه بنفسه ،** وشربه نزر قليل لفترات متباعدة ، ويحمل من الاثقال والامتعة أضعاف ما تحمله حيوانات النقل ، وبسبب جلده وصبره ومثابرته ، فأنه يقطع مسافات أطول من قدرة بقية الحيوانات ، أضافة الى انه يسلك مناطق في أرض العرب تعجز بقية الحيوانات على ارتيادها . وهو اخيرا ينافس الخيل كحيوان للحرب بالاضافة الى خدماته الكبيرة في أوقات السلم .

لقد جاء التركيب البايلوجي لجسم الجمل العربي ، ومواصفات بقية أعضاء جسمه متفقة تمام الاتفاق مع البيئة الصحراوية الجافة الحارة . فأن ارتفاع جسم الجمل العربي وقصر وبره وقلته متفقان مع حياته الصحراوية ، فان بعد الجسم عن أشعاع الارض الحارة يقلل من فقدها للماء ، وهو أمر جوهري في حياة الصحراء وأحيائها . ان سيقان الجمل العربي أطول من مثيلتها عند الجمل البكتري ، بينما يكون وبر الاخير أغزر وأطول . ويبلغ معدل ارتفاع الجمل العربي الى حدود الكتف حوالي ٢ م ، بينما يبلغ معدل ارتفاع النوع البكتري الى قمة الحدبه حوالي ٢ م(١٣) .

والجمل البكتري أصغر حجما ، وبناء جسمه أشد ثقلا ، بسبب ظلفه المشقوق ، وطول وغزارة وبره ، فهو أكثر ملائمة للمناطق الصخرية الباردة حيث

(١٣) The new Encyclopedia Britanica Vol. II, Chicago 1973 P. 480.

يستطيع تسلق المناطق الجبلية والصخرية بقدرة فائقة ، بينما يعد الجمل العربي غير ذي نفع في مثل تلك المناطق(١٤) .

وتتأكد هذه المقدرة في تسلق الجبال عند الجمال البكترية من وصف الملك الاشوري سرجون الثاني (٧٢٤ — ٧٠٥ ق ٠ م ٠) لها بقوله « الجمال المحملة تتسلق قمم الجبال مثل الماعز الوحشي »(١٥) . بينما عكس ذلك تماما مع الجمال العربية ، حيث يوضح هذه الحقيقة فيها الجاحظ بقوله « ومن العجب أن رجال الروم تصلح في البدو مع الابل ودخول الابل بلاد الروم هو هلاكها »(١٦) وكأن الجاحظ يريد من ذلك البلاد الجبلية البارده ، وهي الصفة الغالبة على اسيا الصغرى المقصودة في كلام الجاحظ ببلاد الروم .

ان الاقسام الصلبة الغضروفية في أطرافه وصدره وركبه جاءت ملائمة تماما لمعيشته الصحراوية ، كذلك مزايا فمه وأسنانه التي تلائم اقتطاع النباتات الشوكية والجافة والقصيرة في الصحراء . ويذكر العرب أنه حيث أراد الله لها أن تكون سفائن البر صبرها على احتمال العطش حتى أن ظمأها ليرتفع الى العشر وجعلها ترعى كل شيء نابت في البراري مما لا يرعاه سائر البهائم(١٧) .

وتتميز عيون الابل بجفونها الطويلة التي تشكل مظلة واقية لحماية عيني الحيوان من أشعة الشمس المحرقة ورمال الصحراء عند هبوب الرياح العاتية ، كما تستطيع تلافي دخول الرمال والاتربة الى أنوفها بقدراتها الفائقة على غلق ثقوب انفها المائلة .

أن اوضح تركيب في جسم الابل يشير الى موالفتها لحياة المناطق

---

(١٤) Forbes, op. cit. P. 188.

(١٥) D. D. Luckenbell, ARAB. Vol. II P. 75 New York 1968.

(١٦) الجاحظ : كتاب الحيوان ، ج٣ ، ص ٤٣٤ .

(١٧) الدميري : المصدر السابق ، ج١ ، ص ١٤ .

الصحراوية الجافة يتمثل في تركيب المعدة ، فأبرز ما فيها جيوب لخزن المــاء تموّن جسم الحيوان بحاجاته من الماء في الرحلات الطويلة عبر المناطق الخالية من الماء[١٨] .

يحمل الجمل ضعف ما يحمله البغل ، وتصل قدرته على حمل حوالــي (٥٠٠) كغم . وتسير قوافل الابل التي يصل تعدادها الى (١٠٠٠) بعير احيانا، مسافة ٢٫٥ ميل في الساعة[١٩] .

وميّز العرب بين نوعــين من ابلهم ، الابــل التي يستخدمونها مطايا ــ والواحد منها الذلول ــ والابل التي يستخدمونها في حمل الاثقال وهــي الكثرة المعروفة من الجمال ، وتصل المسافة التي يقطعها الذلول في (٢٤ ساعة) لحوالي (١٣٠ كم)[٢٠] . وهكذا ففي الوقت الذي يستخدم فيه الجمل العربي للنقل والركوب ، فان الجمل البكترى أكثر أستخداما لنقل الحمولة . وعلى الرغم من ضعف مقدرة الصنفين من الجمال على الحركة السريعة الضرورية في أوقات الحرب . فان الاشارات التاريخية المتوفرة تؤكد أستخدام العرب للابل في حالات الحرب بكثرة ، بخاصة وان لها القدرة في التوغل لمناطق صحراوية وجافة لا تستطيع جيوش الاعداء وحيواناتهــم التي يغلب عليها الخيــل من ملاحقتها[٢١] .

---

(١٨) The Encyclopedia Americana, Vol. 5 P. 257. New York Chicago 1948.

(١٩) Ibid.

(٢٠) ي . أ . بلياييف : العرب والاسلام والخلافة العربية : ترجمة انيس فريحه : الدار المتحدة للنشر بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ٨٧ .

(٢١) ان اقدم الاشارات الى العرب في النصوص الاشورية ذكرتهم محاربين من على ظهور جمالهم ، كما وردتنا صور المعارك بين الاشوريين وبــين العرب وهم يقاتلون من على ظهور ابلهم (للتفاصيــل راجع : رضــا الهاشمي : العرب في ضوء المصادر المسمارية ، المصدر السابق) كذلك : J. Pritchard The Ancient Near East in pictures: pl. no. 375, 63.

ومن خصائص الجمال العربية تحملها للظمأ ، فمعظم الابل تسير ثلاثة ايام متواصلة دون ورد ، وفي الصومال ، تسير الجمال بانتظام معدل (٥ ــ ٦) يوم دون ان ترد الماء[٢٢] •

ان موضوع تحمل الابل للظمأ نقطة جوهرية في علاقة العــرب بهذا الحيوان ، وبخاصة في موطن العرب الاول ــ الجزيرة العربية ــ التي تغطــي حالة الجفاف وندرة الماء مساحات شاسعة منها تقدر بأربعة اخماس مساحتها ، لذلك فالابل التي تبدي مقاومة أشد وأطول للظمأ ، ستكون خدماتها للعربي أوفى وأوسع من غيرها • وبسبب من ذلك فقــد أولى العرب موضوع ورد الابل عناية كبيرة وأشتقوا من لغتهم تسميات خاصة لآماد الورد •

فاذا شربت الابل يوما وغبّت يوما فذلك الغِبّ ، والثلث في مواردها ظمء يومين مع شربتين ، والابل روابع وصاحبها مربع وقيل الرِبّع ، أي تحبس عن الماء أربعا ثم ترد اليوم الخامس ، ثم كذلك الى العشر في الابل وأصحابها ، فاذا زادت فليس لها تسمية وِرْدٍ ، ولكن يقال هي ترد عشرا وغبّا ثم كذلك الى العشرين • فاذا جازت العشرين فهي جوازىء[٢٣] •

ان قدرة الحيوان العجيبة هذه على تحمل العطش ، جعلته في موقــع الخدمة الكاملة للعرب في نشاطاتهم المختلفة • وان الاهمية الكبيرة التي علقها العرب على موضوع ورد الابل تخضع لتفسيرين مرتبطين بحياة العــــرب ونشاطاتهم الحضارية المتميزة في تاريخهم القديم وبخاصة في المجالات التجارية• التفسير الاول يرتبط بأهمية الماء وقلته في بلاد العرب بشكل عام ، يضاف الى ذلك الكميات الكبيرة من الماء التي تشربها الابل عند مواردها ، مما قد تشكل خطرا على حياة بقية الحيوانات وربما على العربي نفسه ، لذلك يكون التأكيد

---

(٢٢) Forbes: op. cit. P. 188.

(٢٣) المخصص لابن سيده : الكتاب السابع كتاب الابل ص ١٥٨ •

على أهمية الابل التي تتأخر في وردها[٢٤] . اما التفسير الثاني والذي يرتبط بالاول ارتباطا وثيقا ويكمله ، فيبرز من خلال دور الابل في تسيير التجارة وعمليات النقل عبر مناطق أرض الجزيرة العربية وفيافيها ، وعندها أيضا تبرز أهمية الابل التي تتأخر في مواردها ، لانها تستطيع من قطع مسافات أطول دونما حاجة الى ماء ، وربما أتاح ذلك لاصحابها باجتياز مناطق جافة وقاحلة ، لكنها أقصر مسافة من غيرها من الطرق لغايات تجارية أو أمنية . واذا أضفنا الى ذلك حقيقة قدرة الجمل على تناول طعامه وهو يواصل سيره ، توضحت عندها أبعاد أهمية الابل التي تتأخر في موردها .

صحيح جدا ان الابل التي يتعدى وردها معدل (٥ ــ ٦) يوم ، ستقل قدراتها على السير الحثيث ، وربما تقل حتى امكانيتها على نقل الحمولة . ولكن لو أخذنا (١٠) أيام كمعدل وسط ما بين ثلاثة ايام وبين الابل الجوازيء التي يتعدى وردها العشرين يوما ، كذلك لو أعتمدنا مسافة (٣٠) ميل كمعدل لسيرها اليومي بين رقمي المسافة (٢٥ ــ ٦٠ ميل) ، فيعني ذلك ان بمقدور الابل أن تسير كمعدل وسطي مسافة تبلغ حدود (٣٠٠) ميل دونما تزود بالماء ، وهذا يمثل أحد الاسباب الجوهرية في جعل الابل في مقدمة حيوانات العرب ويصدق وصفها بسفائن الصحراء .

واذا أعتمدنا الهنيده ، وهو اللقب الذي أطلقه العرب على المائة من الابل ، كقافلة موظفة في النقل التجاري ، وأعتمدنا أيضا متوسط حمولة ما بين ٢٥٠ ــ ٣٠٠ كغم للجمل الواحد ، تكون النتيجة ، أن القافلة الواحدة تنقل حمولة قدرها (٢٥٠٠٠ ــ ٣٠٠٠٠ كغم) ، واذا ما تذكرنا البضائع التي ساهم العرب بنقلها وتوزيعها الى مراكز الاسواق التجارية في العراق وسوريا وسواحل

---

(٢٤) يشرب الجمل خلال عشر دقائق حوالي (٢٥) غالون (حوالي ١٠٠ لتر) من الماء
Ency. Brit. op. cit. P. 480.

البحر المتوسط ، والتي كان اللبان والبخور والذهب والتوابل والاحجار الكريمة في مقدمتها ، نصل بالنتيجة الى تقدير جيد لدور العرب التجاري والمساهمة الكبيرة التي لعبها العرب في مجمل النشاط الحضاري لعالم الشرق الادنى القديم ، وأخيرا تتوضح خطورة الابل في مجمل هذه العملية .

ويبدو أن وصف الجمل البكتري بالغباء وقلة الانتباه(٢٥) أمر لا ينسحب على الابل العربية ، حيث تؤكد المصادر العربية التي تعرضت لهذا الحيوان بالتفصيل على شدة انتباهه ومقدرته على اقتفاء الاثر حتى في حلكة الليل ، ويمكنه التعرف على وجود الماء من مسافات بعيدة ، كما يتميز بشدة صبره ، مقابل هياجه الشديد وحقده الكبير على من يسيىء اليه ، لذلك تعامل العرب مع هذا الحيوان بحذر شديد ، وبالمقابل فقد عرفه العرب مطيعا سهل الانقياد شديد الوفاء(٢٦) .

وأخيرا ، فالابل كالخيل سباحه بطبعها .

الابل في الآثار :

قبل كل شيء علينا أن نميز بين فترتين من تاريخ الابل العربية بالاستناد الى المخلفات الاثرية . الفترة الاولى ، اثار الابل الوحشية غير المدجنة ، والثانية ، أثار الابل المدجنة في علاقة وثيقة بالانسان .

---

(٢٥) Forbes: op. cit. P. 188.

(٢٦) نحيل القارىء لمعرفة تفاصيل ما اقتبسنا بعضه عن الابل الى الكتاب السابع « كتاب الابل » لابن سيده في مخصصة المعروف ، حيث يقع هذا الكتاب في (١٧٥) صفحة ، وفي علمنا انه أوسع المؤلفات اللغوية التاريخية العربية في الابل وهو بمعلوماته القيمة يغطي معظم تفاصيل حياة وطباع وخصائص الجمل ، بحيث لا نستطيع الا اضافة بعض الجوانب التاريخية المستندة لمكتشفات الاثار والمتحجرات وبعض ادلة اللغات القديمة : وهي امور لم تكن متوفرة عند المؤرخين المسلمين .

وعلى الرغم من أن جزيرة العرب هي الموطن المرجح لترعرع الاسلاف البرية للجمل العربي ، وهذا ما توحي به معظم المصادر المتوفرة ، لكن أرض الجزيرة العربية وسكانها القدماء يقصران عن تقديم الادلة اللازمة في هذا الموضوع ضمن أفقه التاريخي البعيد • ويرجع سبب ذلك الى عاملين رئيسيين كانا وراء أختفاء معظم أثار العرب القديمة في جزيرتهم ، أولهما : العامل الجغرافي المتميز لارض العرب ، والمتمثل في الارض الرملية الجافة التي يسهل نقل معالمها من مكان لاخر عند هبوب الرياح ، ويكون لها القدرة الكاملة على اخفاء المعالم البسيطة لسكان الارض العربية القدماء ، مثل مستوطنات العصور الحجرية القديمة والحديثة •

ويتمثل العامل الثاني في تأخر العرب عن التدوين مما يعرقل معرفتنا لجوانب كثيرة من حياة العرب وخصائصهم اللغوية القديمة ، وذلك يضطرنا للاستعانة بمدونات مراكز الحضارات المجاورة وبخاصة حضارتي العراق والشام لتتبع مجريات تاريخ العرب القديم • وربما تكون هذه الدراسة عن الابل محاولة في ذات الاتجاه •

لذلك كانت متحجرات الابل في المنطقة العربية قليلة جدا ، كما انها غير معروفه مطلقا من قلب الجزيرة العربية ، وليست في ايدي الباحثين سوى متحجرات النوعين (العربي والبكتري) من الجزائر والتي يرجع زمنها الى عصر البلايستوسين • كذلك تم العثور على أسنان جمل في الجليل بفلسطين بمعية جمجمة انسان من نوع النياندرتال • ان هذه المتحجرات بالاضافة الى متحجرات اخرى عثر عليها في مناطق في الصين تشير الى أن الجمل لم يكن وقتها حيوانا صحراويا وذلك لاكتشاف متحجرات فيل وجاموس وغزال في نفس الطبقات •

والاهم من ذلك ان هذه المتحجرات تشير الى حيوانات مصاده وليست

مدجنة[٢٧] ، ويبدو أن سبب قلة متحجرات الجمال هو قلة اعمال التنقيبات الاثارية في مواقع العصور الحجرية القديمة في منطقة الشرق الادنى عامة ، وفي الجزيرة العربية بشكل خاص •

أما أقدم رسوم للجمل العربي فقد طبعها خيال رسام البوادي الشمالية لجزيرة العرب على صخور منطقة (كلوه) في شرق الاردن ويرجع زمنها الى العصر الحجري الوسيط ومطلع العصر الحجري الحديث أي الفترة الممتدة ما بين (١٢ ــ ٨) ألف سنة ق • م •[٢٨] والصورة تمثل جملا عربيا صغيرا (تطابق شكل الجمل الحالي) رسم خلف صورة ثور وحشي يرجع زمنها للعصر الحجري الوسيط • كذلك كشفت بعثة اثارية أخرى وفي المنطقة ذاتها عن رسوم جمال عربية يرجح كونها نفذت قبل زمن الرسم الاول[٢٩] • وهكذا يتوضح لدينا انه مع ازدياد أعمال الاستكشاف الاثاري تزداد الادلة اللازمة لدراسة تاريخ هذا الحيوان وقدم استيطانه في الارض العربية •

كما نعرف دمية من الطين المشوي رسمت على شكل رأس جمل ، وصلتنا من الوركاء وزمنها في حدود الالف الرابعة ق • م •[٣٠] وعلى الرغم من صعوبة معرفة نوع الجمل بسبب افتقادنا لجسمه ، ولكن نرجح كونه من النوع العربي بسبب قرب منطقة الوركاء من بوادي الجزيرة العربية الشمالية الشرقية ، ولان المؤشرات اللغوية السومرية تعين الاقسام الجنوبية الغربية من بلاد وادي الرافدين (حيث تقع الوركاء) كمنطقة أطل من خلالها الجمل على حضارة وادي الرافدين وعرفه السومريون من خلال تلك الاقسام •

---

(٢٧) Robinson, op. cit. P. 50; Forbes, op. cit P. 189 ff.

(٢٨) Agnes Horsfield, "Journey to KILWA, Trans Jordan" in Geographical Journal, Vol. CII no. 2 1943. P. 75.

(٢٩) Frobenius: Trans jordanien. P. 224, pl. 15, 2.

(٣٠) A. Noldeke and Ernst Heinrich: URUK-WARKA, No. 13 Berlin 1937 Taf. 46, F., P. 48 ff.

ومن فترة زمنية مقاربة لزمن جمل الوركاء ، وصلنا من الطبقات السفلى لاور والتي يرجع زمنها الى عصر العبيد (في حدود الالف الرابعة ق ٠ ٠) دبوس نحاسي صنع رأسه على شكل جمل عربي بارك[٣١] ٠

وعلى الاطراف الجنوبية الشرقية للجزيرة العربية ، ومع امتداد الخليـج العربي ، وفي جزيرة صغيرة تعرف بأم النار (جزيرة صغيرة في أقصى جنـوب الخليج العربي في الزاوية الجنوبية الشرقية لجزيرة ابو ضبي العاصمة ، وتبعد عن الساحل حوالي ٥ كم) عثرت البعثة الدانمركية في حفرياتها على مجموعة من المقابر الحجرية التي يشيع انتشارها في مناطق الخليج العربي ويصطلح على تسميتها بـ Tumuli ، بلغ عددها (٥٠ قبرا) ٠

وعثرت البعثة أيضا على بقايا أسس أبنية حجرية تمثل مستوطن الجزيرة القديم وعلى الرغم من أن معظم مخلفات العظام التي جمعتها البعثة تمثل عظام اسماك لكنها جمعت ايضا بضعة صناديق من عظام مواشي يأتي في مقدمتهـا عظام الابل تليها عظام الغزلان ، ولم تستطع البعثة من تشخيص عظام الابـل هل انها لابل وحشية أم مدجنة ، ولكنها ترجح أن تكون بينها عظام لحيوانات مدجنـة ٠

كما عثرت البعثة على صورة جمل عربي بجانب صورة مهاة منفـذة باسلوب النحت البارز على احدى حجارات جانبي مدخل أحدى مقابر أم النار بينما نحتت صورة ثور على الحجارة المقابلة لباب المدخل ٠ ان صورة الجمل هذه وعظامه في المستوطن تؤكد معرفة سكان أم النار القدماء بهـذا الحيوان وأنهم أعتمدوه في وجبات طعامهم سواء كان مدجنا أم بريا ٠

ويرجح أعضاء البعثة الدانمركية أن تكون هذه الاقسام من الجزيـرة

---

(٣١) G. Bibby: Looking for Dilmun, P. 321 (Proof Edition Book 1973).

العربية (منطقة عمان وأبو ضبي) من مناطق تدجين الابل الاولى[٣٢] وتؤرخ هذه الصورة والمواد الاثارية المكتشفة بحدود منتصف الالف الثالثة ق.م.[٣٣]

ويرجح أعضاء بعثة المعهد الشرقي لجامعة شيكاغو أنهم يرون في الصورة البارزة من الطين المشوي التي عثروا عليها في طبقات اور الثالثة في تل اسمر (من مواقع منطقة ديالى) ، أنها تمثل رجلا راكبا على ظهر جمل . وعموما فان الاقسام العلوية من الصورة تالفه لذلك يتعذر علينا أن نجزم بكونها تمثل جملا حيث ان الرأس والسنام وأقسام من نهاية ظهر الجمل غير موجودة بسبب التلف . ولكن الشكل العام الظاهر في الصورة مع امتداد الساقين الامامتين والخلفيتين ترجحان كونها صورة جمل . واذا كان هذا الترجيح واردا ، فأنها تكون اول صورة تؤكد تدجين الابل ويرجع زمنها لحدود سنة (٢١٠٠ ق . م .)[٣٤]

واذا كانت الصورة السابقة مشكوك بها لعدم وضوحها ، فيبدو ان تدجين الابل يتأكد مع مطلع الالف الثانية ق.م حيث وصلنا تمثال رجل يركب جملا من تل (تانّك) في فلسطين Ta'annek [٣٥] .

---

(٣٢) Bibby: op. cit. P. 320-21.

(٣٣) Ibid. P. 297, 165.

(٣٤) H. Frankfort, S. lloyd, Th. Jacobsen: The Gimilsin Temple, OIP XLIII P. 231, P. 212. Fig. 126 F.

وقد أعتمد الاستاذ دوستال المتخصص في دراسة البدو والبداوة ، هذه الصورة كأشارة أولى لتدجين الجمل ، كما انه اعتبر الراكب يمتطي الجمل من خلف السنام ، في دراسة له عن مناطق امتطاء الابل وكونها تمثل مراحل تطوريه في حياة أصحابها .

W. Dostal: "The Development of Bedouni Life in Arabia seen from the Archaeological Material".

محاضرة القيت في الندوة العالمية الاولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية ـ قسم التاريخ ـ كلية الاداب ـ جامعة الرياض ، ١٩٧٦ .

(٣٥) Dostal, op. cit. P. 3.

ومن فترة زمنية مقاربة ، تصلنا دمية طينية تمثل محملا (هودجا) يبدو من خلاله شخص جالس ، وعلى الرغم من أن صورة الهودج هذه خالية من صورة البعير ولكن بسبب اقتران الهودج بالجمل وحده ، فأنها على الاغلب كانت حالتها الاصلية مرفقة بصورة جمل ، والدمية هذه من موجودات متحف برلين(٣٦) •

ومن هذه الفترة الزمنية اي مطلع الالف الثانية ق • م • تشير علينا النصوص المسمارية بمعرفة العراقيين القدماء للابل المدجنة ، وهذا ما سنأتي عليه تفصيلا في مستقبل حديثنا عن الابل في الكتابات القديمة •

ومن حدود العهد الكاشي من حضارة العراق القديم (حوالي ١٥٠٠ ق • م •) تعرف دمية فخارية تمثل جملا عربيا(٣٧) •

أما العهد الاشوري ، فقد وصلتنا منه اوفى التسجيلات صورا وكتابة عن الابل واصحابها العرب • وبسبب النشاطات الاشورية الواسعة في المجالات الاقتصادية والعسكرية ، والتي شملت مساحات شاسعة من أراضي العالم القديم • لذلك عرف الاشوريون الجمال بنوعيها العربية والبكترية • والمعلومات المستقاة من المخلفات الاشورية لا تقطع في أمر تدجين الابل فحسب ، بل انها تشير الى علاقة وثيقة بين هذا الحيوان وبين اصحابه العرب مما يؤكد قدم هذه العلاقة التي تتعدى حدود العهد الاشوري •

فمن عهد الملك الاشوري تجلات بلاسر الثالث (٧٤٤ ــ ٧٢٧ ق•م•) وصلتنا صورة بالنحت البارز لاربعة جمال عربية تقودهم أمرأة تلبس ثوبا طويلا يلتف حول جسمها وله حافات مشرشبه يصل في طوله الى منتصف

---

(٣٦) Horst Klengel: Zwischen Zelt und Palast. Leipzig 1971 P. 52.

(٣٧) OIP. Vol. LXXVIII, P. 93, pl. 141: 8.

الساق ، كما يغطي اللباس نفسه رأس المرأة من الخلف[٣٨] .

ومن عهد الملك نفسه جائتنا صورة أخرى تمثل فارسين أشوريين يتسلحان برماح طويلة ويهاجمان رجلا غير مسلح يمتطي ظهر جمل عربي يهـرب من وجههما ليفلت من أسلحة الفارسين بعد ان نجحا من الفتك بزملائه الثلاثة .

والمنحوتة تصور الرجل الذي يمتطي البعير وهو ماسك بيده اليسرى حبل اللجام لقيادة الجمل ، وله شعر كث طويل يتدلى من الخلف على رقبته ، كما يمكن تمييز معالم ربطه للشعر تلتف حول الرأس فوق الجبين ، وهي مـا نرجح ان تكون بدايات فكرة العقال التي تميز الزي العربي وحده بها قديمـا وحديثا .

ويركب الرجل ظهر بعيره امام السنام . ويلبس مأزر قصير مشدود عند وسطه يصل الى حدود الركبة ، بينما بقية جسمه عارية من الملابس .

والذي نراه في هذا النوع من الملابس أنها ثوبا عاديا يلبسه العـرب ليغطوا أجسامهم من حدود الكتف الى اسفل الركبتين ، وانهم في حالات معينة، كالحرب أو العمل ، وحتى يقللوا من تقييد اللباس لحركتهم ، ينزعونه عـن النصف العلوي من جسمهم ويستعينون بأكمام الثياب لربطه حول وسطهم ، وفعلا يلاحظ في الصورة وجود بروزين مكورين على جانبي وسط الرجـل بحدود شدة الثوب على الجسم[٣٩] .

وتقترب أشكال العرب وجمالهم وملابسهم وشعر رؤوسهم ولحاهم من صورة معركة بين جند أشور بانيبال وبين العرب . وتضيف هذه الصورة الى

---

(٣٨) J. Pritchard, The Ancient Near East in Pictures, Relating to the Old Tetament Princeton. New Jersey 1954. pl. no. 187.

(٣٩) Pritchard. op. cit. pl. 375.

معلوماتنا عن العرب طريقة جلوسهم على الجمل في حالة الحرب وانواع الاسلحة التي أستخدموها ، حيث يركب كل رجلين على جمل واحد يظاهر أحدهما الثاني فالاول ووجهه مع اتجاه حركة الجمل يقود البعير ويسيره بعصا طويلة ، وربما يستخدمها للدفاع عن نفسه وضرب أعدائه . اما الرجل الثاني فوجهه الى ظهر البعير يواجه المهاجمين بقوسه ونشابه ، فهما بهذه الحالة أستخدما الجمل مقام عربة القتال الاشورية التي يقودها رجل بينما يفرغ الثاني للدفاع أو الهجوم(٤٠) .

ومن الصور المعبرة بعمق عن واقع الحياة العربية القديمة منحوتة وصلتنا من قوينجق (نينوى) ترجع لزمن الملك الاشوري اشور بانيبال (منتصف القرن السابع ق . م .) نتوضح منها صورة خيمتين ، تعد الوسطية لمكان جلوس ومائدة طعام شخص معين قد يكون رئيسا او قائدا ، وفي الخيمة المجاورة قصاب يدلي خروفا من قدمه وينزع عنه الجلد لتهيئته لتقطيع لحمه . وخارج الخيمتين نشاهد خروفين جالسين وجملين باركين وفي يسار أعلى الصورة رجلا يعد خبزا في تنور . وخلف هذه المشاهد جميعا صورة جدار ثابراجه المحصنة ، مما قد يوضح الاختلاط الشديد بين سكنه المدن وسكنه الخيام . (Pritchard. op. cit. pl. 170).

ومن فترة معاصرة للعهد الاشوري ، وصلنا نحت بارز على الحجر يمثل رجلا يجلس فوق مقعد يشبه صندوقا خشبيا مربع الشكل شد الى سنام البعير بحبال تتقاطع عند مرورها حول جسم البعير . ويمسك الرجل بيده اليمنى عصا لقيادة البعير ، بينما صورت يده اليسرى ممدودة وكأنها تمسك بحبل يربط رقبة البعير (مقام لجام الخيل) ولكنه غير واضح في الصورة ، وللرجل شعر طويل يتدلى من الخلف ليغطي رقبته وليذكرنا بشكل شعر الرأس في

---

(٤٠) Ibid. pl. 63.

الصور الاشورية ، وكذلك في عصبة رأسه • وقد عثر على هذه المنحوتة في تل حلف على خابور الفرات ويرجع زمنها الى حدود القرن التاسع ق•م•(٤١)

ويبدو ان موضع جلوس الراكب على ظهر الجمل نال قسطا كبيرا من الاهمية من قبل بعض علماء الانثروبولوجي المعنيين بدراسة البدو والبداوة ، وخصوصا منهم أصحاب الابل • فيميز هؤلاء الباحثون بين ثلاثة مواضع من ظهر الابل عند ركوبها ، على السنام وخلفه وأمامه ، ويربطون بين هذه المواضع والمقاعد المخصصة للجلوس وبين مراحل تطورية مر بها العرب من أصحاب الابل(٤٢) •

ومن بعلبك وصلتنا صورة جمل عربي بارك وعلى جانبي ظهره جرتان كبيرتان ، مرسومة على اناء فخاري يرجع لحدود القرن السادس ق•م•(٤٣)

وتعرض صورة أخرى من تدمر لجمل على ظهره محمل (هودج) ، يقوده رجل وتسير خلف الجمل بضعة نساء ، أبرز ما يلفت الانتباه على هيئتهن انهن محجبات • ويرجع زمن هذه الصورة الى القرن الميلادي الاول(٤٤) •

ويبدو أن النشاط التجاري العربي بلغ مدى واسعا في مطلع القرون الميلادية ، وتبدأ مدن القوافل التجارية العربية تلعب دورها الكبير الاهمية ، كما تسجل لنا ذلك الاحداث التاريخية لهذه الفترة • لذلك فمن الطبيعي ان

---

(٤١) B. M. Von oppenheim: Tell Halaf, Translated by G. Wheeler, London pl. 21A; pritchard. op. cit. pl. No. 188.

(٤٢) The Ency. of ISLAM, New edition, Vol. III Leiden 1971 P. 667; W. Dostal, op. cit, P. 3 ff.

(٤٣) Robinson, op. cit. P. 58.

(٤٤) H. Klengel, op. cit. P. 168.

تزداد أهمية ودور الابل في حياة مدن القوافل التجارية كتدمر والحضر وغيرها. وإذا كانت أثار بعض هذه المدن لم تظهر أية تفاصيل أو رسوم للابل : فسببه نقص ومحدودية أعمال التنقيبات في بقايا هذه المدن ، ومثال ذلك الحضر ، فعلى الرغم من مرور أكثر من ثلاثين سنة على أعمال التنقيبات في الحضر ، فقد كشف عن بقايا معابد صغيرة منذ سنتين فقط ، وفي أحد هذه المعابد ، وهو معبد اللاة الذي يرجع بناؤه الى زمن الملك سنطرق (في حدود ١٧٠ م) نشاهد صورة الجمل ضمن صور الموسيقيين على افريز منحوت داخل جدران المعبد . وأكثر من ذلك خطورة وأهمية ، فان صور الابل تزين الواجهه الامامية للمعبد، فعلى أحد جانبي المدخل ، نفذ بالنحت البارز على الحجر الكلسي المستخدم في بناء المعبد ، صورة من قسمين ، العلوي منها يمثل ناقة يرضعها وليدها ، والسفلي يمثل جملا باركا . وعليه ينجلي كليا ما يكتنف دور الابل في حياة العرب من غموض ، بحيث نراه مصورا في أبرز مكان لمعبد ربة مشهورة في عقائد العرب الدينية(*) ومن فترة زمنية قريبة لجملي الحضر تعرف أيضا مسلة قبر سبأيه ، نحت على قسمها العلوي صورة جملين يمتطي أحدهما رجل ، ويلاحظ أن الرجل يمتطي بعيره في موقع من ظهر الجمل أمام السنام . وتؤرخ هذه المسلة بحدود القرن الثاني او الثالث الميلادي(٤٥) .

وقبل التوغل في أعماق الارض العربية تفتيشا عن اثار الابل ، لنتحول الى مصر حيث نجد ان اثار الجمل هناك تتعرض الى انقطاع طويل الامد يستغرق العهد الفرعوني بأكمله وحتى اواخر العصر اليوناني ومطلع العهد الروماني .

(*) نظرا لحداثة هذه المكتشفات فهي لم تنشر بعد ، وقد شاهدتها شخصيا بالاضافة الى أعتمادي توضيحات الاستاذ محمد علي مصطفى أحد العاملين الخبيرين بآثار الحضر .

(٤٥) Pritchard, op. cit. pl. 636.

ان أقدم الدلائل لوجود الجمل في مصر تتمثل في أكتشاف الاثاريين لبقايا هيكله العظمي في الفيوم ، وتؤرخ هذه المكتشفات بالفترة ما بين (٢٤٠٠ ـ ٢٠٠٠ ق ٠ م ٠)[٤٦].

ونعرف من أسوان صورا للجمال تؤرخ بالفترة ذاتها ، كما عثر في أبيدوس وغيرها على تماثيل وصور جمال تعود لعهد الاسرة الاولى[٤٧] .

وربما تشير بعض صور الجمال هذه الى أنواع مدجنة من الجمال ، ولكن الامر الواضح هو ان الجمال لم تستخدم على نطاق واسع في مصر في عصورها القديمة[٤٨] .

وعموما فان الشك لا يزال مرافقا للباحثين في أمر تدجين الابل في مصر منذ الفترات المبكرة[٤٩] . ومما يعزز من موقع الشك هو بقاء السؤال التالي بخصوص الموضوع قائما ومفاده : لماذا لم يستمر ظهور الابل على مصورات المقابر المصرية وفي غيرها من المخلفات المصرية الكثيرة التي يندر أنها أغفلت حيوانا من حيوانات مصر القديمة ؟ كما يثار السؤال عن سبب غياب كلمة جمل في اللغة والخط الهيروغليفيين[٥٠] .

والذي نراه أن بعض اثار الجمال المبكرة في مصر تشير الى معرفة عرضية بهذا الحيوان من خلال صحراء سيناء ، بخاصة وان سيناء كانت موطن مناجم النحاس التي أستثمرها المصريون ، ولما تعززت قوة ومكانة مصر بقيام الاسر

---

(٤٦) Joseph P. Free: "Abrahams' Camels" in JNES. 3 (1944) P. 189.

(٤٧) Ibid. P. 190.

(٤٨) Ibid. P. 192.

(٤٩) Robinson, op. cit. P. 58.

(٥٠) Von Reinhard, "Zum problem des Zeipunkts der Domestikation der altweltichen Cameliden" in ZDMG, Vol. 101, Neue folge B. 26 wiesbaden 1951. P. 38-40.
Free, op. cit. P. 192.

الحاكمة القوية كالاسرة الثالثة ، فرضت سيطرتها المباشرة على مناطق سيناء ، مما تسبب في أنسحاب سكانها الاصليين مع افتراض انهم أصحاب ابل ، الى داخلية الارض العربية في الاقسام الشمالية بين الحجاز وشمال نجد ، حيث عرفناهم في هذه المناطق بشكل واضح •

أما الجزيرة العربية ومناطقها المختلفة ، والتي يرجح ان تكون الموطن الاصلي للجمال العربية ، فهي بسبب من أحوالها المناخية والجغرافية لعصورها الاخيرة ، أضحت كنزا يخفي بداخله كثيرا من مخلفات العرب الاقدمين • ولكن نتيجه جهود علماء الاثار والمستكشفين المتواصلة ، تتكشف امامنا يوما بعد اخر مزيدا من المعلومات الثمينة عن تاريخ ارض العرب القديمة وعن واقع حياة سكانها •

ففي كتاب أثاري مصور يعكس جهودا قيمة ومضنية بذلها العاملون على اخراجه ، تتوضح معالم مختلفة لحياة الجزيرة العربية في عصورها القديمة ، وعلى الرغم من كون الكتاب اعلامي ، حيث لم تقترن المصورات بشروحات تفصيلية علمية كاملة ، الا ان بعض الرسومات عثر عليها بمعية كتابات عربية جنوبية مما يسهل تحديد تاريخها التقريبي ، مع الاخذ بنظر الاعتبار من ان الرسوم المختلفة ليست بالضرورة دائما تؤرخ من زمن الكتابات المجاورة لها ، فقد تكون سبقتها او لاحقه لها ، لذلك فهي بحاجة الى دراسة علمية دقيقة مقترنة بدراسة المنطقة التي وجدت فيها هذه الرسوم ، كما حصل مع رسوم الحيوانات في كلوه حيث أستطاع الباحثون من تشخيص زمن الرسومات بدليل بعض الالات الحجرية في الموقع نفسه(٥١) •

وتتعرف من خلال رسوم الكتاب ، الى صور بعض الحيوانات التي

---

(٥١) مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية : أصدار ادارة الآثار والمتاحف وزارة المعارف . المملكة العربية السعودية ١٩٧٥ .

يستحيل وجودها اليوم في تلك المناطق من الجزيرة بسبب الاحوال الجغرافية والمناخية الحالية ، ومنها صور الثيران والخنزير والنعام والاسد[٥٢] ، وهذا ما يدعم الرأي القائل بواقع مناخي للجزيرة العربية في عصورها القديمة مغاير لما هو عليه اليوم . وبالاضافة الى هذه الصور ، تكثر صور ورسومات الابل ومن مناطق مختلفة من الجزيرة العربية .

فمن منطقة نجد والقصيم ، وعلى صخور جبل براقه تشاهد صور تجريدية حفرت على الصخر لجمل عربي ، يرجع تاريخه بالاستناد الى المخلفات الاثرية المرافقة له الى حدود الفترة الميلادية . وصورة أخرى من موقع جبل برمه (٦٠ كم شرقي الرياض) لجمل ومعها نقوش ثمودية ترجع الى القرن الرابع او الخامس ق . م .[٥٣] .

ومن المنطقة الشمالية للمملكة العربية السعودية ، والى مسافة ٤٠ كم شرق حائل ، يقوم جبل يعرف بالمليحية تبرز على صخوره صور الجمال بجانب الابقار والاسود والنعام[٥٤] .

وقريب منه جبل يعرف باسم ياطب تكثر صور الجمال على صخوره بالاضافة الى صور النخيل وأسد ومعها كتابة ثمودية تعود للقرن الثالث ق . م . ومن المهم أن نشير الى ان هذين الموقعين (المليحية وياطب) قريبان من طريق الحج العراقي المشهور باسم طريق زبيدة[٥٥] .

كذلك نتعرف على صور الجمال وحيوانات أخرى من مواقع صخرية قريبة من سكاكا ومن هذه الصور ما نحت على علامات قبور قديمة ترجع الى

---

(٥٢) نفس المصدر ، ص ٢٢ .
(٥٣) نفس المصدر ، ص ٢٦ ، ٣١ .
(٥٤) نفس المصدر ، ص ٦٥ ، ٧٤ .
(٥٥) انظر الخارطة على الصفحة ٦٦ من نفس المصدر ، كذلك الصور على الصفحة ٦٨ .

حدود القرن الثالث ق • م • وهي عبارة عن كتل صخرية كبيرة الحجم مستطيلة الشكل تنصب كل ثلاثة أو أربع منها بشكل قائم(٥٦) • تعرف في بعض مناطق أوربا باسم **Megalith** .

أما المنطقة الشمالية الغربية ، والتي تعرف بأرض مدين أو دادان ، فهي غزيرة بمخلفاتها الاثرية من قصور وأسوار ومعابد ، وكذلك مئات النقوش المعينية والدادانية والثمودية والنبطيه ، ومن مدن هذه المنطقة ذات الشهرة التاريخية العلا (دادان القديمة) والحجر (مدائن صالح) وتيماء •

وبالقرب من روافه التي تبعد مسافة (٧٤ كم) غربي تبوك ، والتي فيها بقايا معبد روماني نبطي يرجع عهده للقرن الثاني الميلادي ، عثر على رسوم ابل ونعام بمعية كتابات ثمودية على صخور جبل قريب(٥٧) •

وعلى صخور جبل غنيم الذي يبعد ٩ كم جنوب شرقي تيماء ، حفر أسم شخص بالكتابة الثمودية تجاورها صورة جمل(٥٨) •

وعلى مقربة من نجران في الاقسام الجنوبية الغربية من المملكة العربية السعودية ، تقوم بقايا أثرية من أبرزها بناء حجري كبير يعرف بالاخدود ، وتحمل بعض حجاراته رسوما ونقوشا معينية وسبأيه وكوفية ، ومنها صورة جمل في حالة جري يجاور نقوش سبئية • وقد نفذت الصورة بشكل فني متقن يتميز عن الاسلوب التجريدي أو البدائي الذي ألفناه في الرسوم السابقة• ومن الجدير بالذكر أن الصورة الوحيدة للفرس هي التي نحتت على واجهة احدى حجارات جدار مبنى الاخدود ، والصورة بتنفيذها المتقن ومستواها الفني الرفيع ، تبدو معاصرة أو قريبة من زمن نحت صورة الجمل ، ولان بناء

---

٥٦) نفس المصدر ، ص ٨٦ •

٥٧) نفس المصدر ، ص ١٠١ •

٥٨) نفس المصدر ، ص ١١٢ •

الاخدود يرقى الى فترة قريبة من العهد الاسلامي أي لحدود القرن الخامس الميلادي ، لذلك يبدو جليا عدم غرابة وجود صورة الفرس • ولكن هـذه الصورة الوحيدة والفريده في علمنا لحد الان تشير بوضوح الى ندرة الخيل في الجزيرة العربية من جانب ، وربما تشير الى بدايات انتشارها مـن جـانب اخـر(٥٩) •

ان صور الجمال هذه قد تكون مثار خلاف حول تاريخها ، وهل هي تمثل جمالا مدجنة أم وحشية ، واذا كانت وحشية فذلك يشير الى فترات بعيـدة من تاريخ هذا الحيوان على الارض العربية ، وللافتراض الاخير ارجحيته التي يسندها صور حيوانات ظهرت مع صور الجمـال ، والتي كانت تعيش ارض الجزيرة العربية خلال فترات تاريخية قديمة شهدت الجزيرة العربيـة ظروفا جغرافية ملائمة لمعيشة هذه الحيوانات مثل النعام والثيران والابقار والاسود•

ولربما تكون صور الجمال نفذت من فترات تاريخيه لاحقة لزمن صور الحيوانات الاخرى ، وبخاصة وأن المناطق التي حفظت لنا هذه الصور تمثـل معالم بارزة وشاخصة ومستمرة وتقع على مفترق طرق او امتداداتها او بالقرب من مصادر الماء كالينابيع أو الواحات أو الوديان ، وهذا الواقع يفترض ان شهدت هذه المواقع الانسان العربي منذ أقدم عصوره والى وقت قريب ، ويتأكد ذلك من وجود كتابات من عصور مختلفة في مكان واحد مثل الكتابة السبأية والثمودية والكوفية ، مما يؤكد تسجيلها من فترات تاريخية متباينة وربمـا ينسحب هذا الامر على موضوع الرسوم •

ومهما يكن من أمر تاريخ هذه الرسوم ، حيث تتوضح أهميه الدراسـة العلمية الدقيقة لها ، فالامر الاهم والذي تبرزه وتؤكده هذه الرسوم ، وبخاصة انتشارها في جميع أقسام الجزيرة العربية ، كون الجمل هو الحيوان الرئيس

---

(٥٩) نفس المصدر ، ص ١٧٠ ، ١٧٦ •

والاكثر شيوعا وانتشارا بين العرب ، وبالتالي طبعت صورته مخيلة الفنان العربي القديم •

وبعد هذا المسح الشامل للجزيرة العربية واطرافها ومراكز الحضارات القديمة المجاورة لها ، والذي برزنا من خلاله معظم المخلفات الاثرية للابل ومن مختلف الفترات التاريخية • ربما يثار السؤال التالي وهو ، لماذا نربط بين الابل وتدجينها وبين العرب من سكان الجزيرة القدماء دون غيرهم من شعوب الشرق الادنى القديم ، الذين كان موطنهم الاصلي الجزيرة العربيـة قبل ان تعرفهم اطرافها في بلاد وادي الرافدين أو الشام ، ومنهم الاكديون والاموريون والكنعانيون وغيرهم ؟ ولاجل التركيز نوضح اجابتنا في النقاط التالية :

١ ــ بينت لنا المخلفات الاثرية معرفة مراكز الحضارات القديمة في العـراق وسوريا ومصر بالجمل في طوره الوحشي وربما أصطيد الجمل مع غيره من الحيوانات ضمن فترات مرحلة الصيد التي عاشتها هذه المراكـز الحضارية •

٢ ــ أزدهرت مراكز الحضارات القديمة في مناطق وديان انهار كبيرة كدجلة والفرات والنيل وأعتمدت في مواصلاتها هذه الانهر بشكل رئيسي ، كما غطى الحمار بعض احتياجاتهم المحدود في النقل البري ، وعليه لم تبرز الحاجة بعد لتوظيف حيوان بخصائص وقدرات الجمل •

وربما امكننا أن نضيف ان الاراضي الزراعية الغرينية والاراضي الموحلة بسبب كفيضانات الانهار ونسبة سقوط الامطار العالية لا تتلائم مع خصائص خف الجمل وتعرقل سيره •

٣ ــ ان الاحوال المناخية والجغرافية للجزيرة العربية لم تكن بعد قد شهدت وضوح حالة الجفاف واطراد مساحة الصحراء في الفترات الزمنية التي

هاجر فيها الاكديون والاموريون جزيرة العرب ، لذلك عرفنا اتتقال بعضهم مع الحمار وبخاصة الاموريون[٦٠] .

٤ ــ ان الجماعات السكانية التي واصلت سكنى جزيرة العرب بعد أنسلاخ بعضها في هجرات الى الاطراف ، عايشت التبدل المناخي والجغرافي بوضوحه التام ، لذلك سعت بكل قدراتها لايجاد سبيل يعينها في التغلب على الصعوبات الناجمة عن طبيعة الاحوال البيئية ، فكان الجمل ، ليفي بكافة متطلبات الحياة الصعبة في الاحوال البيئية الجديدة وليكسر طوق العزلة التي فرضته الطبيعة ، ويتيح أمام أصحابه فرصة المشاركة والمساهمة في أحداث تاريخ وحضارة الشرق الادنى القديم .

٥ ــ لم تعرف اللغة الاكدية من العهد الاكدي باعتبارها تمثل لغة أقدم النازحين من الجزيرة الى أرض وادي الرافدين ، أسم الجمل ، كذلك شأن لغات بقية شعوب الشرق الادنى القديم في سوريا ومصر[٦١] .

٦ ــ آن أقدم تسمية غير عربية للجمل ، هو الاسم الذي أطلقه السومريون على هذا الحيوان ، فحيوان النقل عند السومريين هو الحمار بالاضافة الى تركيزهم في عملية النقل على المواصلات النهرية . ولكن بحدود الالف الثانية ق . م . يفد عليهم حيوانان جديدان ، أحدهما دخل العراق

---

(٦٠) فيليب حتي : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج١ ترجمة جورج حداد دار الثقافة بيروت ١٩٥٨ الصورة بين الصفحتين ٦٤ ــ ٦٥ أنظر ص ٨٢ .

كذلك لا نعرف اية اشارة للجمل في نصوص ماري (على الفرات بالقرب من البو كمال) المجاورة لبادية الشام والتي تعد من مراكز الاموريين الرئيسية وكان أوسع ازدهار لها في حدود القرن التاسع عشر ق . م . انظر :

(W. F. Albright, from the Stoneage to Christianity, New York 1957. P. 165).

(٦١) CAD. I-J, P. 2.

من أقسامه الشمالية الشرقية وهو الحصان فأطلق عليه السومريون تسمية وصفية « حمار الجبل » بينما عرفوا الثاني ، الجمل ، من صوب الاقسام الجنوبية للعراق المتاخمة لموقع الخليج العربي ومناطق الاهوار والمستنقعات ، فأسموه « حمار البحر » ، وسنعكف على هذه التسميات في موضوع أسماء الابل •

٧ ـ عرف هذا الحيوان باسمائه العربية (جمل ، ابل ، ناقة) مع ازدياد وتوسع احتكاك العراقيين بسكان الجزيرة العربية ، أو بعد كسر الطوق الطبيعي من قبل العرب بتدجينهم الجمل الذي سهل عليهم الوصول الى مراكز الحضارة العراقية القديمة • عندها تزداد الصلات بين الطرفين تشابكا ، وتأخذ أسماء ورسوم الجمل بالازدياد في الاستعمالات العراقية المختلفة •

لذلك جميعا ربطنا بين الابل وبين العرب دون سواهم من شعوب الشرق الادنى القديم • ان من شدة تأكيد هذا الارتباط أنه يندر ان تصادف نصا مسماريا من نصوص العهد الاشوري يتكلم عن العرب دون أن يشير الى حيوانهم الرئيسي الجمل •

أسماء الابل :

ان أولى التسميات غير العربية الاسم الذي أطلقه السومريون على هذا الحيوان ، ودونوه مقطعيا في كتابتهم وهو anše-a. ab. ba ومعناه « حمار (الارض) البحر (يه) » وجاءتنا هذه التسمية الوصفية من معجم لغوي قديم وضعه العراقيون القدامى لترجمة وتعريف المفردات والافعال السومرية بما يقابلها في الاكدية ، أصطلح على تسميته نسبة الى أول مفردة وردت فيه وهي ḪAR. RA—ḫubullum ، وأعتمدت كتسمية لهذا المعجم بين المختصين • ويرجع زمن تأليفه الى مطلع الالف الثانية بحدود الفترة

الحضارية المعروفة بأسم فترة العهد البابلي القديم من أدوار حضارة العراق القديم • ويقدم لنا هذا المعجم تسمية أعتمدتها اللغة الاكدية مرادفا للاسم السومري للجمل وردت بصيغة i-bi-lu • كما أطلق السومريون تسمية ثانية على الجمل من النوع البكتري وردت بالشكل التالي :

am - si. Kur - ra an [si]. ḫa - ra - an

وترجمته « الثور الوحشي الجبلي من الخارج (الاجنبي) » •

يقابله في اللغة الاكدية لفظة i-bi-lu أيضا •

وللتمييز بين النوعين من الجمال ، العربيـة منها والبكتريـة ، وصف السومريون النوع البكتري بكونه ذو حدبتين ، كما أعتبروه أجنبيا أي قادما من الخارج • وربما تكون في هذه الاشارة الوصفية للجمل البكتري تأكيدا بقدم معرفة العراقيين بالنوع العربي من الجمال وتآلفهم مع شكله ، لذلك اعتبروا النوع البكتري غريبا أو أجنبيا(٦٢) •

يتوضح لنا مما سبق ، أن لفظة « ابل » كأسم على على حيوان معين ، وما يقابلها بالسومرية كانتا معروفتان على فترة العهد البابلي القديم • وتتعرف أيضا على نص سومري عثر عليه في مدينة نفر يرجع زمنه الى نفس الفتـرة التاريخية ، أن الجمل البكتري عرف مدجنا(٦٣) • مما يرجح كون النوع العربي عرف مدجنا من نفس الفترة ان لم يكن أسبق منها • والمرجح أن تكون لفظة ابل أخذت عن العربية ، لانها لفظة خاصة بثقافة هؤلاء القوم اولا ، ولانهـا لم ترد في بقية اللغات السامية(٦٤) •

---

(٦٢) The Assyrian Dictionary, of the Oriental Institute of the University of Chicago Editorial Board: I. J. Gelb, B. Landsberger, A. Leo Oppenheim. (CAD) Chigaco-USA 1960 I. J. P. 2.

(٦٣) CAD, ibid. P. 2.

(٦٤) Ibid.

وتكشف لنا الكتابات المسمارية ان لفظة ابل ظهر أستخدامها كمقابل للاسم السومري السابق الذكر للحيوان قبل لفظة « جمل » التي توضع أيضا في بعض المعاجم اللغوية القديمة كمرادف للاسم السومري •

ولكن على العهد الاشوري ، أستخدمت التسميتان ابل وجمل على النوع العربي بينما تظهر تسمية جديدة هي udru للنوع البكتري من الجمال • ولكن يشيع استخدام لفظة جمل في النصوص الاشورية بالصور التالية ومرفقة بالعلامة الدالة على حيوان وأحيانا بدونها :

GAM. Mal, Anše. Gam - mal, Anše. A. AB. BA

ونرى ضرورة الاشارة ثانية الى ارتباط لفظة جمل مع العرب في النصوص التي وصلت ايدينا من العهد الاشوري •

أما الجمال من النوع البكتري ، فقد أطلق عليها الاشوريون تسمية « الجمال التي تكون ظهورها من حدبتين » كما أستخدموا اللفظة الجديدة لها udru (٦٥) •

وفي الوقت الذي يغيب فيه تمييز جنس الحيوان في الاشارات الاولى للابل ، أطلق الاشوريون تسمية لانثى الجمل بصيغة anaqate (٦٦) وكذلك : mi anše a-na-qa-a-te/ti (٦٧)

وهكذا تثبت لنا المصادر المسمارية ، أن لفظتي ابل وجمل عرفتا منذ فترة العهد البابلي القديم مع أسبقية زمنية محدودة للفظة ابل • كما عرفت لفظة ناقة على العهد الاشوري •

---

(٦٥) CAD, G. P. 35.

(٦٦) CAD, A. P. 112.

(٦٧) W. Von Soden: Akkadisches Handwörterbuch, Band I, A-L, P. 50 wiesbaden 1965 (AHW).
مع ترجيحه أن تكون اللفظة مستعارة من العربية (ناقه) .

أما اللغة العبرية فقد حفظت أسم الحيوان بصيغة « جمل » حيث يلاحظ شبها قويا بين حرف الجيم وبين شكل شبحي او تجريدي للجمل(٦٨) .

أما في السريانية وريثة الارامية فتعرف منها تسميتان :

هبلتا ، ابلتا = قطيع من الابل

كملا = جمل . وللناقة كملتا(٦٩) .

وحفظت لنا السبأية هذه التسمية

ا ب ل = ابل

كما عرفت لفظة بعير للدلالة على الجمال أيضا(٧٠) . علما أن لفظة بعير في العربية كما في السبأية تعني الانعام بشكل عام(٧١) . والبعير في القرآن الحمار ، وفي زبور داود : أن البعير كل ما يحمل . ويقال بالعبرانية لكل ما يحمل بعير(٧٢) .

أما بعض اللغات الهندو أوربية الاصل ، فللحيوان فيها أسم مغاير تماما عن لفظه في الاسماء العربية ، وهذا يبعد أحتمال كون لفظتي « ابل وجمل » أجنبيتان ففي الايرانية الحديثة « شتر » وجمعها « شترها » أو « شتران » وهي لفظة متطورة عن الفهلوية ، وكذلك في لغة الآقستا « أو شترا » ، ومن

---

(٦٨) The Ency. of Islam, Vol. III, ibid, P. 665.

(٦٩) Louis Costazs. J. قاموس سرياني عربي ص ٧٢ ، ٤٩ بيروت ١٩٦٣ .

(٧٠) نصر عبدالله ناصر : « هيكل اللغة اليمنية القديمة » مجلة الثقافة الجديدة اليمانية عدد : ٨/٧ ، آب ١٩٧٦ ، عدن .

(٧١) اغناطيوس جويدي : المختصر في علم اللغة العربية الجنوبية القديمة . القاهرة ١٩٣٠ ص ٣٠ .

(٧٢) ابن منظور : لسان العرب مجلد ٤ ص ٧١ . دار صادر بيروت ١٩٥٦ .

أسم الجمل في الفهلويه يتركب اسم زرادشت نبي الديانة الايرانية القديمة ، حيث يتألف أسمه من مقطعين :

زرا ـ ومعناه أصفر ، الذهب ، الذهبي ، المسن

أوشترا ـ الجمل

أما في اللغة الكردية فهو « حوشتر » وجمعه « حوشتره كان » أو « حوشتران » ولا تعرف اللغتان تسمية خاصة لانثى الجمل(٧٣) .

ويبدو محتملا أن التسمية التي أستخدمها الاشوريون لتعيين الجمل البكتري وهي udru ، أخذوها عن سكان ايران القدماء المجاورين لهم ، بخاصة وان نشاطات الاشوريين السياسية والاقتصادية شملت مساحات كبيرة من بلاد ايران الشمالية . ولربما أيضا وصل الجمل البكتري الى العراق من هذه الاقسام عبر سلاسل جبال زاكروس وبخاصة وأن هذا النوع من الجمال له مقدره عالية في السير فوق الاراضي الصخرية والباردة وتسلق الجبال .

أما الاسم الذي أطلقه اليونان عن الجمل فهو Kamelos ، كذلك عرفته اللاتينية باسم Camelus ، وواضح جدا الاصل العربي لهاتين التسميتين وتسربهما الى اللغات الاوربية الحديثة بصيغة Camel .

توضح لنا صيغ التسميات المختلفة التي عرضنا لها سابقا الملاحظات التالية :ـ

١ ـ كان التمييز في الاسماء بين النوعين الرئيسيين للابل ملازما لمعرفتنا

---

(٧٣) ان أسماء الحيوان في الايرانية والكردية تفضل زميلي الاستاذين الدكتور امين سعيد من قسم اللغات الشرقية بكلية الاداب ، والدكتور كمال مظهر من قسم التاريخ في نفس الكلية ، بتزويدي اياها ، أغتنم هذه الفرصة لتسجيل شكري الجزيل لهما .

التاريخية بهذا الحيوان • ويبقى التمييز مستمرا في لغات الشعوب القديمة ويستمر حتى الوقت الحاضر •

٢ ــ تشير التسميات السومرية للحيوان الى المناطق التي عرفوه من خلالها وفي ذلك تمييز بيّن لنوعين من الابل مع تحديد أوضح لمناطق تواجد كل منهما بقدم المصادر التاريخية المتوفرة •

فالنوع البكتري يرتبط أسمه الوصفي بالمنطقة الجبلية الشمالية الشرقية لارض الرافدين ، بينما يرتبط الجمل العربي بالاقسام الجنوبية، وهي مناطق البطائح والاهوار والخليج العربي ، وهي المنطقة الملاصقة لجزيرة العرب •

٣ ــ أطلق السومريون في تسميتهم للنوع البكتري لقب الاجنبي أو الخارجي كما تبينا ذلك من الاسم السومري ، بينما يختفي مثل هذا اللقب عن النوع العربي ، ولهذا التمييز تفسيران :

أ ــ ان النوع العربي من الجمال أقدم توغلا في أرض الرافدين من النوع البكتري ، وهذا يتفق مع طبيعة الاقسام الجنوبية لبلاد وادي الرافدين التي تعد أرضا مكملة طبيعيا لارض الجزيرة العربية لذلك لم يعتبره السومريون غريبا عليهم •

ب ــ أن يكون اصحاب الابل وهم العرب أو غيرهم من سكان الجزيرة القدماء من اوائل سكنة بلاد وادي الرافدين جنبا الى جنب مع السومريين ، ولكن بسبب غلبة اللغة والكتابة السومرية فقد شاع الاسم السومري • ولكن بعد تركز أصحاب الابل في الاستيطان وممارستهم لدورهم السياسي والاقتصادي في مجرى الاحداث الحضارية لبلاد وادي الرافدين ، أخذت مفردات لغتهم وتسمياتهم تشيع في الاستخدام على نطاق لغة الحضارة العراقية •

ومما يجدر التنويه به في هذا الخصوص أن واحدة من أولى الممالك التي ظهرت من أقدم الادوار السياسية لحضارة بلاد وادي الرافدين وهو عصر فجر السلالات ، وكان ظهورها في حدود (٢٦٠٠ ق • م •) السلالة التي حكمت في مدينة كيش (تعرف بقاياها بتل الاحيمر وتقع مسافة ١٥ كم شرق مدينة بابل القديمة) حيث كان بعض أمرائها يحملون أسماء سامية بل عربية على وجه الخصوص مثل كلبم (كلب) وأرويئم (عروه) أو (أروه)[٧٤] •

٤ ــ عرفت حضارة العراق القديم لفظة « ابل » منذ مطلع الالف الثانية ق • م • وبقيت مستمرة حتى وقتنا الحاضر في اللغة العربية • ومما يجدر التنويه به أن التوراة عرفت لفظة « جمل » ولم تستخدم لفظة ابل عند اشارتها الى هذا الحيوان ، بينما أستخدم القرآن الكريم لفظة « ابل » بدلا من جمل عند اشارته لهذا الحيوان ، فربما يكون في ذلك خصوصية عربية أوضح للفظة « ابل » • كذلك عرفت لغة الحضارة العراقية القديمة لفظة « جمل » بعد لفظة « ابل » ثم عرفت لفظة «ناقه» •

ان لفظة « ابل » هي الاقدم في الظهور في الكتابات العراقية القديمة ، ولكن لفظة « جمل » هي الاوسع انتشارا في النصوص وبخاصة الاشورية منها ، وربما يكون سبب شيوع لفظة « جمل » في النصوص الاشورية مفاده كثرة صلات الاشوريين بالعرب الشماليين المتأثرين باللغتين الارامية والعبرية والتي كانت لفظة « جمل » شائعة فيما بينهم أكثر من لفظة « ابل » • ومما يرجح هذا الافتراض أن اليونان والرومان الذين كانت مراكزهم في سوريا ومصر وبعض أقسام أرض الجزيرة الفراتية ، وهم بذلك قريبون من الاقسام

---

(٧٤) J. Pritchard. Ancient Near Eastern Texts, New Jersy 1969 P. 265.

الشمالية للجزيرة العربية ، حفظوا لنا في مدوناتهم لفظة « جمل » ونقلوها الى اللغات الاوربية الحديثة .

بينما بقيت لفظة « ابل » نادرة الاستعمال الى زمن التدوين العربي الذي يعد القرآن الكريم من نماذجه الاولى والواسعة .

فهل يشير ذلك الى أن لفظتي « ابل » و « جمل » من مصدرين مختلفين في الجزيرة العربية ؟ كأن تكون الاولى من وسط وجنوب الجزيرة ، بينما الثانية من شمالها ، ولهذا الرأي أرجحيته لان لفظة ابل شاعت في العربية والسبأيه ، بينما شاعت لفظة جمل في العبرية والارامية .

وننتقل الان صوب المصادر اللغوية العربية لنتعرف من خلالها على أسماء هذا الحيوان ومعانيها ، فلربما تلقي مزيدا من الاضواء على تاريخ هذا الحيوان وعلاقته بالعرب .

فالابِلُ والابْلُ : معروف لا واحد له من لفظه ، وهي مؤنثة لان أسماء الجموع لا واحد لها من لفظها اذا كانت لغير الآدميين فالتأنيث لها لازم . وأقل ما يقع عليه اسم الابل الضرمة وهي التي جاوزت الذود الى الثلاثين ثم الهجمة وأولها الاربعون الى ما زادت ، ثم هنيده ، مائة من الابل . ويجمع الابل آبال[75] .

أما الجَمَل : الذكر من الابل : وقد أوقعوا الجَمَل على الناقه فقالوا شربت لبن جملي وهذا نادر . والجمع أجمال وجمال وجمالات وجماله وجمائل[76] .

أما الناقه : الانثى من الابل والجمع أنوُق" وانْوُق[77] .

---

(٧٥) لسان العرب . مجلد ١١ ، حرف اللام ص ٣ .

(٧٦) نفس المصدر ، ص ١٢٣ .

(٧٧) نفس المصدر ، مجلد ١٠ حرف القاف ص ٣٦٢ .

يلاحظ مما سبق أن لفظة ابل هي أساس التسمية العربية للحيوان ، وكأن لفظتي جمل وناقه أريد بهما وصفا لجنس الحيوان ، بقول اللغويين العرب للجمل ، الذكر من الابل وللناقة الانثى من الابل •

كذلك فان معظم المؤلفات التاريخية واللغوية العربية التي تطرقت لهذا الحيوان جعلت من لفظة « ابل » عنوانا لموضوعاتها مثال ذلك « كتاب الابل » في المخصص لابن سيده ، وباب « الابل » في كتاب الافصاح في فقه اللغة[٧٨] وغيرها من المؤلفات •

لذلك ، وبما ان الابل وأصحابها يتنقلون ويتحركون على شكل مجموعات كانت التسمية التي تشير الى مجموعة من هذا الحيوان هي التسمية الاولى التي عرفها العراقيون القدامى مع أطلالة أصحاب الابل عليهم • وعندما زاد أحتكاكهم بالعرب عرفوا بقية التسميات التي درج عليها العرب لاسماء حيوانهم الرئيسي ، فعرفوا لفظة جمل وناقه ، وكان ذلك بشكل واسع وواضح على العهد الاشوري الذي شهد أوسع الصلات مع عرب الجزيرة العربية •

وعلى الرغم من ذلك ، يبقى موضوع منشأ تسمية الابل ومعناها من الموضوعات التي تنتظر المزيد من الدراسات اللغوية من خلال التراث اللغوي العربي المحفوظ وكانت للشيخ عبدالله العلايلي محاولة الرياده في هذا الاتجاه ، وربما كان اخفاقه (على رأينا) يرجع لتعذر المصادر المسمارية عليه •

يرى العلايلي أن أصل جذر كلمة « ابل » ميثولوجي مؤلف من (أب) والتي يرى أنها مثل (أبو) السومرية التي تعني المرعى والزرع والخصب • ومن لفظة (ايل) التي تعني آله ، فيكون المعنى آله الرعاة[٧٩] •

---

(٧٨) حسين يوسف موسى وعبدالفتاح الصعيدي : الافصاح في فقه اللغه ، ج٢ طبعة ثانية ، دار الفكر العربي •

(٧٩) الشيخ عبدالله العلايلي : المعجم • القسم الاول • المجلد الاول ، ص ٣٨ دار المعجم بيروت ، ١٩٥٤ •

ولكن اللغة السومرية تقدم لنا مقطع (ab) بمعنى الاب والبحر وشهر آب ، وليس بينها وبين المرعى والزرع أية علاقة[٨٠] • ولم يعثر في السومريات على مقطع له علاقة بالزرع أو الخضره سوى أسم آله مغمور وردنا أسمه بصيغـة "Abu" عثر على تمثال له ولزوجته في تل أسمر من مواقع منطقة ديالى ، ويرجع زمنه الى حدود منتصف الالف الثالثة ق • م • وهو ألـه للخضرة والزرع[٨١] • ولان « آبو » أسم آله ، فلا يستقيم معناها مع لفظة « ايل » التي تعني اله ايضا ، فالاسلوب المتبع الذي جرى عليه السومريون والبابليون الذين دونوا بالخط المسماري هو أن يسبقوا أسم الآله بعلامة داله على الالوهيه وهي علامة محوره عن صورة النجمة •

ان الذي نعتقده في معنى لفظة « ابل » أن بينها وبين جذر فعل أكـدي صلة قائمة • فالفعل الاكدي wabalu و abalu ، أبالو ، وبالو ، معناه ينقل ويجلب ويحمل • وأسم الفاعل منه wabilu و abilu ، ومعناه : الحامل والناقل • ونظرا لارتباط الابل منذ فترة تدجينها الاولى وعبر تاريخها الطويل وحتى وقتنا الحاضر بعملية النقل والحمل ، فالارجح ان تكون احدى المفردتين أساسا للاخرى •

كما نرى في أصل لفظة « جمل » ومعناها ، وجود صلة قوية بوظيفة هذا الحيوان الرئيسية وهي الحمل والنقل كما أشرنا ، فلربما يكون أسم « جمل » تحوير وتبديل في صوت الحرف الاول من الفعل العربي « حمل » علما أن أمر تحول نطق حرف الجيم الى حاء وبالعكس ، يعد أمرا متواترا في العربية مثال ذلك حس وجس بمعنى تعرف اليه •

---

(٨٠) P. Anton Deimel: Sumerisches Lexikon, Vol II P. 128 ROMA 1930 R. LABAT: Manuel D'Épigraphie Akkadienne P. 95 sign no. 128 Paris 1952.

(٨١) A. Parrot: SUMER. P. 341, Thames & Hudson. France 1960.

وأخيرا ، ربما تكون هناك صلة بين لفظتي « جبل » و « جمل » • فقد اعتاد العرب ان يطلقوا لفظة جبل على بعض الكتل الصخرية التي لا يزيد ارتفاعها عن بضعة عشرات من الاقدام ، فليس مستبعدا أن يشبهوا حيوانهم بالجبل ويشتقوا من هذه التسمية أسما لحيوانهم ، علما أنه هو أعلى حيوانات الجزيرة العربية ارتفاعا ، كما يوحي شكل سنامه بقمم الجبال ، هذا مع أن أحد مشتقات لفظة « جبل » وهي الجُبْله تعني السَّنام(٨٢) •

ومهما يكن من أمر المصدر الاصلي لاسماء هذا الحيوان ، فاننا نرجح عربية الاسم بدليل الصلات الوثيقة بين هذا الحيوان وبين أصحابه الاصليين، العرب ، أولا ، ولان جملة الدلائل اللغوية التي سقناها سابقا ترجح عربية الاسم ثانيا ، وثالثا ، لان كثيرا من أسرار العربية القديمة أختفت بين اللغات السامية التي وجدت طريقها للتدوين • وعندما تنجح الدراسات اللغوية في فرز الخصائص العربية من بين ركام التراث اللغوي السامي القديم ، سيمكننا عند ذلك التعرف بوضوح على كثير من خصائص العرب الحياتية القديمة •

العرب والابل :

تشير المدونات التاريخية الى صلة فريدة من نوعها بين العرب وبين الابل• فالكتابات الاشورية يندر أن تشير الى أحدهما دون الاخر • وان أقدم اشارة تاريخية الى العرب في المدونات الاشورية وردتنا من عهد الملك شيلمنصر الثالث عند تسجيله لوقائع معركة القرقار ، وهي المعركة التي دارت رحاها بين الاشوريين وبين ملك دمشق وملوك مجموعة من مدن الشام تحالفت معه ضد الاشوريين ، وضم هذا التحالف العسكري مجموعة أو قبيلة عربية بزعامة جندبو العربي ، وحارب العرب في هذه المعركة من فوق ظهور جمالهم • وتؤرخ هذه المعركة بعام (٨٥٣ ق • م •) كما يرد ذكر الجمال من بين الاتاوات التي

---

(٨٢) لسان العرب : اللام ص ٩٨ •

أستلمها الملك تجلات بلاسر الثالث (٧٤٤ ــ ٧٢٧ ق٠م٠) ، من بعض الملكات أو الاميرات العربيات ، ومنهن زابيبي وسمسي ٠

ويواصل الملك سرجون الاشوري (٧٢١ ــ ٧٥٠ ق٠م٠) باستلام الاتاوة السنوية من الملكة سمسي وكان من بين المواد خيول وجمال ٠

ويغنم سنحاريب (٧٠٤ ــ ٦٨١ ق٠م٠) الكثير من الجمال في حروبه ضد العرب ويتكرر ذكر العرب والابل في نصوص أسرحدون (٦٨٠ ــ ٦٦٩ ق٠م٠) فالابل من بين المواد التي أوقعها أسرحدون أتاوة على بعض الزعماء والملوك العرب ٠

وأخيرا يرتبط ذكر الجمل بالغنائم التي أحرزها أشور بانيبال (٦٦٨ ــ ٦٣٣ ق٠م٠) من العرب[٨٣] ٠

ومثلما فعل أسرحدون في حمل المياه فوق ظهور الجمال التي جلبها اليه ملوك العرب عند عبوره سيناء ليصل الى مصر ، أتفق قمبيز الملك الفارسي الاخميني (أواخر القرن السادس ق٠م٠) مع العرب أيضا لتذليل عبوره سيناء الى مصر ، فحمّل الجمال بالماء لذات الغرض[٨٤] ، كما شاركت فرقة من الجماله العرب في جيش أحشويرش الاول (القرن الخامس ق٠م٠) وكان العرب يركبون الجمال فيها « التي لم تكن دون الخيل في سرعة جريها »[٨٥] ٠

ويسمي بليني الجمل ذو السنام الواحد بالعربي وذو السنامين بالبكتري[٨٦] ، ويشير في كتابه المشهور « التاريخ الطبيعي » الى أن اللبان

---

(٨٣) رضا جواد الهاشمي : العرب في ضوء المصادر المسمارية . مجلة كلية الاداب ــ جامعة بغداد العدد/٢٢ ، السنة ١٩٧٨ ص ٦٣٩ ــ ٦٨٣ ٠

(٨٤) Herodotus, III, 7-9.

(٨٥) Herodotus, VII, 86.

(٨٦) Pliny: Natural History, London 1969, VIII, 67.

كان ينقل على ظهور الابل في أقسام العربية الجنوبية[٨٧] • وفي حديث تفصيلي له عن عملية تسويق اللبان من العربية الجنوبية الى سواحل البحر المتوسط ، تتوضح من حديثه أن منتجات العربية الجنوبية كانت تنقل على الجمال[٨٨] •

ويتكلم بليني باسهاب عن دور العرب التجاري في نقل الكثير من المواد التجارية بالاضافة الى منتجات جزيرتهم ، من مكان لاخر ، حيث تتبين من اشاراته المتعددة الى أن العرب كانوا حلقة الوصل الرئيسية في تجارة الشرق الادنى القديم منذ عهد هيرودتس والى وقته (أي منذ القرن الخامس ق•م• وحتى القرن الميلادي الاول) حيث كانت الاسواق العراقية والسورية ومنطقة كرمانيه (كرمان في الاقسام الجنوبية الغربية من ايران) تعرف نشاطات التجار العرب[٨٩] •

وتتأكد هذه النشاطات التجارية الواسعة للعرب من خلال نصوص قديمة أخرى ، حيث تتبين منها حركة واسعة للقوافل التجارية البرية بين أقسام للقوافل التجارية البرية بين أقسام الجزيرة العربية وأطرافها ، فالتجارة المعينيون يسجلون شكرهم وعرفانهم فالجميل للاله عثتار لحمايته لقوافل جمالهم أثناء محاربة قمبيز لمصر[٩٠] •

ان معظم المآثر المدونة التي نمت الينا من الفترات التاريخية المختلفة ، تؤكد صلة الابل بالعرب دون سواهم من شعوب الشرق الادنى القديم •

فالقصائد السبع (وعلى رأي عشر قصائد) التي تعد من نماذج الشعر العربي القديم والتي تعرف بالمعلقات ، تتبين منها مكانة الابل في حياة العرب

---

(٨٧) Ibid. XII. 58.

(٨٨) Ibid. XII, 63-64.

(٨٩) Ibid. XII, 78-79.

(٩٠) The Cambridge Ancient History, Vol. III P. 310. Cambridge 1954.

وبخاصة للفترة ما قبل الاسلام . حيث يندر أن تقرأ قصيدة لا تجد فيها أشارة أو تشبيها للابل أو أسمائها أو نعوتها ، بينما يتضح غياب الخيل في هذه القصائد .

ففي قصيدتي طرفه بن العبد وزهير بن ابي سلمى لا تصادف ذكرا للخيل، بينما خصص طرفه بن العبد (٤٢) بيتا من معلقته للحديث عن الناقه .

والشاعر لبيد بن ربيعه يشير (١٢) مرة الى الابل مقابل (٣) اشارات الى الخيل . وحتى الشاعر عنترة الملقب بفارس بني شداد ، فيشير في قصيدته من المعلقات (١٥) مرة الى الابل مقابل (٥) اشارات الى الخيل .

ان الشاعر الوحيد من شعراء المعلقات الذي يكثر من الاشارة الى الخيل في قصيدته هو أمرؤ القيس ، حيث يشير (٤) مرات الى الابل مقابل (٥) اشارات الى الفرس ، وهذا يبدو لاول وهله أمرا مغايرا لواقع حياة العرب القديمة (بشكل خاص قبل الاسلام) وعلاقتهم بالخيل والابل .

ولكن بعد الامعان في قصيدة أمرىء القيس التي مطلعها (قفا نبك من ذكرى ...) نلاحظ ، كما لاحظ الدارسون للادب العربي ولهذه القصائد منه بالذات : أن القصيدة تتعرض في أقسامها الاخيرة الى انقطاع واضح عن وحدة الموضوع ، وتحول أوضح لاحداث نهايتها عن بدايتها ، مما يثير الشك في نسبة بعض الابيات من هذه القصيدة لامرىء القيس . ويرى الباحثون في الادب العربي ، أن بعض أبيات هذه القصيدة ليست من صلبها بل تنسب الى شاعر اخر يعرف بلقب تأبط شرا[٩١] .

---

(٩١) استقينا هذه المعلومات عن القصائد من كتاب « شرح القصائد العشر » للامام الخيطب أبي زكريا يحيى بن علي التبريزي المتوفى سنة ٥٠٢ هـ . عني بتصحيحها وضبطها والتعليق عليها محمد منير الدمشقي السلفي . وقام بطبعها على الاصل سنة ١٣٦٩ بمراجعة بعض رجال الادب عبدالهادي وأبو بكر محمد منير .

ان وجود الخيل بين العرب في فترات تاريخهم القديم ليس أمرا مستحيلا بل أنه نادر لاسباب كثيرة منها ، عدم ملائمتها لبيئة الجزيرة العربيــة وغـلاء أثمانها ، وتكاليفها الباهضة التي قد لايقدر أن ينهض بها الا الموسرون من العرب • ومن الاخبار التاريخية التي تؤكد ندرتها بين العرب ، أن غزوة أحد وهي من كبريات الملاحم العسكرية بين المسلمين والمشركين ، والتي جيشت قريش فيها كل امكانياتها وجمعت حولها كل حلفائها من القبائــل ، فكانت النتيجة أنهم أعدوا لهذه الحرب ثلاثة الاف مقاتل من بينهم (مئتان فارس) فقط ، بينما لم يكن بين صفوف جند الرسول البالغ عددهم (٧٠٠) مقاتــل سوى فارسين[٩٢] • فاذا كانت قريش ، القبيلة الحجازية الموسرة والتي تكثر مدن الواحات في منطقتها ، والتي لها علاقات تجارية نشطه ببلاد الشام ، لم تستطيع من تهيئة اكثر من (٢٠٠) من الخيل ، فكيف حال القبائل العربيــة الاخرى التي لم تتوفر عندها امكانات قريش •

صحيح ان الجمال ثقيلة الحركة بالقياس الى الخيل التي تشتهر بسرعــة مناورتها في الحروب ، ولكننا نعرف أمرا اخر بخصوص العلاقة بين الخيــل والابل ، حيث ان للابل رائحة كريهة تهرب منها الخيل ، فيذكر لنا الملــك الاخميني كورش الكبير أنه نجح من تشتيت خيول أعداءه في معركة ساردس (٥٤٦ ق•م•) بعد ان نقل جنوده الى ساحة المعركة على ظهــور الجمــال[٩٣] • حيث يبدو أن لرائحة الابل التي تفر منها معظم الحيوانات وبشكل خــاص الخيل والفيله[٩٤] ، كان لها دورا في انتصار كورش في معركة ساردس • ولعل وجود الفيلة في جيش الفرس مقابل جمال بني شيبان في معركة ذي قار المشهور

---

(٩٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ . المجلد الثاني ص ١٥١ دار صادر بيروت • ١٩٦٥

(٩٣) Robinson. op. cit. P. 55.

(٩٤) Ibid.

كانت من عوامل هزيمة الفرس وانتصار العرب على الرغم من قلة عددهم وضعف سلاحهم •

وعلى الرغم من أن هدف هذه الدراسة ليس المفاضلة بين الخيل والابل ، ولكن أمر التأكيد على الابل دون الخيل بكونها حيوان العرب القديم ، كما توضحنا ذلك من الاشارات الكثيرة في المخلفات الاثرية وفي المدونات ، نقصد من ورائه التدليل على صحة اعتمادنا هذا الحيوان لتاريخ العرب القديم •

فبسبب البيئة الجغرافية ، ولاسيما أمر كمية المطر ونمو النبت اللذين يتوقف أمر أعتدالهما على عوامل جوية ، يجد العربي ساكن السهوب والبوادي نفسه مرغما على اعتماد تربية الانعام مصدرا لحياته وبقائه وفق أسلوب أملته عليه هذه الظروف ، ونعني بها التنقل والانتجاع ، وهي من دون شك طرق كسب العيش والانتاج الرئيسية لدى غالبية سكان الجزيرة العربية ، وهذه البيئة الجغرافية ذاتها ، ونمط الحياة التي تمليها ، فرضت على العربي ان يعتمد الابل اعتمادا كليا في كسب عيشه « ولا تتخطى الحقيقة اذا قلنا أنه لولا الجمل لظلت الجزيرة العربية قفرا غير مأهول »(٩٥) •

ويصف شبرنغر البداة من العرب بقوله « أنهم عالة على الجمل ملتصقين به » وان هذا الالتصاق الشديد دفع المؤرخين العرب لتقسيم سكان الجزيرة العربية الى قسمين أولهما « أهل الوبر » وهم الذين يعيشون في خيم ينسجونها من وبر الجمل ، يقابلهم « أهل المدر » وهم الذين يعيشون في بيوت من اللبن ولا نريد ان نخوض في تفاصيل الاستفادة التي يعولها العربي على الجمل ، فان كتب التاريخ واللغة الكثيرة تغنينا عن مثل ذلك •

ان الاسباب البيئية والجغرافية السابقة نفسها جعلت من الامكنة الصالحة لتربية الجياد وأستخدامها محدود في انحاء الجزيرة العربية • فالحصان باهظ

---

(٩٥) بلياييف : المصدر السابق ص ٨٥ •

التكاليف تتطلب عملية اقتنائه جهدا وأحوالا لا تتوفر في كل صوب من أرض الجزيرة العربية • فهو مثلا يشرب مرتين أو ثلاثا في اليوم الواحد ، ولا يدنو من الماء العكر ، وطعامه الشعير ، ان هاتين النقطتين بحد ذاتهما كفيلتان بجعل الحصان حيوانا من الدرجة الثالثة في خدمة سكان الجزيرة العربية بعد الجمل والحمار • يضاف الى ذلك تعذر مشي الحصان فوق بعض الاقسام الرملية الخفيفة من أرض الجزيرة العربية بسبب تركيب قدمه •

وبين البدو مثل شائع مفاده أن من كان عنده حصان وزوجه فهو أمرؤ لا يعرف الراحة(٩٦) ، لذلك أنحصرت فائدة الخيل في الغزو والصيد والرياضة•

وأخيرا ، أستطعنا تلمس الفرق بين مكانة كل من الخيل والابل في نفوس العرب من المادة اللغوية التي حفظتها لنا لغة العرب •

ففي كتاب « الافصاح في فقه اللغة » الذي أشرنا اليه فيما سبق ، وجل مادته منقول من كتب اللغة والفقه والتاريخ ، يجمع المؤلفان (٣٥) صفحة في الحديث عن الخيل • بينما تبلغ أعداد الصفحات عند الحديث عن الابل (٦٨) صفحة ، حيث جمع المؤلفان فيها أسماء الحيوان وأسماء أعضائه وأقسام جسمه ، وتسميات أعضاء الانثى والذكر ، ثم خصائصها وضرابها وحملها ونتاجها ، وأسماء أولادها حسب أسنانهم ، ورضاعها ونعوتها وحلبها ولبنها ونعوت ضرعها • ونعوت الابل في القوة وفي العظم والطول وتمام الخلقه والنجابه والكرم والسمنه والهزال والضمر • وفي أسماء أخفافها وألوانها وأوبارها واصواتها وهدير فحولها • كذلك عيوبها في أجسامها وفي قوائمها ، وتسمية المجاميع منها (مثل هند وهنيده أسم للمائة من الابل) • وكذلك أسماءها ونعوتها عند الرعي ، وضماء الابل ، وأسماء حركاتها من بروك ونهوض وسير الابل في سرعتها أو بطئها ، ونعوت ذلك ودرجات مسيرها ، في الليل

---

(٩٦) نفس المصدر : ص ٨٩ •

والنهار ، وهيئتها في السير وعيوبها في ذلك ، والصعب والذلول من الابـل ، وحالات ركوبها وزجرها وقيودها وأطلاقها وأمراضها وأعمالها وأسماء الابل في حملها واسماء الرحل ونحوه وملحقاتـه وأجزاءه وأحزمتـه وما يزيـن الهودج[٩٧] .. الخ .

واوسع مما أشرت اليه نجده في المخصص لابن سيده في الجزء الخامس عن الابل الموسوم بكتاب الابل ، فيقع في (١٧٥) صفحة في حديث تفصيلي عن هذا الحيوان[٩٨] .

ان لغة أحتفظت بهذه الثروة اللغوية الواسعة لحيوان معين ، لا بد وان تشير الى صلة مصيرية بين أصحاب اللغة وبين هذا الحيوان ، وبمعنى اخر بين العرب والابل ، كما أن هذه الوفرة في المفردات والمصطلحات والمشتقات لا تنم الا عن علاقة تاريخية طويلة تؤكد ما ذهبنا اليه من اعتبار العرب أصحاب الابل الوحيدون من بين سكان الشرق الادنى القديم ، وربما أيضا تؤكد ما ذهبنا اليه من اعتماد تاريخ الجمل كحيوان مدجن بداية لتاريخ العرب ضمن النشاط التاريخي والحضاري العام لمنطقة الشرق الادنى القديم ، وربما نبيح لانفسنا الاستنتاج بأن مناطق تواجد الجمل في مراكز الحضارات القديمة في الشرق الادنى تشير الى تغلغل العرب الى تلك المناطق .

وعليه تكون البداية التاريخية لظهور العرب كقوم متميزين من اقوام الشرق الادنى القديم يرجع لحدود الالف الثانية ق . م . ، أما سبب شـيوع ذكرهم وبداية تأثيرهم القوي في مجرى الاحداث التاريخية والحضارية الى

---

(٩٧) حسين يوسف موسى وعبدالفتاح الصعيدي : المصدر السابق ص ٦٦٥ ـ ٧٠٠ (الخيل) ، الابل ص ٧٠٦ ـ ٧٧٤ .

(٩٨) المخصص لابن سيده : (ابي الحسن علي بن اسماعيل النحوي اللغوي الاندلسي المتوفى سنة ٤٥٨ هـ) الكتاب السابع ـ كتاب الابل . المكتب التجاري ـ بيروت .

حدود الالف الاول ق٠م٠ بدليل اشارات النصوص الاشورية ، فيرجع في تقديرنا الى عاملين :

أولهما : مراكز القوى السياسية والحضارية في بلاد وادي الرافدين وسوريا ومصر ، التي أثرت بشكل او اخر في أخفاء معالم العرب ، بسبب من محدودية نشاطاتها المتعددة واعتمادها في هذه النشاطات على وسائط النقل المائية ، التي لها شهره تاريخية قديمة في كل من بلاد وادي الرافدين ووادي النيل ٠

ثانيهما : التطور الكبير في نشاطات مراكز الحضارات القديمة ، بخاصة بعد ظهور الامبراطوريات الكبيرة ، كالامبراطورية المصرية في حدود (القرن السادس عشر ق٠م٠) والاشورية (القرن التاسع ق٠م٠) ٠ يرافقه تطور نوعي كبير في وسائط النقل العالمية بشيوع طرق القوافل البرية عبر الجزيرة العربية لربط أسواق مراكز الحضارات القديمة ببعضها ٠ فاصبح للجزيرة العربية ولسكانها العرب ولحيوان نقلهم الرئيسي الجمل، أهمية أكبر كمركز ثقل في النشاطات الاقتصادية المدعمة بنشاطات سياسية وعسكرية ٠

وعلى الرغم من كون الاستنتاجات السابقة قد تبدو مقبولة عقلياً ، لكن يبقى السؤال التالي قائما ، وهو لماذا تغيب مفردات اللغة العربية خلال تلك الفترات المبكرة من تاريخ العرب القديم ؟

قد يكون أمر تشابه المفردات وجذور الافعال وخصائص اللغة الاخرى بين العربية وشقيقاتها من لغات أو لهجات الشرق الادنى القديم ، أحد الاسباب

في اختفاء المعالم الخصوصية للعربية القديمة ، مثلما يكون امر التدوين بخط مميز وتأخره عند العرب حتى فترات متأخرة سببا وجيها اخر •

ولكننا نعتقد في أن محاولة دراسة مفردات العناصر الاساسية للحياة العربية القديمة ومقارنتها مع التراث اللغوي العربي المدون ، من قبل اللغويين ستساعد في رسم الخطوط العامة لخصائص اللغة العربية القديمة •

ألقاب حكام السلالات واسم اكد

عبدالكريم عبدالله
جامعة بغداد / كلية الاداب ـ قسم الآثار

تمهيـــد :

قبـــل البحـث في الالقـــات الرســـمية التـــي اتخذهـــا حكـــام وملـــوك عصـــر السلالات (٢٨٠٠ ـ ٢٣٧٠ ق • م تقريبـــا) وعلاقتهـــا بأكد وأصل اشتقاقها ومعناه ، لابد لنا من القاء نظرة سريعة على المجموعـة البشرية التي عرفت باسم الاكديين والتي انبثق من بين صفوفها سرجون (Sharukin) قائدا موحدا لدويلات المدن ومكونا أول دولة موحدة سياسيا في تاريخ وادى الرافدين القديم •

ان تسمية الاكديين بهذا الاسم حديثة العهد بالنسبة الى وجودهـــم التأريخي وقدم هذا الوجود في العراق ، باعتبارهم احدى فصائل مجموعة بشرية كبيرة اصطلح على تسميتها باسم الساميين وهم اسلاف العـــرب القدامى ، الذين استوطن بعضهم العراق منذ عصور قديمة جدا لا يمكـــن تحديدها بالضبـط • ونشير بعض الادلة الآثارية (مادية ولغوية) الى احتمال وجودهم في عصور ما قبل التاريخ ووجودهـــم في بداية العصور التاريخية • ومع ان الجهة التي قدموا منها ما تزال غير محددة بدقـــة ، فانهـــم باحتمال كبير قد انحدروا من الجهات الشمالية والشمالية الغربية لمنطقة بابل ـ وهي الجهة التي قدمت منها بعد ذلك القبائل الامورية والكلدانية ـ منطلقين من مراكزهم في شمالي بلاد الشام وشرقيها قبل ظهور الامـــوريين فيهـــا • أو بمعنى آخر من المنطقة التي عرفت في النصوص السومرية باسم (Martu)

الغرب وفي اللغة الاكدية بأسم امورّو (Amurru)[١] ، لذلك فانهم كشعب أو كمجموعة بشرية عاشت في وادي الرافدين ولعبت دورا سياسيا وحضاريا بارزا خلال عصر دويلات المدن ، قبل قيامها بتأسيس الدولة التي عرفت بالدولة الاكدية (٢٣٧٠ـ٢٢٣٠ ق٠م) وعرفوا بعدها باسم الاكديين في حدود منتصف الالف الثالث قبل الميلاد[٢] • ولعل من المشاكل الحضارية واللغوية المهمة التي ما تزال قائمة الى الآن هي أصل اشتقاق أكد الذى نسب اليه الاكديون وكذلك مدلوله ومعناه • واننا خلال هذا البحث سنحاول التعرف على ذلك من خلال البحث في الالقاب الشائعة ومضمونها التي اتخذها حكام السلالات وملوكها في عصر السلالات والعصور التي جاءت بعده ، وكذلك الربط بين اسم أكد واسم اوري Uri الوارد في النصوص المسمارية القديمة •

الالقاب الشائعة ومعناها :

ان اسم أكد والاكديين لم يكن معروفا خلال عصر السلالات التي سبقت تكوين الدولة الاكدية • فاننا عند الرجوع الى القاب حكام وملوك تلك الفترة التي غالبا ما تعكس صورة لمضمون اداري أو سياسي متصل بأسم مدينة أو بأرض أو ببلاد، لم نجد اشارة الى اسم الاكديين لا مجموعة بشرية ولا بلادا ولا مدينة ايضا ، فمن الالقاب المستخدمة في سلالات ما بعد الطوفان لقب[٣] (En - Kul - ab- ba) سيد كلاّب (وهي جزء أو قسم من

---

(١) S. Smith, Early History of Assyria, pp. 42 - 43, 79, 110;
S. Lloyd, Twin Rivers, P. 31; Saggs. H. W. F., Everydaylife in Babylon, and Assyria, P. 30-31.

وانظر ايضا : طه باقر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ج ٢ ص ٢٣٣ •

(٢) عن قدم الساميين في العراق انظر بحثنا « ملامح الوجود السامي في العراق قبل تأسيس الدولة الاكدية » • سومر م ٣٠ (١٩٧٤) ص ٥٩ـ٧٨ •

(٣) W. Hallo, Early Mesopotamian Royal Titles, P. 3, 11.

مدينة الوركاء) ، ولقب (Lugal - Kiš) ملك كيش • ان لقب ملك كيش أو (Kiši) الذى ظهر خلال عصر السلالات واستخدمه بعض ملوك هذا العصر امثال مس ـ انيبدا (Mes- annepadda) ملك مدينة أور ، وأى ـ اناتم (Eannatum) ملـك لكش ، واينميبير الذى يـرد احيانـا بـدون (En) (Me Barag- Si lugal Kish) من ملوك كيش ، وكذلك مسيلم (Mesilim ملك مدينة كيش (تل الاحيمر) ايضا اضافة الى استخدامه من قبل لوكال زاكيزى (Lugalzaggisi) ملك اوما وسرجون وريموش ومانشتوزو من ملوك الدولة الاكدية(٤) • ان استخدام هذا اللقب مرتبط في اساسه وكما يبدو بمدينة كيش ، فهو يعني خلال هذه الفترة ملك مدينة كيش ، يؤيـد ذلك انه يأتي مقرونا بالاداة الدالة على المدن (Ki) : أى ان الصبغة تـرد احيانا بشكل (Lugal Kišl Ki) وكذلك فان الالقاب المرتبطـة بالمدن كانت اسبق في الظهور والاستخدام من الالقاب الاخرى التي ظهرت في وادى الرافدين خلال الفترة نفسها • كما نلاحظ ذلك مثلا في اللقب الذى اتخـذه كلكامش وهـو (En Kul- ab-ba (Ke4 سيد كلاّب ، ولقب (Lugal - Urima (Ke ملك اور الذى اتخذه ملوك سلالة اور الاولى وبعض ملوك الوركـاء(٥) • ولكن صفة لقب ملك كيش كانت تعكس في الوقت نفسه مضموناً سياسـيا في القـاب اولئـك الحكـام الـذين ادرجوه ملازمـا للمدن التـي كـانوا يحكمون فيها • وكان ذلك ـ كما يظهر ـ اقتداءا وتقليدا للنفوذ السياسي الواسع الذى تمتعت به مدينة كيش من خلال موقعها ومن خلال شخصيات حكامها مثل اكـا (Aga) الذى لو لم يكن له نفوذ سياسي وقوة عسكرية

---

(٤) Hirsch; H, in Arch, F. Or., xx (1963), PP. 2. 36. 39, 43FF.; Hallo, Ibid., P. 151.

وانظر ايضا : طه باقر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة (١٩٧٣) • ص ٣٠٣ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٤ ، ٣٢٢ ، ٣٤٧ (هامش ٤٣ ومراجعه) •

(٥) Hallo, Ibid. PP. 5, 7-12, 61, 150.

لما تجرأ على تهديد الوركاء وملكها كلكامش وطلبه ببسط السيطرة والنفوذ عليها . ومثله مسيلم الذى تمكن من التدخل في انهاء الصراع بين اوما ولكش ، وهو لم يستطيع ذلك مع بعد الشقة ما بين موقع مدينته كيش وموقع كل من اوما ولكش ، لولا تمتعه بسمعة ادارية وقوة معنوية مؤثرة في حسم خلاف ناشيء بسبب سوء فهم اداري من قبل حكام اوما ولكش في كيفية استغلال أرض ومياه اورائية يشتركان بها ، ولولا تمتعه ايضا بنفوذ سياسي يتجاوز حدود مدينته وربما يمتد الى اطراف توابع تلك المدينتين . هذا وقد استمر استخدام اللقب بمضمونه السياسي الواسع خلال الدولة الاكدية ، وربما تعكس لنا فكرة الاكديين وفلسفتهم في الحكم وطبيعته ذلك المضمون بشكل اوضح . فقد اتخذ ملوكهم القابا ورموزا هي من القاب الآلهة ورموزها . كاتخاذ بعضهم التاج المقرن غطاء رأس لهم ووصف بعضهم الآخر بأنه : ملك البلاد وملك العالم . وهي ادلة عاكسة لسيطرتهم السياسية الواسعة على الكون الارضي الذى تمثله دولة سرجون الموحدة اداريا وسياسيا وبذلك تشبهوا بالآلهة في ادارتها للكون السماوى الموحد برأسة آنو سيد السماء وسيد الآلهة ، وهكذا صار الملك الاكدى نائبا عن الآلهة في ادارة الكون الارضي ، وربما تطور عن لقب ملك كيشي (šar Kiši) اللقب الذى صار يعني ملك الكون (šar Kišati) أو ملك الجهات الاربعة (šar Kibratim ara'in) الذى استخدمه الملوك الآشوريون بنطاق واسع[٦] .

ومن الالقاب الشائعة خلال عصر السلالات ايضا ، اللقب الذى يرد بصيغة (Lugal Kalamma) ملك البلاد أو ملك الاقليم التى يرى الاستاذ طه باقر انها (أي كلام) تعني اقليم الشخص المتكلم وتقابل كلمة

---

(٦) قارن طه باقر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة (١٩٧٣) ص ٣٠٢ .

(٧) المصدر نفسه ص ٩ ، قارن ايضا : Parrot, A, Sumer, P. 169.

اقليم العربية لفظا ومعنى[٧] • لقد تلقب بهذا اللقب (En- ša- Kuš - an - na) احد ملوك سلالة الوركاء الثانية (؟)[٨] ولو كال زاكيزي ملك اوما بعد ان نجح في توحيد بعض دويلات جنوبي وادي الرافدين (بلاد سومر) منطلقا من مدينته اوما (تل جوخة) نحو لكش واورك واور ولارسة ونفر ومتخذا من الوركاء مركزا لحكمه حيث اسس فيها سلالتها الثالثة قبيل ظهور سرجون الاكدى على مسرح التاريخ قوة مناوئة له • فقد ورد في احد نصوصه « انليل ملك كل البلاد ، لوكال زاكيزى ملك الوركاء ، ملك البلاد ، كاهن اتو ••• »[٩] •

وتفسر (Lugal - Kalamma) ملك البلاد بانها تقابل أو تعني بلاد سومر • وبعد ان اتسع لوكال زاكيزى غربا نحو البحر الابيض المتوسط كما ورد في بعض نصوصه بأنه حكم من مشرق الشمس الى مغربها[١٠] وضم اقاليم اخرى الى اقليمه ، اتخذ لقبا جديدا هو (Lugal Kur - Kur - ra) ، تعني ملك البلدان (= البلدان الاجنبية[١١] • ومع ان (Kalamma) تعني بلاد سومر ، فاننا نجد في بعض الالقاب من الفترة نفسها اسما آخر يعني بلاد سومر ايضا وهو (Ki- EN- Gi) الذى تلقب به ملك سلالة الوركاء الثانية مع اللقب السابق الذى اتخذه ، وصيغة هذا اللقب[١٢] • *

(En- Šà-Kúš -an- na Lugal Ki- EN- Gi Lugal Kalamma)

---

(٨) Peobel, Historical Text, P. 90; Hallo, Ibid., P. 5.

(٩) Kramer, The Summerians, PP. 58- 59, 323- 24.

(١٠) Poebel, Ibid., P. 90.

(١١) L. Woolly, Excavations At Ur, P. 254; The Gambridg Ancient History. Vol. I, Part 2, PP. 109, 143- 44.

وانظر ايضا : طه باقر / المصدر السابق ، ديلا بورت ، بلاد ما بين النهرين / الحضارتان البابلية والاشورية ص ١٩/ ترجمة محرم كمال •

(١٢) Poebel. Ibid.

اينشاكو شانا ملك سومر ملك البلاد • والتي ترد ايضا بصيغـة[١٣] (En -Ki- engi Lugal Kalamma سيد سومر ملك البلاد • ومن المفيد الاشارة هنا الى ان كلمة (Ki-en-gi) السومرية تعني أو تترجم بـ (بلاد سيد القصب)[١٤] • من هذا اللقب نستطيع ان نستنتج ان (Ki-en-gi) تمثل اسم علم لبلاد سومرو (Kalamma) (كلام) تكون اسماً معنويـا لها • وقـد اشار (King) [١٥] الى ان كلمة (Kien - gi) السومرية تقابل كلمـــة (Matu) الاكدية ، ولكن الارجح ان (Matu) الاكدية تقابـــل (KALAM)السومرية • ولعل ما يؤيد ذلك ويؤكد هذا التفسير هو مصطلح (Mat- Šumerim) بلاد سومر • وهي المنطقة الممتدة من خط العرض ٣٣° تقريبا جنوبي بابل – وتشمل مدينة نفر على الارجح حدهـا الشمالي – الى سواحل الخليج العربي[١٦] •

وفي العصور التالية وخاصة من زمن سلالة اور الثالثة (٢١١٢–٢٠٠٤ ق • م تقريبا) يردنا لقب جديد لم يستخدم من قبل ونستطيع من خلالــه التعرف على أول تميز ما بين بلاد سومر (Ki- en - gi) واقليم يقع محاذيـا لشماليها وهو بلاد اورى (Ki - Uri) • فقد اتخـذ اوتوحيكـال الذى حرر البلاد من حكم الكوتيين لقب[١٧] (Lugal Ki-en - gi Ki -Uri) واتخذه من بعده اورنمو مؤسس سلالة اور الثالثة وابنه شولكي • واستمر

---

(١٣) W. Hallo, Ibid.

(١٤) J. Roux, Ancient Iraq, P. 75, N. 17 (1964).

وقارن ايضا : طـه باقر : المصدر السابق ص ٩ ، ٥٨ •

(١٥) L. W. King, Ancient History of Sumer and Akkad, P. 14.

(١٦) عن بلاد سومر انظر :

Encyclopaedia Britanica, Vol. XXXVI, P. 75.

وكذلك طه باقر : المصدر نفسه ص ٩ ، ٥٨ •

(١٧) Hallo, Ibid., P. 53, 77, 89, 126, 154, Ur Texts, P. 45.

استخدام هذا اللقب في العهد البابلي القديم (١٩٥٠ ـ ١٥٣٠ ق٠م تقريبا) في سلالات ايسن ولارسة وبابل الاولى حيث صار بصيغته الاكدية Sar mat Sumerîm UAkkadîm) ملك بلاد سومر واكد ٠

ويمكن تحديد بلاد اوري جغرافيا أو موقعا بأنها تقع شمالي بلاد سومر وتحتوى منطقة بابل ومعظم القسم الشمالي لها ٠ وبالرجوع الى الاقسام الجغرافية لسطح العراق وخارطته(١٨) نلاحظ ان بلاد اوري تكاد تمثل القسم الشمالي من السهل الرسوبي وحافاته السهلية في حين نجد ان بلاد سومر تكوّن الجزء الجنوبي لهذا السهل ٠ وكلاهما يمثلان اخصب ارض زراعية اروائية في القطر العراقي ٠هي السهل الرسوبي أو السهل الفيضي٠ ويظهر ان تمتع اقليم اوري بأرض سهلة الارواء وبمياه كافية ساعد على توفر انتاج زراعي وربما حيواني جيد ، لذلك فقد وصف في الاسطورة المعروفة بأسم اسطورة انمركار وسيد ارّتا ، بأنه احتوى كل ما هو رائق(١٩) ٠ ويجب ان نلاحظ هنا ان الاكديين لم يطلقوا هذه التسمية على اقليمهم بدليل عدم اتخاذها في القاب ملوكهم الرسمية المعروفة بل اقتصروا على بعض الالقاب التي اشرنا اليها والتي شاعت خلال عصر السلالات ، وباتخاذهم ايضا لقب ملك مدينة أكد(٢٠) Šar (Lugal) A - ga - de Ki)٠ الذي ربما

---

(١٨) قارن مورتكات / تاريخ الشرق الادنى القديم ص ١٠٦ طه باقر / المصدر نفسه ٠ جاسم محمد الخلف / محاضرات في جغرافية العراق الطبيعية والاقتصادية والبشرية ص ٣٩ و (شكل ٥ ص ٤٠) ، وقارن :

Gordon Childe, New light on The Most Ancient East, P. 17.

(١٩) طه باقر / مقدمة في ادب العراق القديم ص ١٤٣ـ١٤٤ ٠ وكذلك كريمر / من الواح سومر ص ٢٥٠ ، ٣٧٩ـ٣٨٠ ، ولنفس المؤلف ايضا :

Sumerian Mythology, P. 107.

(٢٠) Hirsch, H., in Arch. F. Or., XX (1963), P. 69.

يعني في مضمونه بلاد أكد ايضا • ويمكن القول : ان اوتوحيكال ومن بعده اورنمو حين اتخذا هـذا اللقب (Lugal Ki-engi ki-uri) ولاول مرة دون الاشارة الى اسم اكد كان القصد ـ كما يظهر ـ بعث الاسم السومرى القديم للمنطقة وهو (Uri) ، وفي الوقت نفسه اهمال اسم أكد انطلاقـا من الفكرة السائدة في هذه المرحلة والمتمثلة ببعث التراث السومرى القديم واحيائه • وربما كان في اتخاذه ايضا ترضية سياسية لسـكان الاقليم مـن الاكديين واعترافا بوجودهم قوة سياسية وحضارية اثرت وتؤثر في سـير الاحداث بشكل عام • اضافة الى ان اللقب يعكس ـ كمـا نرى ـ نقطـة سياسية مهمة ترتبط بروح وطنية تمثلها وحدة قومية كفاحية ما بين السومريين والاكديين ضد من اساءوا الى الوطن وحضارته وقيمه من الحكام غير المتحضرين وهم الكوتيون وانعكاسا لهذه الروح انبثق اللقب مباشرة بعـد اخـراج الكوتيين من الوطن ـ من بلاد سومر واكد ـ فاتخذه اوتوحيكال اول حاكم وطني بعد مرحلة الفوضى الكوتية • وما كان في اتخاذه الا نوعا من الاقرار بدور الاكديين الفعلي في عملية التحرير • فانهم وان لم يستطيعوا المشاركة من مركزهم الذى دُمر وهو مدينة اكد فقد اندمجوا في المدن والمواقـع الاخرى التي هبت لقيادة الجماهير في عملية التحرير وكان على رأسها مدينة الوركاء العريقة •

ويبدو ان مصطلح اورى قد اتسع ليشمل المنطقة الممتدة الى الشمال منه : أي الى الارض التي عرفت بعد ذلك باسم بلاد اشور • ومن اواخر سلالة اور الثالثة ترد اشارة الى اسم (Warum) التي تقرن ببلاد اورى ، فقد ورد في نص على ختم اسطواني(٢١) « الى ابي ـ سين ، الملك العظيم ، ملك بلاد Warum » مما يشير الى انها كانت منطقة أو بلادا متميزة سياسيا عن بلاد

---

(٢١) Edzard, H. O., Die Zweite Zwischen Zeit Babylonien, P. 66.
Carleton, 8., Buried Empirs, P. 111.

سومر بحيث يفتخر بأنه كان ملكا عليها . نلاحظ مما تقدم ان اقليم اورى قد احتوى من عرفوا بعد ذلك باسم الاكديين وبلادهم باسم بلاد اكـــد وكنا سنوضحه في ادناه .

اكد واحتمال مضمونها

ظهر اسم اكد بعد ان شيد سرجون مدينة بهذا الاسم واتخذها مركزا لدولته الموحدة التي عرفت بأسم الدولة الاكدية . فهو أول من اتخذ لقب ملك مدينــة أكــد من ناحيــة اســتخدام الصيغة الاكدية لكلمــة ملــك (Šar a- ga- de ki) ومن ناحية ورود اسم المدينة . واستمرت الاشارات الى اسم الاكديين وبلادهم في تراث وادى الرافدين في بعض الفترات مـن العصور التالية ، ملازما لأسم سومر أو منفردا عنها . ان اسم أكد واصل اشتقاقها ومعناها ما يزال من المشاكل الحضارية واللغوية التي لم يتوصل البحث الى تحقيقها وتثبيتها حقيقة علمية منتهية . لذلك فان التعرف عــلى أصل التسمية ومحاولة الوصول الى معرفة مضمونها ، ما يزال من الامور المشجعة التي تدفع بالباحث ـ كما دفعت من قبل بعض الباحثين ـ الى خوض غمارها وتقصي حقيقتها . لقد حاول البعض الربط بين اسم اكد واسم اكي وهو الشخص الذي قام بتربية سرجون كما اشارت له اسطورة حياة سرجون، وذلك للتقارب اللفظــي بــين (AKKi-AGGi) و (Akkad / a-ga- de) التي فسرها[٢٣] (Poebal) بانها كانت في الاصل جملة سومرية (nag- me el) وتعني سكب المياه، وان معنى (A- gade) يكون «انا سوف اسكب المياه» ، وكانت تلك عبارة اطلقها شخص فاعطيت لاسم المكان الذى كان يعيش فيه، والعبارة بشكل عام تحمل مضمونا دينيا يتعلق بطقوس تتصل بعمليــات

---

(٢٢) Pritchard, ANET., P. 85- 86.

(٢٣) Arno Poebel, Historical. Text, P. 231.

سكب الماء المقدس ، ومعنى ذلك ان اسم اكد مشتق من اصل لغوي سومري. ولكن مثل هذا التفسير يدفعنا الى طرح السؤال الاتي : اذا كان الاسم سومري الاصل فلماذا لم يرد ذكره في النصوص السومرية التي سبقت الاكديين ما دام الاصل في نشوئه يتعلق بطقوس دينية ؟

والذي يبدو ان الاصل في اشتقاقه يمكن ان يربط بصفة جغرافية تميزت بها منطقة (Uri) التي سبقت الاشارة اليها والتي اعطتها المعاجم الاكدية مرادفة لاسم اكد (U2 - ri = ak- ka- du- U2) • وقد فسر هذا المصطلح بأنه يعنى أناءا بفتحتين أو يشبه في شكله اناءا بمصبين[٢٤] (Bridle) • ويرى كارلتون[٢٥] ان ذلك يمثل طموح سرجون في ضم كل من وادى دجلة والفرات • ولكننا لا نرى في تفسيره سندا قويا لسببين اولهما : ان الشكل الصورى للمقطع (Uri) موجود قبل ظهور سرجون على مسرح التاريخ ، وثانيهما ان سرجون وخلفاءه لم يتخذوا مثل هذا اللقب في القابهم السياسية أو الادارية• ولكننا لو رجعنا الى الشكل الصورى للمقطع وحاولنا ربطه بالناحية الجغرافية وبصفة السطح للمنطقة ، لوجدنا انه اقرب ما يكون شبها بمنطقة واسعة متميزة في ارضها وفي موقعها عن القسم الاسفل من السهل الرسوبي (الذى يمثل بلاد سومر) والذى تمثل منطقتنا هذه (اعني بلاد اوري) القسم الشمالي لهذا السهل • كما تتميز عن المنطقة المتموجة والجبلية التي تقع الى شماليها • فهي كما تبدو ارضا واسعة تشتمل على منخفضات طبيعية تصلح لتجمع المياه كما احتوت على منفذين رئيسين لجريان الماء كان الفرات ينساب

---

(٢٤) Deimel, Sumerisches Lexikon, II, P. 679 NO. 359.
I, P. 123 NO. 661.

MSL. Vol. V, P. 73; Labat, R. Manuel D'Epiggraphie Akkadien. P. 167. NO. 359

(٢٥) P. Carleton, Buried Empirs, P. 231.

منهما • فالتحريات الجيولوجية[٢٦] تشير الى ان وادى الثرثار كان في عصور ما قبل التاريخ يتصل بنهر الفرات عند مدينة الرمادى كما كان الفرات يتصل بدوره بالمنخفض الطبيعي الممتد الى الغرب منه والمتمثل ببحيرة الحبانية وبحر الملح وهور ابو دبس وبحر النجف • وكان هذا الامتداد المنخفض يشكل واديا طويلا يسير فيه الفرات حتى كربلاء ، ثم غير الفرات مجراه هذا وتحول الى جهة الشرق نتيجة حدوث ارتفاع في سطح الارض أو انكسار الصخور وارتفاعها في جنوبي وادى الثرثار مما أدى الى فصل هذا الوادى عن الفرات وعن الحبانية • هذا من جهة ، ومن جهة اخرى نلاحظ ان القسم الاعـلى للسهل الرسوبي (أو السهل الفيضي) الذى تقع فيه بلاد اوري ، كان يشتمل ايضا على منخفضات تصلح لتجمعات مائية واسعة امتدت بشكل افقي من الشرق الى الغرب : أى من دجلة الى الفرات ، اشهرها بحيرة الشارع شرقي دجلة ومنخفض عقرقوف شمال غربي بغداد ما بين دجلة والفرات ثم بحيرة الحبانية غربي الفرات • اضافة الى منخفضات اخرى كونت في بداية العصور التاريخية مستنقعا واسعا عرف باسم الاهوار البابلية[٢٧] وشكل نوعا من الفصل أو التميز فيما بين بلاد سومر جنوبي هـذا المستنقع وبـلاد اروي (اكـد) شماليه • وقد رافق ذلك خلال الالفين الثالث والثاني قبل الميلاد تغيير الفرات لمجراه وتحوله نحو الشرق ايضا ، واقترابه من دجلة اكثر من ذى قبـل •

نلاحظ مما تقدم وبشكل عام ان منطقة اوري قد تميزت خلال بدايات العصور التأريخية بتحركات وتجمعات مائية ، لذلك يمكن ربط معنى أكـد بظاهرة السطح وطبيعته للمنطقة فتفسير قراءة علامـات الاسم والشـكل

---

(٢٦) جاسم محمد الخلف : المصدر السابق ص ٥٤ ، طه باقر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة (١٩٧٣) ، ص ٤٦ وما بعدها •

(٢٧) ابراهيم شريف / الموقع الجغرافي للعراق واثره في تاريخه العام ج ١ ص ٢٢ وما بعدها •

الصورى له بأنه يعني ويشبه اناءا بمصبين ، اقرب ما يكون الى سطح المنطقة (الاناء) والى المجريين (المصبين) اللذين سلكهما نهر الفرات ، أو باحتمال آخر قد يكون اقرب وهو ان ذلك المستنقع العرضي الافقي) الواسع كان مجالا التقت فيه مياه دجلة والفرات ثم خروجهما من اسفل ذلك المستنقع كل يسير في واديه الخاص ، فالمستنقع يمثل الاناء الواسع الذى تجمعت فيه المياه(٢٨) ، ودجلة والفرات هما المصبان او الرافدان الخارجان منه والصابان في بلاد سومر ٠ وعليه فانه من المحتمل ان مصطلح (Ki - Uri) يعني ارض الرافدين أو بلاد الرافدين ، يقابلها في ذلك مصطلح (Ki- engi) أرض سيد القصب أو بلاد سيد القصب وهي تحمل صفة جغرافية ايضا ٠

مما تقدم يمكن القول ان اسم اكد قد اشتق من الصفة الجغرافية للارض أو للمنطقة (Uri / Akkadu) واشتق منه ـ على الاجح ـ اسم مدينة أكد(٢٩) (Agade / Akkad) والذى صار بعد ذلك يحمل مضمونا سياسيا لاولئك الذين تمركزوا فيه وانتشروا من الساميين فعرفوا بأسم الاكديين كما عرفت بلادهم بأسم بلاد أكد ٠ وما كانت قفزة لقب « ملك سومر واكد » وظهورها لاول مرة في زمن اوتوحيكال ، الا انعكاسا لوضع سياسي مرت به البلاد خلال حكم الكوتيين وتأكيدا لمضمون قومي ووحدة

---

(٢٨) يمكن مقارنة (Akkadu) بما ورد في الاصول العربية خاصة ان اللغة العربية واللغة الاكدية يجمعهما اصل لغوى واحد ٠ فنجد الاصل (الجذر) العربى عكد الذى من معانيه تجمع المياه « ابن منظور / لسان العرب ج ٤ ص ٢٩٢ـ٢٩٣ (عكد) » ٠ والمنطقة كما لاحظنا اتصفت بتجمع المياه فيها وتميزت بذلك عن الارض التى تقع بمحاذاتها شمالا وجنوبا ٠ كذلك نلاحظ ان تفسير الاسم واحتمال اشتقاقه من اللغة السومرية ، مرتبط بالماء ايضا كما بينا ٠

(٢٩) يرى سبتينو موسكاتى : ان اسم المنطقة اشتق من اسم العاصمة اكد (الحضارات السامية القديمة ص ٢٥١ : ترجمة يعقوب بكر ـ دار الكاتب المصرى للطباعة والنشر ـ القاهرة ٠

وطنية سادت المجتمع وتجلت في اخراج الكوتيين كما بينا • ان اشتقاق النسبة من الصفة الجغرافية يمكن ترجيحها على غيرها[٣٠] ، ولا ادل على ذلك من نسبة السومريين الى بلاد سومر وهي اقدم نسبة في تراث وادي الرافدين اللغوي والحضاري ، اضافة الى ملازمة اسم بلاد اكد لاسم بلاد سومر في الالقاب •

ومع ان مدينة اكد لم تكشف ، فانها في الغالب تقع بالقرب من مدينة كيش • ويمكن ان نستدل ايضا من بعض نصوص ملوك الدولة الاكدية على انها كانت تقع بالقرب من شواطئ الفرات • فقد ذكر نرام سين حفيد سرجون في احد نصوصه بأنه : جلب السفن المحملة بالنحاس من مكان ومن ملوخا ومن دلمون وافرغت حمولتها في ميناء عاصمته أكد[٣١] • واذا ربطنا ذلك مع بعض النصوص وخاصة تلك التي تشير الى ان سرجون قد هدّم اسوار بابل واخذ ترابها لتشييد مدينة تنافسها ، فمن المحتمل ان مدينة أكد كانت تقع في ضواحي بابل ثم تلاشت من الوجود نتيجة للغزو الكوتي الذي حولها الى انقاض من جهة ، وربما اتى الفرات على بقيتها بفعل عمليات الفيضان والجرف من جهة اخرى • هذا اذا لم يكن قد اعيد بناء بابل من جديد على انقاضها •

ولكننا مع انهيار الدولة الاكدية سياسيا وضياع عاصمتها أكد في حدود القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد ، نجد ان اسم الاكديين وبلادهم يتردد في نصوص العهود التي تلت واستمر استخدامه في الالقاب (ملك سومر واكد) التي سبقت الاشارة اليها • من ذلك مثلا ما اشار اليه الملك الاشوري

---

(٣٠) طه باقر : المصدر السابق (١٩٧٣) ، ص ٣٦٣ •

(٣١) المصدر نفسه ، ص ٣٦٢ •

وعن ترجمة النص انظر :

King, L. W., Studies in Eastern History, P. 27.

ايلوشوما الذى عاصر ساموا يوم (۱۸۳۰ ـ ۱۸۱۷ ق ٠ م تقريبا) مؤس سلالة بابل الأولى في احدى كتاباته اذ يذكر بانه « حرر الاكد ومدنهم »[٣٢] ، ومن نهاية فترة العهد البابلي القديم ، يرد في احد النصو المتعلقة بسقوط بابل على يد الحيثين : « شمسو ديتانا (أي الى بابل) زح رجال حاتي وزحفوا الى بلاد أكد »[٣٣] ، حيث نلاحظ في مضمونه وكـ بابل تعني بلا أكد ٠ اضافة الى ورودها في العهد القديم[٣٤] ٠

مصادر البحث

المصادر العربية :

١ ـ ابراهيم شريف / الموقع الجغرافى للعراق واثره فى تاريخه العام ج١ـ٢

٢ ـ ابن منظور : لسان العرب ج ٤ ٠

٣ ـ التوراة (العهد القديم) ٠

٤ ـ ارجرنى : الحثيون ـ ترجمة محمد عبدالقادر محمد ٠

٥ ـ جاسم محمد الخلف : محاضرات فى جغرافية العراق الطبيعية والاقتصاد والبشرية ٠

٦ ـ ديلابورت : بلاد ما بين النهرين ـ ترجمة محرم كمال ٠

٧ ـ سبتينوموسكاتى : الحضارات السامية القديمة ـ ترجمة يعقوب بكر ٠

٨ ـ طـه باقـر : مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة (١٩٧٣) بغداد ٠

٩ ـ طـه باقر : مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة ج ٢ ٠

---

(٣٢) ıe Gambridg Ancient History, rol, I, P. 990.

وطه باقر : مقدمة تاريخ الحضارات القديمة (الطبعة القديمة) ج ص ١٧٢ ، مورتكات : تاريخ الشرق الادنى القديم ص ١٣١ ٠

(٣٣) ارجرني / الحثيون ـ ترجمة محمد بالقادر محمد ، ص ٤٣ ، نجيب ميخائيل ابراهيم / مصر والشرق الادنى القديم ج ٥ ص ٢٠٧ ٠

(٣٤) سفر التكوين / ١٠ : ١٠

١ـ طـه باقـر : مقدمـة فى ادب العراق القديم .
١ـ طـه باقر : ملحمة كلكامش (١٩٧٣) .
١ـ صموئيل نوح كريمر : من الواح سومر ـ ترجمة طـه باقر .
١ـ مورتكات ـ تاريخ الشرق الادنى القديم ـ ترجمة توفيق سليمان .
١ـ مجلة سومر م ٣٠ (١٩٧٤) ـ مديرية الآثار العامة .
١ـ نجيب ميخائيل ابراهيم ـ مصر والشرق الادنى القديم ج ٥ .

صـادر الاجنبيـة :

1- Carleton, P., Buried Empirs.
2- Deimel, Sumerisches Lexikon, I, II.
3- Encyclopaedia Britanica, Vol., xxxvi.
4- Edzard, Die Zweite Zwischen Zeit Babyloniens.
5- Gordon Childe, New light on the most Ancient East. (1956).
6- Hirsch, H., in Archiv Fur Orient Forschung. xx (1963).
7- Hallo, W., Early Mesopotamian Royal Titles.
8- Kramer, S. N., The Summerians.
9- Kramer, S. N. Sumerian Mythology.
10- King, L. W., Ancient History of Sumer and Akkad.
11- •King, L. W., Studies in Eastern History Chronicles.
12- Labat, R., Manuel D'Epigraphie Akkadien.
13- Lloyd, S., Twin Rivers.
14- MSL Vol. v. (B. Landsbergar, Materialien Zum Sumerische Lexikon (1957).
15- Pritchard, Ancient Near East Texts.
16- Parrot, A., Sumer (1960).
17- Poebel, A., Historical Texts.
18- Roux, J., Ancient Iraq, (1964).
19- Smith, S. Early History of Assyria.
20- Saggs, H. W. F., Everyday life in Babylon and Assyria, (1955
21- The Gambridg Ancient History.
22- Wooly, S. L., Excavations At ur.

التحديد المقارن لملامح فن
الفخـــار الفرثي

احمـــد فتيـــان الراوى
كلية الاداب ـ التربية جامعة بغداد

من خلال الحفريات المهمة التي أُجراها قسم الآثار في كلية الآداب الموضع الاثري المسمى ـ تل اسود ـ ١٩٧٠ ـ١٩٧٦ ومن خلال ما تيسر ا من مصادر عن تاريخ الفرثيين وآثارهم في بلاد وادي الرافدين ، أتضحت أهم هذا الدور وأستجلائه عن طريق التنقيبات والتحريـات بحيث لا يقـل تأثيراته الحضارية عن الادوار الحضارية الاخرى في العراق بوجه خـا وتاريخ الشرق الادنى بوجه عام ، ولكن قلة المصادر عنه جعلته من بـ العصور المجهولة أو المظلمة ، وكانت فترة ليست بالقصيرة في تاريخ بلا وادي الرافدين دامت زهاء ثلاثة قرون ١٤٠ ق ٠ ـ ٢٢٦ م ، وتميزت بعد نواح حضارية مهمة منها الالتقاء الحضاري الواسـع بين شـعوب المنطق وأمم قديمة مختلفة ، فكان العهد الفرثي وسطاً لالتقاء الحضارات والثقافا أدت بالنتيجة الى ظهور فن فرثي يمثل فترة مهمة من تاريخ العـراق القديم أضافـة الى ذلـك هـو ظهـور فـن عـربي محلي يمثل الدويلات العربية تلك الفترة السياسية* ، وما تنج عنها من آثار قديمة تمثل الارتقاء الحضار للفن الفرثي معتمداً في ذلك أعتمادا كليا على ما زودتنا به الطبقات الآثرية موقع الحفر في ـ تل اسود ـ(١) مع كشف التلال المحيطة بالمنطقة والتي تم الدور الفرثي في أغلبها أما بالنسبة لدراسة تحديد الفن الفرثي المعتمد عـ

---

(١) نفذ قسم الآثار سبعة مواسم تنقيبات في تل اسـود وكشـف عن (٢ طبقة اثرية تمثل مراحل ثمينة في التطور احضاري للفن الفرثي

الصناعات الفخارية بأعتبار أن صناعة الفخار من المجموعة الفنية التي أطلق عليها المعنيون بدراسة الآثار تسميتها بالفن الفرثي لانها تواجدت في العصر الفرثي(٢) وقد عرف عن الفن الفرثي بأنه تتابع وتفاعل ومزج بين فنون العراق وفنون الاغريق الذى ظهر بعد فتح الاسكندر المكدوني وأستمر الى أن أتخذ الشكل المتطور المعروف بالفن الهلنستي(٣) ومن خلال التفاعل هذا تكون الفن الفرثي بشكله الذي يمكن تحديده وخصوصا في القرن الاول الميلادي •

وهناك كثير من الباحثين من يشكك في أطلاق مصطلح الفن الفرثي وخصوصا أولئك الذين يتعصبون للغرب بأعتبار أن الفرثين قد قضوا على الامبراطورية السلوقية • وبأعتبار آخر كون الامبراطورية الفرثية قد أمتدت من نهر الفرات في العراق الى منطقة هرات(٤) في أفغانستان وموزعة على شكل دويلات لكل منها طابعها الخاص ، واذا كان على هذا الحال من التجزئة السياسية فمن الممكن أن نعتبر لكل أقليم فنه الخاص ، الا أن الشيء المهم هو أن الفرثين قد مزجوا بين فنون الشعوب وطوره فاصبح اسلوبا خاصا بهم • فلذلك من الممكن أن نعتبر الفخار الذي ظهر في بلاد وادي الرافدين من العصر الفرثي هو فخار محلي يمثل الفترة السياسية لتلك الدولة ، كما هو معلوم ان الفرثين قد منحوا أكثر الدولة حكما ذاتيا ، فلذلك نرى أن المؤرخين العرب أطلقوا على الفترة الفرثية فترة ملوك الطوائف ، كذلك نلاحظ أن الفن في هذه الفترة يمثل أزدهار الفن العربي المتمثل في المدن العربية القديمة ذات العلاقة بالادارة الفرثيه ، سواء أكانت

---

(٢) فواد سفر ا محمد علي مصطفى (الحضر مدينة الشمس) بغداد ١٩٧٤ ص ١٧ •

(٣) Percy syres, History of persia Vol1 London. 1963. P. 305.

Malcolm A. R. The Parthians P. 21.

تلك العلاقة عن طريق المحالفات والمعاهدات أو عن طريق منحها الحكم الذاتي ، مثال ذلك الفن الذي تميزت به مدينة الحضر وتدمر والرها والصالحية وأنطاكيا وحران ...) فنرى أن هذا الفن في هذه المدن متقارب الى ابعد الحدود وخصوصا من حيث التراث العربي والظروف السياسية المؤثرة في أتجاه الفن حيث نعرف أن هذه المدن كانت مهبط القبائل العربية التي تولت مهمة الدفاع عن حدود الامبراطورية الفرثيه وقيامها بدور الوسيط في نقل البضائع التجارية واسهامها في نشر الافكار الدينية والفنية . ومن المكتشفات الاثرية المهمة التي القت الضوء على جوانب تفصيلية للعهد الفرثي في العراق مجموعة كبيرة من الفخاريات التي تم العثور عليها أثناء تنقيباتنا بالاضافة الى مواد ولقى أثرية مختلفة من مواقع اثرية اخرى .

تنفرد المنتجات الصناعية الفخارية المكتشفة في تل اسود وتزودنا بمعلومات ذات اهمية خاصة عن بعض النواحي الفنية المهمة من العهد الفرثي في بلاد بين النهرين لان هذه المنتجات وهذه الصناعة تشكل مظهرا حيويا ومهما من مظاهر الحياة اليومية في كل المجتمعات وعلى مدى اختلاف الادوار والعصور .

ولذلك فمن خلال معرفتنا بهذه الفترة السياسية ومميزاتها الحضارية المهمة في تاريخ قطرنا العراقي أستطعت أن اكون فكرة بسيطة عن هذا الفن الذي يمضي باهتمام معظم المعنين بدراسة الحضارة القديمة بأعتباره فنا ما زال يكتنفه كثير من التساؤلات والغموض خلال تلك الفترة الزمنية من تاريخ بلاد وادي الرافدين ، وهذا ما دفعني الى هذه المحاولة المتواضعة لأماطه اللثام عن الدور الحضارى لهذا الفن سيما ونحن بصدد موقع اثري يمثل فترة زمنية تعود الى هذا العهد وزودنا بآثار ونماذج

كثيرة ومهمة كشفت عن نواحي حضارية لها اهميتها بين بقية المواقع في هذه المنطقـــة •

بحيث أصبحت هذه النماذج الاثرية مادة غزيرة تسمح لنا بالاطلاع على مراحل تطور الفن الفرثي في بلاد وادي الرافدين وبسبب حكم الفرثين في هذه المنطقة لفترة زمنية طويلة تركوا خلالها كثيرا من آثارهم عبر السنين التي حكموا فيها هذا القطر ، فكانت هذه المواد المكتشفة في تل اسود أحد المصادر الاساسية لدراسة جانب مهم من جوانب الفن الفرثي المتمثل في صناعة الفخار ونماذجه المختلفة من خلال تأثرها بالفنون العراقية القديمة التي سبقته وتفاعلها معها • وبنتيجة لذلك فقد ظهر فن أقليمي متميز يمثل التطور الاخير للفن الفرثي في العراق القديم •

لذلك يكون الاعتماد الرئيسي بالنسبة لدراسة الفن الفرثي ينصب بالدرجة الاولى على موقع تل اسود الذي يعتبر من المواقع الاثرية القليلة التي تقتصر معظم الطبقات الاثرية فيه على العصر الفرثي •

فبالنسبة لدراسة بعض الفخاريات المتجمعة لدينـا من حفرياتنـا في تل اسود نود أن نبين أن الفن الفرثي يقسم الى ثلاث مراحل فنية الاولى تبدأ في طراز قديم والثانية الطراز اليوناني (السلوقي) المعاصر للفترة • وفي نهاية القرن الاول للبلاد أختلط هذان الطرازان وكونا الطراز الفـرثي المتميز • وفي نهاية القرن الثالث بعد الميلاد بدأ الفن الفرثي بالاضمحـلال ويظهر ذلك في الفنون بصورة عامة وحتى القرن الاول الميلادي الذي يبقى التأثير الهلنستي واضح في الاعمال الفنية الفرثية ونشاهد ذلك جليـا في ضرب النقود التي تم العثور عليها في موقع تل اسود (المعروضة الان في متحف قسم الآثار بكلية الآداب) •

والذي يؤيد بشكل قاطع مرور الفن الفرثي بفترات[٦] زمنية متطورة العثور على نماذج فخارية في مواقع فريثة بحثه تمثل المراحل التي مر بها الفن الفرثي التي اشرنا اليها سابقا بحيث نرى الطرز الاخمينة واليونانية والعراقية القديمة واضحة المعالم في النتاجات الفنية الفرثية الى أن وصل الفن الفرثي الى ما يميزه عن غيره من الفنون الاخرى بحيث نراه يتجه نحو الهلنستيه وخصوصا في صناعة الفخار من حيث التخصص في التماثيل الصغيرة والدمى الانثوية التي ترمز الى الامهات وكذلك الاواني الفخارية المزججة وأدوات الزينة سواء اكانت تستعمل في الحياة اليومية أو في طقوس الدفن التي توضع في القبور وكذلك التماثيل العارية المصنوعة من الفخار التي تمثل الالهه المختلفة ودمى الفرسان • ان جميع هذه النماذج تمثل فترات أنتقالية للفن الفرثي بحيث أصبح هذا الفن بعد دخول الفرثين العراق عام ١٣٩ ق • م اكثر تحرراً من التأثيرات الخارجية ولذلك فأن أصطلاح (الفن الفرثي) بالنسبة للفترة التي سبقته ليس له معنى دقيق ومحدد وأن الفخاريات المصنوعة من هذا العصر وجدت في جهات مختلفة والتي نشرتها البعثات الامريكية التابعة لجامعة مشكان والبعثة الايطالية التابعة لجامعة تورينو والبعثة العراقية في الحضر وهيئة التنقيب في قسم الآثار في كلية الاداب جامعة بغداد والتي شاركت فيها بخمسة مواسم متكاملة لايربطها عامل مشترك واحد بل نرى أنها ذات ملامح محلية تمثل مرحلة متطورة من فنون الاقليم التي وجدت فيه بحيث نرى أن النماذج الفخارية المعروضة في متحف طهران شاهداً يمثل نماذج الفن الايراني القديم مع تأثره بالاسلوب الهلنستي وكذلك نماذج تمثل أشكال بوذيه وأغريقية •••) •

---

(٥) R. Ghirshman, Iran, P. 245.

(٦) Pope, A Survey of Persian Art, Vol. I. P. 70.

ومن الظواهر المألوفة حتى وقتنا الحاضر ، أن المراكز الحضارية كمراكز المدن وعواصم الامبراطوريات والدول تكون ملتقى الفنانين والحرفين المهره ، ولذلك فأني اعتقد بأن مراكز الحضارة الفرثية كانت ملتقى الفنانين المهره وان وجودهم في تلك المراكز من بقية ارجاء الامبراطورية اما انه كان من مستلزمات العمل المربح او استجابة لاوامر تتعلق بضرورة وجودهم في تلك المراكز وهذا يعزز تأثر الصناعات الفرثيه بتيارات واساليب فنية مختلفة •

وعلى العموم فأن الفن الفرثي في هذا العصر كان يستعمل الاساليب الهلنستيه بغض النظر عن عناصرها الاصلية ودون محاولة لتقليد هذه العناصر الغريبة وخلق اسلوب جديد مبتكر • كما يلاحظ في هذا الفن جلياً في صناعة التوابيت الفخارية والتماثيل الصغيرة المستعملة في الاغراض الدينية وهي خليطا من الطين والرمل والحصى الذى شاع أستعماله في تلك الفترة ، وهذا ما لمسناه بعد العثور على نماذج من هذه الصناعة في تل اسود وشيء مهم نراه في هذا العصر هو الاواني الفخارية الملونة باللون الاخضر المصقول من الاعمال التي تفوقت على مثيلاتها في العصور المتأخرة •

وبشيء أعمق بالنسبة للفن الفرثي والذى لم يكتب عنه كثيرا بسبب الاهمال من قبل أكثر المؤرخين فنرى أن هـذا الفن وأن قيلت في تطوره الآراء الكثيرة الا أنه يمثل لنا من حيث الاختصاص الآثارى فناً وطنيا يعكس وجهة نظر الفنان المتأثر بتراث وطنه عبر العصور مع وجود بعض التأثيرات الفنية التي تركها الفنانون الاوائل في العراق القديم المهد الحضاري الاول • حيث نرى الاقتباس وارد في كثير من النماذج الفنية بالرجوع الى التكنيك العراقي القديم •

---

(٧) Debevoise, A Political History of Parthia P. 132.
مقارنة مع نتائج حفريات البعثة الايطالية فى تل عمر •

فنرى هذا التأثير الظاهر في الفن يحاول أن يبقي التقليـد الوطنـي الخالي من أي تأثير أجنبي وخصوصا في صناعة الفخار من حيث التخصص في النماذج كالمزهريات والاكواب والاواني ذات الالوان الخضراء والزرقاء ، كلها تمثل مرحلة مهمة من مراحل الفن الفرثي في بلاد وادي الرافدين ...

ملاحظـــة :

تمت المقارنة بالنسبة لدراسة الفخاريات مع ما نشرته البعثات الاجنبية التابعة لجامعات كل من مشـگان وجامعة تورينو الايطالية التي نقبت في منطقة سلوقيا (تل عمر) مع حفريات جامعة بغداد (كلية الاداب) قسم الآثار في موقع تل اسود الذي يمثل نفس الفترة الحضارية ...

المصـــادر

بالنسبة للمواد الاثرية المكتشفة فى تل اسود تمت مقارنتها مع مواد تعـــود الى نفس الفترة الزمنيية من مواقع أثرية نقبت فيها بعثات أجنبية وعراقية ونشرت فى نشرات خاصة وأحسن من كتب عن هذه الفترة البعثة الامريكية التابعة لجامعة مشغان والبعثة الايطالية فى سلوفية وطيفون ٠

1- Leroy Waterman, Preliminary Roport upon the Exacavation at Tell-Umar, Iraq University of Micigan (1931) PL. VI, VII, X

2- Nelson G. Debevoise, Parthian-Pottery from seleucia on the Tigris, University of Michigan, (1934)

الستائر وانواعها في العصر العباسي

زكية عمر العلي
كليـة الاداب / جامعة بغداد

الباب الاول

الستائر في اللغـة :

الستارة كما يقول ابن منظور لفظة عامة تطلق على كل ما يتستر به(١) . والسترِ بالكسر معروف وهو ما ستر به ، اما لفظة (الستوريان) فهي تطلق على من يحفظ الستور بأبواب الملوك(٢) والستائر انواع عديدة مختلفة لها تسميات خاصة بكل نوع من انواعها والتي منها الشف والتي تعني الستر الرقيق(٣) ، او الجمال فهي ستائر كانت تضرب للعروس او بيت يزين لها(٤) ، وتسمى الجالسات فيها من النساء بربات الجمال(٥) ، ولقد ذكر في المصادر الى ان هذه الجمال كانت في العصر العباسي تتخذ من اقمشة مختلفة ذات الوان جميلة تزينها احيانا الكتابات والمقطوعات الشعرية الجميلة، فهذا الوشاء مثلا يذكر لنا بعض من ابيات الشعر التي كانت تزين جملة احد الظرفـاء ، فيقول :

دعيني أمت والشمل لم يشعب ولا تبعدي افديك بالأم والاب

---

(١) الفيروز أبادي ، المحيط ، حـ٢ ، ٤٦ .

(٢) الزبيدى ، تاج العروس ، حـ٣ ، ٣٥٤ .

(٣) ابن سيده ، المخصص ، حـ٤ ، ٧٥ .

(٤) الموشهاء ، الموش) ، ح٢ /١٥٣ ، ولا زال هذا النوع من الستائر معروف في بعض القرى والارياف العراقية .

(٥) الوشاء ، /١٥٣ .

سقى الله ليلا ضمنا بعد هجعة وادنى فؤاد من فؤاد معذب
فينا جميعا لو تراق زجاجة من الراح فيما بيننا لم يشرب[٦]

كما أورد لنا الوشاء جملة اخرى مكتوب عليها ايضا .

نشرت على غدائر من شعرها حذر الفضيحة والعدو المولق
فكأنه وكأنني وكأانها صبحان باتا تحت ليل مطبق[٧]

اما الكلل فهي من انواع الستائر الاخرى والتي تعني الستر الرقيق[٨]، وقيل ايضا هي الستر الرقيق يخاط كالبيت[٩] وتشير بعض المصادر الى ان الكلل كانت تزين بالكتابات ايضا فمما اشارت اليه تلك المصادر نص كان مكتوب بالذهب على كلة معصفرة :

من قصر الليل اذا زرتني ابكي وتبكين من الطول
عدوك عينيك وثانيهما اصبح مشغولا بمشغول[١٠]

كما ورد ذكر اكلة من الحرير كانت تزينها الكتابات المذهبة التي نصها مقطوعة شعرية هي :

سهرت وعانقتها ليلة على قلبها يحسد الحاسد
كأنها جميعا وثوب الدجا علينا لمبصرنا واحد[١١]

ولقد وردت تسمية اخرى للستائر وهي الخدور التي كانت تعني ستائر تحد للجارية في ناحية البيت ثم صارت تعني كل ما وراك من بيت

---

(٦) الوشاء ، ح٢ ، ٢٣٣ .
(٧) الوشاء ، ح٢ ، ٢٣٣ .
(٨) ابن سيده ، ح٤ ، ٧٥ .
(٩) الوشاء ، ح٢ /٢٣٢ .
(١٠) الوشاء ، ح٢ /٢٣٢ .
(١١) الوشاء ، ح٢ /٢٣٢ .

ونحوه[12] . ولقد كانت النساء اللواتي الزمن الخدور وضرب الامثال في الحشمة والوقار وسميت الجالسات فيها برباب الخدور[13] ، وثور المصادر استعمال اخر للخدور وهو خشبات تنصب فوق قتب البعير مستورة بثوب وهو الهودج ويقال عنه هودج محذور ، وقد انشد الاعرابي في هذا المعنى وقـــال :

صوى لهاذا لدنـة في ظهـره كأنـه مخدر في خدره

وقال الشاعر ايضا :

وضعت بـذي الجـذاد فضـول ريـط
بكمـــا يختـــدرن ويرتدينـــا[14]

ويتبين مما سبق ان الحذر قد كان مصدر الهـام الشعراء والمتغزلين حيث كانوا ينادون ربات الخدور بأجمل ما جاشت به صدورهم فهذا كشاجم يقول:

ونبت الزمـان فقـد ابـرزت من الحذر تجلى لعشاقها[15]

وقال شاعر آخـر :

من ليـوث الشـرى اذا دارت الحـر
ب وفي السـلم من ظبـاء الخدور[16]

وتؤكد المصادر على وجود ضروب اخرى من الستائر فالسجف التيقال فيهـا كشاجم :

---

(١٢) ابن منظور ، ح/٢٣٠ .
(١٣) الاصفهاني ، الاغاني ، ح١٦/٤٧ .
(١٤) ابن منظور ، ح١٠/٢٣١ .
(١٥) كشاجم ، الديوان ، ٣٧٣ .
(١٦) عبدالكريم توفيق ، الشعر العربي /١٠٠ .

ووجهت من وراء السجف تخبرني ان الخليط غروب الشمس مرتحل
قلت ارفعي السجف نستمتع بموقفنا والشمس ماغيبت من وجهك الكلل[١٧]

غير ان المصادر لم تفصل في اشكال هذا النوع من الستائر وكل ما قيل فيها انها ضرب من الستائر[١٨] .

اما القرام فهي ضرب اخر من ضروب الستائر التي يقول فيها ابن منظور هي الستر الرقيق رقم ونقوش[١٩] .

ومما لا شك فيه ان تسميات الستائر التي اوردنا ذكرها كانت معروفة منذ العصر الجاهلي واستمرت عبر العصور والى العصر العباسي ، واذا ما أردنا ان نبحث في هذه التسميات في الوقت الحاضر فلا نجد استعمالاً الا لقليل منهـا .

الستائر في عصر الرسالة والعصر الاموى :

والستائر عامة كانت وما زالت من مكملات بل من ضروريات الـدور والقصور التي لايمكن الاستغناء عنها ولقد مرت بتطورات كثيرة سواء كان هذا التطور في نوعيتها ام في الاغراض التي اتخذت من اجلها .

فلقد كانت الستائر تتخذ في عصر النبي محمد (ص) كحجاب لأبـواب البيوت وروي عن النبي (ص) انه استعملها كحجاب لابواب دور نسائه[٢٠] . ولقد اسعفتنا المصادر في تفصيل اشكال تلك الستائر فقد ذكرت الى انها كانت تتخذ من مسوح الشعر ثلاثة اذرع في ذراع[٢١] .

---

(١٧) كشاجم ، الديوان ، ٤٠٤ .
(١٨) ابن سيده ، المخصص ، حـ٤ ، ٧٥ .
(١٩) ابن منظور ، لسان العرب ، ح٢ /٤٧٤ .
(٢٠) ابن سعد ، الطبقات ، ح٨/١٢٦ .
(٢١) ابن سعد ، ح٨ /٩٣ .

اما ما جاء في قوله تعالى (حجابا مستورا) اي حجاب على حجاب والاول مستور بالثاني ويراد بذلك كثافة الحجاب[٢٢] .

وتشير مصادر اخرى الى ان هناك انواع اخرى من الستور استعملت في بيوت النبي محمد (ص) غير التي كانت من مسوح الشعر ، وبما يؤكد قولنا هذا ما جاء في حديث السيدة عائشة (رض) حين قالت : « كان لنا ستر فيه تمثال طائر ، وكان الداخل اذا دخل استقبله فقال لي رسول الله (ص) : حولي هذا فأنني كلما دخلت فرأيته ذكرت الدنيا »[٢٣] . وقد ورد هذا الحديث عن النبي (ص) في مصادر اخرى وبشكل اخر نقلا عن السيدة عائشة (رض) ايضا التي قالت : « قدم رسول الله (ص) من سفر وقد سترت سهوة لي بقرام فيه تمثال فلما رآه رسول الله (ص) تلون وجهه ، وقال : يا عائشة : ان اشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله ، قالت : فقطعناه ، فجعلنا منه وسادة او وسادتين »[٢٤] .

ومن النص التأريخي المار الذكر نستطيع ان نستدل الى السبب الذي حدا بالنبي محمد (ص) الى تجنب استعمال هذا النوع من الستائر التي تزينها التصاوير هو ميل النبي (ص) الى روح التقشف والجهاد والبساطة وتجنب البذخ الذي سار عليه (ص) في سياسته والذي ساد الجماعة الاسلامية الاولى ايضا .

كما وتورد المصادر الى ان النبي (ص) كان يستعمل نوعا اخر من الستائر في بيوته وهي الخدور وتورد نفس المصادر الى ان جميع بناته كن يلزمن الخدور ، هذا ما جاء على لسان الاصفهاني الذي ذكر عن النبي محمد (ص) ، فقال : كان اذا خُطِبَ اليه احدى بناته اتى الخدور فقال : ان فلانا يخطب ،

---

(٢٢) الجوهري ، تاج صحاح العرب ، ح٢/٦٧٦ .

(٢٣) باشا ، احمد تيمور ، التصوير عند العرب / ١١٣ .

(٢٤) باشا ، ١٦ .

فأن طعنت الخدر لم يزوجها ، حيث ان معنى طعنت الخدر دخلت وذهبت وقيل معناه ضربت بيدها على الخدر[٢٥] .

وفي العصر الاموي فتشير المصادر الى الازدهار الذي شهدته صناعة الستائر حيث طارت شهرت بعض المدن بهذه الصناعة ، فمدينة واسط مثلا التي ورد ذكرها في المصادر كانت قد اصبحت من المدن المشهورة بهذه الصناعة وكانت تخرج من انوالها الستائر الصوفية والقطنية السميكة والتي كانت تعرف « الواسطية »[٢٦] .

وتضيف المصادر الى ان الستائر في هذا العصر ايضا كانت تتخذ لاغراض كثيرة ومختلفة . فقد اتخذها الخلفاء للاحتجاب خلفها في مجالسهم . فقد قيل ان معاوية ومروان وعبدالملك وسليمان ومروان بن محمد كان بينهم وبين الندماء ستارة وكان لا يظهر احد من الندماء على ما يفعله الخليفة اذ طرب للمغني والتذه حتى ينقلب ويمشي ويحرك كتفيه ويرقص ويتجرد حيث لايراه الاخواص جواريه الا انه كان اذا ارتفع من خلف الستارة صوت او نعير طرب أو رقص او حركة زفير تجاوز المقدار قال صاحب الستارة حسبك يا جارية كفى ! انتهى ! اقصري يوهم الندماء ان الفاعل لذلك بعض الجواري[٢٧] .

---

(٢٥) الاصفهاني ، ج١٦ /٤٧ .
(٢٦) البغدادي ، تأريخ بغداد ، ج١/٥٠ .
(٢٧) ولم تكن عادة الاحتجاب خلف الستائر معروفة عند خلفاء الامويين وحدهم بل كانت معروفة من قبل ملوك الاعاجم فتذكر المصادر الى ان هؤلاء الملوك كلهم من لدن اردشير بن بابل الى يزدجرد كانت تحتجب عن الندماء بستارة. فكان يكون بينه وبين اول الطبقات عشرون ذراعا لان الستارة من الملك ع(عشرة اذرع والستارة من الطبقة الاولى ع(عشرة اذرع . وكان الموكل بحفظ الستارة رجلا من ابناء الاساورة يقال له « فرم باش » فاذا مات هذا الرجل وكل بها آخر من ابناء الاساوره وسمي بهذا الاسم ، كما يشير نفس المصدر الى ان هذه العادة كانت معروفة عند النبي (ص) فلقد كان يحتجب خلف الستائر ايضا (الجاحظ ، التاج ، ٢٨) ولربما ان استعمال الستائر في الاحتفالات الرسمية والمناسبات له علاقة بما كان معروفا آنذاك .

ويشير النص السابق ان كان لهذه الستائر شخص مختص يدعى « بصاحب الستارة » يقوم بمهمة فتحها وغلقها حسب ما يراه مناسبا .

واستخدمت الستائر في العصر الاموي ايضا كحجاب يفصل بين غرف الجواري والمغنيات في داخل قصورهم ، كما كان الخلفاء انفسهم يحتجبون بها عن الجواري والمغنيات(٢٨) .

ولم يقتصر استخدام الستائر للحجاب في دور الجواري والمغنيات فقد احتجبت الحرائر من نساء الخلفاء في هذا العصر ايضا فهذا الاصفهاني يروي لنا حادثه طريفه تؤكد لنا فقد قال عن عاتكه بنت معاوية بن ابي سفيان انها حجبت ونزلت من مكة بذي طوى فبينما هي جالسة ذات يوم وقد اشتد الحر وانقطع الطريق وذلك في وقت الهاجرة اذ أمرت جواريها فيرفعن الستر وهي جالسة في مجلسها عليها شفوف لها تنظر الى الطريق اذا مر بها ابو دهبل الجمحي ، وكان من اجمل الناس واحسنهم منظرا فوقف طويلا ينظر اليها والى جمالها وهي غافلة عنه فلما فطنت له سترت وجهها وأمرت بطى الستر وشتمه(٢٩) .

الستائر في العصر العباسي :

اما في العصر العباسي الذي اتسمت حضارته بمظاهر البذخ والترف ، كانت الستائر جزءاً من تلك المظاهر ، فقد اصبحت زينة البيوت من الداخل وان جمال المسكن يتلخص في ان تكون حيطانه معلقا عليها الستائر الملونة الجملة(٣٠) . وقد كانت لهذه الستائر النماذج الصناعية لكل بلد اشبه بجزء من اللباس القومي الذى يختص به وكان السائر في انحاء المملكة الاسلامية يستطيع ان يعرف في اي بلد هو وذلك بالنظر الى ما على حيطان الغرف من

---

(٢٨) الاصفهاني ، ح٥/٩٨ .
(٢٩) الاصفهاني ، ح٧/١٩ .
(٣٠) ادمتر ، الحضارة الاسلامية ، ح٢/٢٩٥ .

انواع الستائر[٣١] • وتؤكد الكتب التأريخية التي تبحث في العصر العباسي ان طارت شهرة بعض المدن بنسيج الستائر الثمينة لذا فقد عمدت المدن التي لا شهرة لها ان تعمل ستائراً تشبه الستائر التي كانت تصنع في تلك المدن المشهورة وتكتب عليها اسمها لتدلسها[٣٢] ويخبرنا المقدسي عما كان يكتب على بعض ستائر واسط الجيدة وهي عبارة مما عمل ببصنا والغرض منها هو ايهام الشاري بأنها من عمل بصنا بأيران الا انها في الحقيقة ليست مشابهه لها[٣٣] •

وتؤكد الكتب التأريخية التي تبحث في هذا العصر على اتخاذ الخلفاء الستائر وسيلة للاحتجاب بها عن الندماء والمغنين كما هو الحال في العصر الاموي • فذكر عن ابو العباس أنه كان في اول ايامه يظهر للندماء والمغنين ثم احتجب عنهم بعد سنة اشار عليه بذلك اسيد بن عبدالله الخزاعي وقد كان يطرب ويبتهج ويصيح من وراء الستارة احسنت والله اعد هذا الصوت فيعاد[٣٤] •

وتشير مصادر اخرى الى ان ابو جعفر المنصور لم يكن يظهر لنديم قط ولا رآه احد يشرب غير الماء وكان بينه وبين الستارة عشرون ذراعا وبين الستارة والندماء قبلها فاذا غناه المغني فأطربه فيقول : قل له : احسنت بارك الله فيك وربما اراد ان يصفق بيديه فيقوم من مجلسه ويدخل حجر نسائه[٣٥] • اما الرشيد فقد قيل انه كان يجلس محتجبا وراء الستائر ايضا[٣٦] •

---

(٣١) ادم متز ، ج٢/٢٩٥ •
(٣٢) ادم متز ، ج٢/٢٩٥ •
(٣٣) المقدسي ، احسن التقاسيم /١٢٩ •
(٣٤) الطبري ، ج٧/٢٥٠ •
(٣٥) الجاحظ ، التاج /٣٠٤ •
(٣٦) الجاحظ ، التاج /٣٢ •

ويتبين من النصوص التأريخية ان عادة نصب الستائر في العصر العباسي دليل فرح وفي هجرها دليل حزن وقد جاء هذا على لسان بعض الشعراء نخص منهم كشاجم الذي قال :

ستارتنا مهجورة وكؤوسنا ... تعلل بالنز الصبابة تعليلا[٣٧]

ويتبين من النصوص ايضا ان الجواري في هذا العصر كن يغنين من وراء الستائر ، ولكن المبالغة في اكرام الضيف ان تغني المغنيات بين يدي الستائر ويؤكد لنا هذا ما حكاه التنوخي حين ذكر عن قوم ذهبوا الى الشام ونزلوا عند رجل فأكرمهم ، وقال صاحب الدار للجواري : ما هذا الاحتشام لاضيافنا اعزم الله ! اخرجن ، وهتك الستائر فخرج عليهث جوار لم ير قط احسن ولا املح ولا اظرف منهن[٣٨] .

اما العادة فهي ان تمد الستائر وتجلس الجواري خلفها ويضربن ويغنين[٣٩] . غير ان بعض الخلفاء كانوا يخرجون عن العادة المألوفة ويجلسون مع الجواري ومنهم الخليفة المقتدر[٤٠] .

ولقد عرفت عادة هتك الستائر في العصر العباسي[٤١] ، ولم تكن هذه العادة مقتصرة على الخلفاء واصحاب المجالس بل كانت تهتك من قبل الجواري المحضيات[٤٢] . وان الهتك كان يأتي لأغراض مختلفة ومناسبات خاصة[٤٣] .

---

(٣٧) كشاجم ، الديوان / ٣٨٨ .
(٣٨) ادم متز ، ح٢/٢٠٧ .
(٣٩) المسعودي /ح٣/٣٨٧ .
(٤٠) الاصفهاني /ح٥/٢٠٢ .
(٤١) المسهودي ، ح٤/١٢٦ .
(٤٢) الوشاء ، ح١/٧٩ .
(٤٣) المسعودى ، ح٤/١٢٦ .

وتعرفنا المصادر التي تبحث في العصر العباسي الى ان الستائر المستعملة في هذا العصر كانت قد نسجت من الديباج والدبيقي(٤٤) ، والحرير والصوف والكتان وغيرها وكانت تزين بالرسوم الادمية والحيوانية ورسوم الطير فمن هذه الطيور التي ذكرت الطاووس والحمام ، ومن انواع الحيوانات الغزلان والفيله والاسود والخيول وكانت الوجوه الزخرفية المشهورة التنين والعنقاء ، اما الرسوم الادمية فتمثل في صور الاشخاص والاشكال الادمية المجنحة ، ومناظر الصيد والفروسية والرقص ، وكانت هذه الوحدات ترسم متقابلة او متدابرة ، وتنفذ على الستور وعلى المنسوجات والخيام والسجاد ايضا . اما بطريقة التطرير بالخيوط الحريرية (بالقوالب المحفورة) بالالوان والصبغات المختلفة(٤٥) .

ولقد عرف نوع من الستائر في هذا العصر كان يسمى بالستائر العضدية وهي منسوبة الى عضد الدولة البويهي وكان هذا الضرب من الستائر الكبار مصنوع من الديباج يعلق على الابواب والممرات والدهاليز(٤٦) . وتذكر لنا المصادر نوعا من الستائر كان معروفا في مصر في العصر الفاطمي جاء ذكره على لسان عماره فيقول :

البستها بيض الستور وحمرها فأتت كزهر الروض ابيض احمر
وبها زرافات كأن رقابها في الطول ألوية تؤم العسكر(٤٨)

كما تذكر لنا المصادر نوعا اخر من الستائر الفاطمية والتي كانت الحرير المنسوج بالذهب على اختلاف الوانها واطوالها منها صور الدول وملوكها ومشاهيرها وعلى صورة كل واحد اسمه ومدة ايامه وشرح حاله(٤٨).

---

(٤٤) البغدادى ، تأريخ ، جـ١ /١٠٢ .
(٤٥) جميل عطيه ، افاق عربية ، ٥٠ .
(٤٦) الصائي ، رسوم دار الخلافة /١٦٠ .
(٤٧) احمد تيمور باشا ، التصوير عند العرب /١٧ .
(٤٨) جرجي زيدان / التحدن الاسلامي ، ج٥ /١٣٢ .

ثم تأتي المصادر على ذكر الكثير من الستائر العباسية التي تزينهـــا المقطوعات الشعرية منها ما ذكره علي بن الجهم والذي كان على ستر لبعض امهات ولد المأمون فيقول :

هجرتني كمـا اجاريكـم بفعلكـم لا تهجرنـي فأنـي لا اجاريكـم
قلبـي محب لـكم راضى بفعلكـم استزرق الله قـلب" لا يجانبـك
اصبحت عبداً لادنى اهـل داركم وكنت فيما مضىحولى حواليك(٤٩)

كذلك ورد ذكر لستارة كانت لموسى الهادي بن المهدي كان قد كتب عليهـا :

يا ايهـا الزاعـم الـذي زعمـا ان الهوى ليس يورث السـقما
لو ان حابي بـك الغـداة لمـا لمت صحبـا اذا شكا ألمـا(٥٠)

ولقد ذكرت ستارة اخرى كانت لبعض ولد المتوكل زينت بالكتابات يقـرأ منهـا •

يا أيهـا اللائمـي فيهـا لا صرفهـا اكثرت لو كان يغني عنك الاكثار
ارجع فلست مطاعـا ان وشيت بها لا القلب سال ولا في حبها عار(٥١)

وبالغ الخلفاء في العصر العباسي بأستعمال العديد الفاخر من الستور فقد روى عن عدد ما علق في قصور امير المؤمنين المقتدر بالله من ستور الديباج المذهبة بالطرز المذهبة الجليلة المصورة بالجامات والفيلة والخيل والجمال والسباع والطرد والستور الكبار البضغائية والارمنية والواسطية والبهنسية السواذج المنقوشة والبيقية المطرزة ، ثمانية وثلاثين الف ستر منها

---

(٤٩) احمد تيمور باشا ، ١٧ •
(٥٠) الوشاء ، ح٢ /٢٣١ •
(٥١) الوشاء ح٢/٢٣١ •

ستائر الديباج الديباج المقدم وصفها اثنا عشر الفا وخمسمائه ستارة[٥٢] وعلق الخلفاء العباتكين الستائر المطرزة والموشاة وحملوا الستائر المعلمة من خسا وجعلوا ما ينقش عليها باللغة العربية بين امثال واشعار وحكم ويعلقون هذه الستائر بمسامير الذهب والفضة[٥٣] .

الباب الثاني

ومما يؤسف له هو اننا لم نعثر على شيء من تلك الستائر غير اننا وجدنا خير عونا لنا في دراستها في المنمنمات التي تزوق المخطوطات العباسية، لذلك فقد قمنا بدراسة رسومها في هذه المخطوطات ونتيجة لهذه الدراسة

(١) ستور الابواب والنوافذ :

يعتبر هذا النوع من اقدم انواع الستائر استعمالا حيث جرت العادة ان توضع قطع القماش فوق الابواب والنوافذ لحجب الانظار ثم تطورت واصبحت قطع القماش هذه مثالا للتفاخر والتباهي بل واصبحت مظهر من مظاهر الترف والغناء لا سيما في المناسبات الخاصة .

ففي منمنمة من منمنمات نسخة من مخطوط مقامات الحريري المنسوب الى بغداد والمؤرخ من سنة ١٢٢٥ م - ١٢٣٥ م[٥٤] (وشكل ١) تبدو فيها ستارة لباب داخلي لقاعة او بهو تتألف من قطعة واحدة مشدودة من وسطها وهي مصنوعة من القماش الازرق المتدرج بين الغامق والفاتح وتدل تموجاته الى ان قماشها هو الديباج او الحرير ، ومما يؤكد ذلك ان القاعة كانت مخصصة لحفلة عقد قران ،

---

(٥٢) الفرد ، ما يطرد به الكواسر ، البضغائية ، كذا في الاصل ولعلها الضعانية (البغدادي ، ح١/٢:١٠٢) .

(٥٣) جرجي زيدان ، ح٥/١٢٦ .

ويزين وسط هذه الستارة دائرة مذهبة كبيرة من اللألىء تملؤهـا زخارف نباتية مذهبة ايضا ، كما يزين طرفيها العلوي والسفلي شـريط زخرفي قوامه جنيبات وخطوط متعرجة • اما باقـي الستارة فخـالي مـن الزخرفة سوى بعض التموجات التي ذكرناها سابقا •

وتتدلى هذه الستارة من اطار خشبي يزين طرفيها العلوي يتألف من انصاف دوائر متصلة مع بعضها تزينها الزخارف •

اما طريقة تعليق هذه الستارة فهي بواسطة المكابس التي تمرر حلقاتها

ويتكرر هذا النوع من الستائر ايضا في احدى منمنمات نسخة مخطوط اخوان الصفا المؤرخة من سنة ٦٨٦ هـ المنسوبة الى بغداد (شكل ٢)(٥٥) ، كما نلاحظ التشابه في هذه المنمنمة هو ان بعض الشخصيات ترتدي ملابس من اقمشة الستائر نفسها •

كما ويلاحظ في منمنمة اخرى من مخطوط مقامات الحريرى الـذى زوقة يحي الواسطي (شكل ٣)(٥٦) جزء من ستارة كبيرة تزين باب داخلي لقاعة تتألف من قطعة واحدة من القماش يزينها شريطين احدهما في اسـفل الستارة والاخر في اعلاها قوام هذين الشريطين اشرطة اخرى ضيقة تملئها الزخارف التي تكونها الحبيبات ويبدو في شريط منها زخرفة تشبه رؤوس الطيور • وجزء الستارة المحصور بين الشريطين فتزينه زخرفة تتألف مـن اغصان ملتوية واوراق • اما الجزء الباقي من الستارة اي نهايتها فهي خالية من الزخارف عدا بعض التموجات •

وفي منمنمة اخرى من نفس المخطوط (شكل ٤)(٥٧) نجد ستارة باب

---

(٥٤) عيسى سلمان ، فن التصوير عند العرب ، ١١٣ •
(٥٥) عيسى سلمان /٩٩ •
(٥٦) خالد الجادر ، المخطوطات العراقية شكل ١٣ •
(٥٧) ناهدة عبدالفتاح ، المرأة في رسوم الواسطي شكل ٧ •

.اخلى لقاعة او بهو والستارة هنا تتألف مـن قطعتين شدت كل منها الى جانب
ن جوانب الباب ، وهذه الستارة تشبه التي سبقتها الى حد كبير من حيث
لزخرفة والتصميم • وتعلق هذه الستارة بواسطة المكابس التي يعلوهـا
لاطار الخشبي غير انه هنا لا يغطي المكابس لذلك فأنها تبدو واضحة •

اما اذا انتقلنا من ستائر الابواب الى ستائر النوافذ فنجد منها نماذج كثيرة منها ما يتمثل في منمنمة من منمنمات مخطوط ديسقوريس المـؤرخ من سنة ٦٢١ هـ والمنسوب الى العراق (شكل ٥)[٥٨] ويبدو في هذه المنمنمة ستارتين تزين نافذتي بهو او قاعة وهما متشابهتين تتألف كل منها من قطعتين مفتوحتي الوسط معقودة الى الجانبين وتبدو انهـا مـن القمـاش الأزرق المتدرج بين الغامق والفاتح تتألف زخرفتها من شريطين علوي وسفلي تملئها الزخارف المذهبة التي قوامها الحبيبات ويزين وسط الشريطين في كـلا الستارتين نصف دائرة تكون عند انغلاق جزئي الستارة دائرة زخرفيـة جميلة تدور حولها الحبيبات اما ارضيتها فتملئها الاوراق النباتية •

وتتألف زخرفة الجزء العلوي والسفلي لهذه الستارة من خطـوط مستقيمة تتدرج الوانها بين الازرق الفاتح والازرق الغامق • اما مكابس تعليق فهي غير واضحة هنا لانها مغطاة من الاعلى بأطار • ونجد هذا الضرب من ستائر النوافذ ايضا في منمنمة من منمنمات مقامات الحرير المؤرخـة من سنة ١٢٣٥م (شكل ٢)[٥٩] وتظهر في هذه المنمنمة ستارتين ذات لـون اسود تغطي نافذتين وعقدت كل واحدة منهما الى الجانبين يزينها في الوسط شريطين مذهبين احدهما في اعلى الستارة والثاني في اسفلها ويتألف كـل منهما من زخارف نباتية وخطوط مستقيمة ، اما الجزء الباقي من الستارتين

---

(٥٨) عيد، سلمان /٨٧ •

(٥٩) عيد، سلمان /١١٣ •

فهو خالٍ من الزخارف ولا تظهر عليها الا التموجات التي تدل على انها مصنوعة من الحرير •

ومما يلفت الانتباه الى ان ستائر النوافذ في هذه القاعة تختلف عن ستارة الباب من حيث اللون والزخرفة ، والظاهر انها ليست القاعة الوحيدة التي تختلف فيها الستور من حيث اللون والزخرفة بل هناك قاعات اخرى يظهر فيها هذا الاختلاف منها واحدة تظهر في المنمنمة المارة الذكر من مخطوط اخوان الصفا (شكل ٢)[٦٠] حيث اختلفت فيها ستور النوافذ عن ستارة الباب الداخلي في نفس القاعة من حيث اللون والزخرفة • ومن هنا يبرز اختلاف عما هو مألوف الان حيث جرت العادة ان تكون ستائر القاعة الواحدة في البيت متشابهة من حيث اللون والزخرفة والتصميم اما في حالة اختلافها وهذا نادراً ما يحصل فيعتبر خروجا عن الذوق • اما المكابس في الستارتين فلا تظهر وذلك لوجود الاطار الذي يزينها من الاعلى •

وفي منمنمة اخرى من نفس المخطوط (شكل ٦)[٦١] تظهر ستارة تزين احدى نافذتي القاعة اما النوافذ الثانية فتبدو بدون ستارة ، والستارة هنا يزينها شريط علوي يتألف من زخارف كتابية غير انها ليست واضحة هنا ، ومما يؤكد ذلك الى انها تشبه الزخارف الكتابية الواضحة التي تزين ستارة الباب في نفس المنمنمة •

الستائر الحائطية :

ويسمى هذا النوع من الستائر « بالنجود » يقول فيها ابن سيده هي ستور البيت تشد على حيطانه وسقوفه يزين بها البيت[٦٢] • وتشير المصادر

---

(٦٠) عيسى سلمان ، ٩٩ •

(٦١) عيسى سلمان /١٠٧ •

(٦٢) ابن سيده ، ج٤/٧٥ وهذه الستائر مستعملة الان في اكثر البيوت العراقية ويفضل ان تكون من النوع الثاني •

الى ان هذه الستائر على نوعين الاول من القماش والثاني سجاجيد تعلق على الحيطان[٦٣] . ويرجح ادم متز الى ان هذه الستائر الحائطية لم تكن محلاة بالرسوم الادمية والحيوانية بل كانت تكتب عليها القصائد والمقطوعات الشعرية الجميلة[٦٤] . ولقد اصبحت هذه الستائر زينة البيوت المهمة من حيث كان يترك فراغ في جدران الحجرات لتعليقها . كما كانت هذه الستائر تتنافس بألوانها وما عليها من جميل الصور[٦٥] .

ويعتقد احمد تيمور باشا ان انتشار تغطية الجدران بالستائر في اوربا أبان القرنين الخامس عشر والسادس عشر راجع الى ما نقلوه في هذا الميدان على المسلمين في الاندلس وصقلية . على ان تعليق الطنافس النفيسة كان معروفا قبل ذلك عند اليونان والرومان[٦٦] .

ولقد وجدنا لهذا النوع من الستائر نماذج منها ما تتمثل في أحد منمنمات مخطوط الواسطي المؤرخ من سنة ٦٣٤ (شكل ٧)[٦٧] . وتبدو الستارة في هذه المنمنمة مستطيلة الشكل ترتفع عن ارضية البهو ، يزين كل ركن من اركانها جامات مثلثة يفصلها عن باقي زخرفة الستارة شريط من الحبيبات اما بدن الستارة فتزينه الزخارف النباتية والدوائر المملوءة بالاوراق النباتية .

ان طريقة التعليق في هذه الستارة غير واضحة غير اننا نعتقد انه لا توجد غير طريقة واحدة وهي تثبيتها في الجدار بواسطة المسامير .

---

(٦٣) اوم متر ، حـ٢ /٢٩٥ .

(٦٤) احمد تيمور ، ١٥٨ .

(٦٥) اوم متر /١٨٣ .

(٦٦) احمد تيمور ، ١٥٨ .

(٦٧) ناهدة عبدالفتاح ، شكر ٨ .

كما ونجد رسم لستارة جدارية اخرى في احدى منمنمات مخطوط مقامات الحريرى (شكل ٨)[٦٨] . والستارة هنا تزين جدران بهو او قاعة وهي مربعة تزين اركانها جامات مثلثة مملوءة بالزخارف النباتية ، اما بقية الستارة فهي مفرطة في الزخرفة قوامها اشكال معينية مملوءة بالخارف النباتية . ولا تظهر في هذه الستارة في هذه الستارة مسامير التعليق ، هذا الى ان هاتين الستارتين هي من النوع الثاني على الاكثر ومما يحملنا على الاكثر ومما يحملنا على الاعتقاد بذلك هو ان هذا التصميم متعارف عليه في السجاجيد الارضية .

وهناك نموذجا اخر لستارة جدارية اخرى في احدى منمنمات مقامات الحريري المؤرخة من سنة ٦٣٤ (شكل ٩)[٦٩] ، وهذه الستارة تختلف عن سابقتها في التصميم فهي مستطيلة ومخصرة في كلا الجانبين ويزين كل ركن من ركنيها العلويين جامة مثلثة مملوءة بالزخارف النباتية ، اما باقي الستارة فتزينه اشكال زخرفية . وتختلف هذه الستارة عن الستائر السابقة وذلك بأضافة قطعة قماش مغايرة لقماش البدن في كل جانب من جانبيها وبشكل هلالي مملوء بالزخارف النباتية كذلك اضيف الى الستارة من الاسفل شريط مغاير لقماش الستارة مفرط في الزخرفة ايضا .

ستائر المقاعد :

لقد تعرفنا على هذا النوع من الستائر من خلال تدقيقنا في المنمنمات، ولقد وجدنا في بادىء الامر انها كانت تتخذ لتزين مقاعد الحكام والشخصيات المهمة ، ويظهر هذا النوع في منمنمة من منمنمات يحيي الواسطي المؤرخة من سنة ٦٣٤ والمنسوبة الى بغداد (شكل ١٠)[٧٠] ،

---

(٦٨) عيسى سلمان ، ١١٣ .

(٦٩) عيسى سلمان ، ١٢١ .

(٧٠) ناهدة عبدالفتاح ، شكل ١٢ .

فهي هنا تغطي مقعد قاضي تبريز ، وتتدلى الى الاسفل ويزين كل ركن من ركنيها العلويين جامة مثلثة مملوءة بالزخارف النباتية اما عداها فهو خالٍ من الزخرفة ، ولكننا نجد ان الافراط في زخرفة الجزء السفلي والذي يتدلى الى اسفل المقعد تزينه اشرطة من الحبيبات والخطوط المائلة واشرطة من الزخارف النباتية . وينتهي هذا الجزء وهو السفلي بشريط قماشي خلوٍ من الزخارف عدا بعض التموجات .

ونجد نموذجا اخر لهذا النوع من الستائر ايضا في احدى منمنمات مخطوط الواسطي (شكل ١١)(٧١) . وهي تزين مقعد امام قاضي الرملة وهي تشبه الستارة السابقة الى حد كبير مع اضافة شريط سفلي تزينه الحبيبات .

قائمة بأسماء المصادر :

(١) ابن سعد ، محمد ، الطبقات الكبرى ، مطبعة ليدن بريل ، (١٩٠٥ ـ ١٩١٤ م) .

(٢) ابن سيده ، علي بن اسماعيل ، المخصص ، المطبعة العصرية ، تونس (١٩٥٦ م) .

(٣) ابن منظور ، ابو الفضل جمال الدين مكرم ، لسان العربب ،*دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٥٩٥ م .

(٤) الوشا الوشاء ابو الطيب محمد بنج اسحق بن يحي ، الموش) ، مطبعة بريل ليدن (١٣٠٢ هـ) .

(٥) الاصفهاني ، ابو الفرج علي بن الحسين ، الاغاني ، الطبعة الاولى المطبعة الخديويه (١٢٢٣ هـ) .

(٦) البغدادي ، ابى بكر احمد بن علي الخطيب ، تأريخ بغداد او مدينة السلام ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .

(٧) باشا ، احمد تيمور ، التصوير عند العرب ، القاهرة ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٢ م .

---

(٧١) ناهدة عبدالفتاح ، شكل ١٣ ، ان هذا النوع من الستائر معروف في اكثر البيوت العراقية ولا يقتصر ع(الاغنياء او الشخصيات المهمة .

(٨) الجادر ، خالد ، المخطوطات العراقية المرسومة في العصر العباسي ، السلسلة الفنية الخاصة التي صدرت بمناسبة مهرجان الواسطي ، نيسان ١٩٧٢ .

(٩) الجاحظ ، ابو عمر بن بحر ، التاج في اخلاق الملوك ، المطبعة الثانيـة ، الاميرية ، القاهرة (١٣٣٢ هـ ـ ١٩١٤ م) .

(١٠) الجوهري ، اسماعيل بن حماد الجوهرى ، تحقيق ، احمد عبدالغفور عطار، مطبعة دار الكتاب العربي بمصر .

(١١) الفيروز ابادي ، مجدالدين بن يعقوب ، القاموس المحيط ، الطبعة الثانية مطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده ، (١٣٧١ هـ ـ ١٩٥٣ م) .

(١٢) كشـاجم .

(١٣) العبود ، عبدالكريم توفيق ، الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة الى سقوط بغداد ، (٥٤٧ ـ ٦٥٦ هـ) رسالة ماجستير ١٩٧٢ .

(١٤) عبدالفتاح ، ناهدة ، المرأة في رسوم الواسطي ، السلسلة الفنية الخاصة التي صدرت بمناسبة مهرجان الواسطي ، نيسان ١٩٧٢ .

(١٥) عطيه ، جميل ، مفهوم الفن والجمال عند مفكرى وفلاسفة الاسلام ، افاق عربية السنة الثانية ١٩٧٦ .

(١٦) سلمان ، عيد) ، طـه ، سليم .

(١٧) العبابيء ، ابي الحسين هلال بن المحسن ، رسوم دار الخلافة ، تحقيق ميخائيل عواد ، مطبعة العاني ، بغداد ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٣ م .

(١٨) الزبيدى ، محمد بن محمد بن مرتضى ، تاج العروس ، المطبعة الخيرية ، مصر (١٣٠٧ هـ ـ ١٨٨٩ م) .

(١٩) زيدان ، جرجي ، تأريخ التمدن الاسلامي ، دار الهلال .

(٢٠) الطبري ، ابو جعفر محمد بن جرير ، تأريخ الامم والملوك ، دار القاموس الحديث للطباعة والنشر ، بيروت .

(٢١) متز ، اوم ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى ، مطبعة لجنـة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة (١٩٤١ م) .

(٢٢) المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسين بن علي ، مروج الذهب ومعاون الجوهر ، تحقيق محمد محي‌الدين عبدالحميد ، الطبعة الخامسة (١٩٦٧ م).

(٢٣) المقدسي .